

تاريخ الحروب الصليبية

الأستاذة الدكتورة

اهداءات ٢٠٠٠

الأستاذة الدكتورة / إسمة خنيم

أستاذ العصور الوسطى

تاريخ الحروب الصليبية

الأستاذة الدكتورة

إسمت غنيم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم العلوم الاجتماعية

جامعة الإسكندرية

المحتوى

===

الموضوع	ص - ص
المقدمة	٥ - ٨
الفصل الاول :	
الحركة الصليبية	٨ - ٣٦
الفصل الثانى :	
الحملة الصليبية الثانية	٣٧ - ٦٠
الفصل الثالث :	
ظهور صلاح الدين الايوبى	٦١ - ٧٦
الفصل الرابع :	
نصر حطين	٧٧ - ٩٤
الفصل الخامس :	
صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة	٩٥ - ١١٦
الفصل السادس :	
الحملة الصليبية الرابعة والعاصمة البيزنطية	١١٧ - ١٧٠
الفصل السابع :	
الايوبيون والحملة الصليبية الخامسة	١٧١ - ١٩٠
الفصل الثامن :	
بيت المقدس بين السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثانى	١٩١ - ٢٠٦
الفصل التاسع :	
مصر والحملة الصليبية السابعة	٢٠٧ - ٢٤٠
المصادر والمراجع	٢٤١ - ٢٥٦

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما دعى البابا ليربان الثاني في مؤتمر كلير مونت بجنوب فرنسا في عام ١٠٩٥م. الغرب الأوربي لحمل شارة الصليب والتوجه إلى الشرق لتخليص الاراضي المقدسة المسيحية في فلسطين من يد المسلمين، كانت الاستجابة لدعوته تلك استجابة هائلة وانخرطت جموع البشر من امراء وعامة للاشتراك في هذه الحركة، وقامت الحملة الصليبية الاولى بشقيها الشعبي والنظامي واتجهت إلى الشرق ونجحت في تأسيس إمارة الرها، إمارة انطاكية، مملكة بيت المقدس الصليبية، وإمارة طرابلس.

وفي البداية أصيب المسلمون في منطقة الشرق الأدنى بالارتباك والفرع بعد أن رأوا ما فعله هؤلاء الصليبيون الغربيون من وحشية وعنف اثناء فتوحاتهم لاراضي المسلمين وخاصة ما فعلوه حينما اقتحموا مدينة بيت المقدس في ١٥ يوليو ١٠٩٩م. والمذبحة الوحشية التي اقترفوها مما جعل بعض المؤرخين الغربيين أنفسهم يعتبرون هذه المذبحة وصمة وعار في تاريخ الحروب الصليبية^(١).

ثم بدأ المسلمون يفيقون من غفوتهم ويدركون مدى الخطر الذي يتهددهم من جانب هؤلاء الصليبيون وبدأوا في رفع راية الجهاد ضدهم وبرزت أسماء لامعة خلدها التاريخ أبلت بلاء حسناً في الجهاد ضد الصليبيين ومن أشهرهم عماد الدين زنكي. وقد اثمرت جهود هؤلاء المجاهدين واستطاع المسلمون التغلب على الحملة الصليبية الثانية التي تولى قيادتها اثنين من اكبر ملوك

^(١) Grousset : Histoire des Croissades, vol 1,p. 161.
Runciman : A History of the Crusades, vol 5,p. 278.

الغرب الاوروبى وهما كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا، وقد جاء فشل هذه الحملة ايدانا بترنح البناء الصليبي فى الشرق.

وشاء القدر أن تظهر الدولة الايوبية فى هذه المرحلة من مراحل الصراع الصليبي الاسلامي، وان يقع على عاتقها مواجهة هؤلاء الصليبيون الذين لم يقتصروا بالاستقرار فى اراضى الشام وفلسطين وتهديد ممتلكاتها هناك، وانما اتجهت اطماعهم نحو مصر، مركز هذه الدولة وقلبها النابض، وذلك بهدف ضمها واحتوائها بامكانياتها البشرية والمادية الهائلة ضمن مناطق نفوذهم.

ولتحقيق هذا الهدف تم التخطيط والتنفيذ لحمليتين كبيرتين اتجهتا ضد مصر، وكان على رأس حملتهم الثانية وهى المعروفة باسم الحملة الصليبية السابعة لويس التاسع ملك فرنسا الذى تم أسره وقضى فترة الاسر فى دار اين لقمان بمدينة المنصورة. وقد باءت الحملتان بالفشل الذريع وكان فشلها هذا جزاء طيبا لما اقترفت ايديهم وتطاوت إليه احلامهم.

وقد أكملت دولة المماليك الدور الذى بدأته الدولة الأيوبية وتم تطهير بلاد المسلمين على يد المماليك من هؤلاء الغزاة الغريبيون الذين قلموا بأول حركة استعمار قام بها الغرب الاوروبى ضد بلاد المشرق الاسلامى والذين اتخذوا من الدين ستارا لها.

والله الموفق

أ. د. إسمت غنيم

لوران

يناير ١٩٩٦.

الفصل الأول

الحركة الصليبية

التعريف ، الدعوة ، الحملة الصليبية الأولى

التعريف بالحركة الصليبية:

يعرف الكونت ريان Riant الحركة الصليبية بأنها (حروب دينية خالصة، دوافعها دينية، وترمى إلى استرداد بيت المقدس عن طريق مباشر أو غير مباشر).

اذن فهذا المؤرخ يرى ان هذه الحركة الصليبية هي حركة دينية خالصة، وهذا الرأي الذى جعل من الحركة الصليبية (حركة دينية خالصة) سيطر على افكار وأراء المدرسة القديمة من المؤرخين، فنرى المؤرخ اللاتينى المعاصر روبرت الراهب يقول: (وأى حدث وقع فى انحاء المعمورة منذ بدئ الخليقة يفوق اعجازاً ماحدث فى هذا الزمن، هذا الحدث الذى تمثل فى حملة رجالنا إلى بيت المقدس وان المرء كلما دقق فى دراسة هذا الحدث كلما تمددت خلايا مخه وزاد ذهوله فان هذه الحملة كانت من عمل الرب وليست من عمل البشر).

وقد أخذت قلة من المؤرخين المحدثين بهذا الرأي ولعل أبرزهم المؤرخ الفرنسى روسيه Rousset⁽¹⁾.

على أن المدرسة الحديثة من المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ الالمانى هاجنماير Hagenmeyer بعد دراسات وابحاث مستفيضة لهذه الحركة قد أوضحت ان هناك اسباب ودوافع اخرى إلى جانب الدافع الدينى، منها دوافع اجتماعية واقتصادية وسياسية خاصة بالغرب الاوروبى كانت وراء قيام هذه الحركة، وان الدافع الدينى ليس الدافع الوحيد كما أدعت المدرسة القديمة من مؤرخى الحروب الصليبية.

⁽¹⁾ Rousset P.: Les Origins et les Caracteres de la Premier Croisades, Neuchatel, 1945.

فبالنسبة للدافع الاجتماعي فأننا نجد أن المجتمع الأوروبي الوسيط قد تكون من طبقة النبلاء والفرسان المحاربين، وطبقة رجال الكنيسة والديرين، وكانت هاتان الطبقتان تمثلان اقلية ارسقراطية أما الاغلبية السائدة فقد كانت طبقة رقيق الارض (الاقنان) المرتبطين بالارض الزراعية الذين يقومون بفلاحتها ويعيشون عيشة هي اقرب إلى الموت منها إلى الحياة حيث كان القن محروما من الملكية الشخصية وكان كل ما يملكه يعتبر ملكا خاصا للسيد الاقطاعي، وهكذا عاشت هذه الطبقة حياة قاسية تفتقر للاستقرار والأمان، وكثيرا ما تعرضوا لهجمات العناصر الشمالية (الفيكنج) الذين خربوا الجسور فغطت مياه البحار والانهار الاراضي، كما كانت القرى غير محمية بالاسوار فاصبحت عرضة للسلب والنهب.

وقد وجدت هذه الطبقة البائسة من الفلاحين من رقيق الارض في الاشتراك في الحروب الصليبية، المخرج الوحيد لأزمته وحياتها القاسية، فاندفعوا في الاتخراط في هذه الحروب فرارا من جحيم الحياه في ظل النظام الاقطاعي، فاذا عاشوا فقد فازوا بخيرات الشرق ورغد العيش فيه، واذا ماتوا فقد كانوا يعيشون حياه هي اقرب إلى الموت، فضلا عن فوزهم بالجنة ونعيمها في الآخرة كما وعدتهم البابوية بذلك.

أما عن الدافع الاقتصادي وراء هذه الحروب فقد أوضحه المؤرخ ثومبسون Thompson حين عرّف الحروب الصليبية بأنها (أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوروبية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق)⁽¹⁾.

(1) Thompson: Economic and Social History, 1, P. 397.

فقد عانى الغرب الأوروبي وخاصة في الفترة السابقة مباشرة لقيام الحروب الصليبية من القحط والمجاعات وعمت الفيضانات الكبرى البلاد في عام ١٠٩٤م. ثم أعقبها انتشار الأوبئة. وفي عام ١٠٩٥م. حدثت مجاعة كبيرة، وأشار المؤرخ المعاصر جيورج نوجنت Gilbert Nogent إلى وجود مجاعة شاملة في فرنسا، فنذر وجود القحط، ولجأ الناس إلى أكل الأعشاب والحشرات، وقد أشار البابا أيريك الثاني نفسه إلى تلك الظروف في خطابه في مجلس كلير مونت في ١٠٩٥م. الذي دعى فيه إلى قيام الحروب الصليبية.

كذلك فقد وجدت المدن البحرية الإيطالية مثل البندقية وجنوا وبيزا في تلك الحروب فرصتها الذهبية للثراء وجنى المكاسب والاموال عن طريق نقل الصليبيين إلى الشرق، ولدينا مثال لذلك أثناء الحملة الصليبية الرابعة، فقد تم الاتفاق بين الصليبيين والبندقية على أن يدفعوا لها ٨٥ ألف مارك من الفضة مقابل نقلهم هم وخيولهم إلى الشرق، وتقديم الفون والأغذية لهم خلال مدة السفر وهي تسعة شهور، كما أعلن دوج البندقية تريكو دانولو أنه (حبا في الله سنضيف إلى الاسطول خمسين غاليا حربية بشرط ان تكون شركاء في كل المكاسب التي تحققها الحملة من قروضات أو أموال، في البر أو في البحر بحيث يأخذون النصف ونأخذ نحن النصف الآخر).

ولم تكف البندقية بذلك، وإنما غررت بهؤلاء الصليبيين واقتعتهم بمساعدتها في الاستيلاء على مدينة زارا على ساحل البحر الأدرياتيكي، وهي مدينة مسيحية كانت تابعة لملك هنغاريا، وقد استولوا عليها بالفعل ونجحوا أهلها المسيحيين^(١). فهل كان الصليبيون والبنادقة مدفوعين بدافع الدين واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين أم بدافع الجشع والبحث عن المصالح

(١) سميت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة ومسغولة اغرافها ضد القسطنطينية، دالر المعارف، ١٩٨٢، ص ص

الاقتصادية البحتة؟ ولم يخفى البنائقة شعورهم هذا بل اعلنوه صراحة في تلك العبارة الى اذاعوها وهي (نحن أولا بنادقة، وبعد ذلك مسيحيون).

والواقع أن الاساطيل البحرية الاوروبية قد قامت بدور هام في ربط الصليبيين في الشام وفلسطين بالغرب الاوروبي لدرجة أنه كان لا يمكن الاستغناء عن هذه الاساطيل بحال من الاحوال، وقد حصلت مقابل ذلك على اعفاءات جمركية خاصة بالاضافة إلى الامتيازات الأخرى مثل شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدينة الاوروبية التي قدمت خدماتها لحاكم الامارة الصليبية التي يتبعها الميناء.

أما عن الدافع السياسي فقد وضح منذ البداية، فإن طموحات البابوية دفعتها إلى الرغبة في حكم المجتمع المسيحي روحياً وسياسياً، وقد ظل البابوات طوال العصور الوسطى يلوحون بهبة قسطنطين Donation of Constantin وهي وثيقة ثبت تزويرها في عصر النهضة، وادعت البابوية ان هذه الوثيقة قد منحها لها الامبراطور قسطنطين الاكبر (306-337م) حين ترك روما في عام 330م وانتقل إلى العاصمة الجديدة القسطنطينية، وأنه منحها في هذه الوثيقة حكم الغرب الاوروبي سياسياً، وقد ظلت البابوية تستند إلى هذه الوثيقة وتطالب بالحكم السياسي للغرب، حتى وجدت في الحروب الصليبية الفرصة للتخلص من ملوكه وأباطرة الغرب الاوروبي عن طريق ارسالهم للحرب في الشرق واستخلاص الاراضي المقدسة في فلسطين، وقد دأبت البابوية على حثهم وارسال السفارات العديدة لهم للخروج على رأس جيوشهم ومحاربة المسلمين، وإلا تعرضوا لعقوبة الحرمان، تلك العقوبة التي اوقعتها بالفعل على الامبراطور فردريك الثاني حين أخذ يماطل في الخروج للشرق.

كذلك فإن النظام الإقطاعي الذي ساد في الغرب الأوروبي في تلك الفترة كان يورث الإقطاع بكامله إلى الإبن الأكبر فقط، أما باقي الأبناء فقد ظلوا بدون إقطاع وبالتالي بدون نفوذ وسلطان، لذلك فقد وجدت فئة كبيرة من فرسان الغرب الأوروبي في الحروب الصليبية فرصتهم لتكوين إقطاعات لهم في الشرق تمنحهم القوة والنفوذ والسلطان، وليس أدل على ذلك من أنه أثناء الحملة الأولى فإن كل من استطاع أن يكون لنفسه إقطاعاً انفصل عن باقي الجيش الصليبي وتفرغ لإدارة إقطاعه وترك باقي أخوانه الصليبيين يعانون الأمرين للوصول إلى الأراضي المقدسة في فلسطين. كذلك فإن الدارس للحركة الصليبية يلاحظ أن الأمراء الصليبيين بالشرق قد أخذ كل منهم يبحث عن مصالحته الشخصية ومصالحة إقطاعه دون نظر للمصلحة العامة، وليس أدل على ذلك مما حدث أثناء الحملة الصليبية الثانية التي وجد أحد زعمائها وهو لويس السابع ملك فرنسا، نفسه تتجاذبه المصالح المختلفة للصليبيين في الشام وفلسطين حتى المسئولين عن مملكة بيت المقدس الصليبية وجهوا حملته لحصار دمشق، وكان حاكمها معين الدين إبن الحليف المسلم الوحيد لهم بالشام، وتركوا الهدف الأساسي للحملة وهو استرجاع إمارة الرها من يد المسلمين.

هل معنى وجود دوافع اجتماعية واقتصادية وسياسية دفعت الغرب الأوروبي للقيام بهذه الحركة الصليبية انتفاء العامل الديني منها؟

لا يمكن اغفال العامل الديني من هذه الحركة، ولكن هذا العامل الديني خاص بأحوال المسيحيين والبابوية بالغرب الأوروبي، وليس كما ادّاع الصليبيون أن هذا العامل الديني خاص بمعاملة المسلمين السيئة للمسيحيين في البلاد الخاضعة لهم وعرقلة زيارة المسيحيين للاماكن المقدسة المسيحية في فلسطين، وقد اعتبر الغرب الأوروبي أن سيطرة المسلمين على هذه الأماكن المسيحية يعتبر عاراً على المسيحية وأنه ينبغي عليهم رفع (عار المسيح) بمحاولة تخليص هذه الأماكن من سيطرة المسلمين.

وهذه كلها ادعاءات لا أساس لها من الصحة، فلم يعرف عن المسلمين ممارسة أى نوع من انواع الاضطهاد الدينى ضد أهل الذمة (المسيحيون واليهود)، بل لقد تمتع هؤلاء بحرية ممارسة عقائدهم الدينية دون أى ضغط ودون أى اضطهاد، والتاريخ الاسلامى ملئ بما يثبت ذلك، ويكفى للتدليل على هذا أن الخليفة العزيز بالله الفاطمى اتخذ وزيرين له احدهما مسيحى والآخر يهودى. لكن هذا العامل الدينى يوثبط باحوال المسيحيين والبابوية فى الغرب الاوروبى، فقد كان هناك ارتباط روحى بين مسيحى غرب اوروبا والاراضى المقدسة فى فلسطين التى شرفت بميلاد المسيح بها، والتى بشر برسالته فى ربوعها، إلى جانب وجود آثاره فيها. ونتيجة لذلك تطورت حركة الحج إلى هذه الاماكن ونمت، ولم تمنع مشقة السفر الحجاج حتى من السيدات عن المجئ إلى هذه الاراضى.

هذا عن الارتباط الروحى بين المسيحيين فى غرب اوروبا والاماكن المقدسة فى فلسطين، يضاف لذلك احوال البابوية التى كانت قد بلغت درجة كبيرة من القوة والنفوذ فى القرن الحادى عشر الميلادى، وقد رغبت البابوية فى مد سلطانها إلى جميع انحاء العالم المسيحى، وقد رغب البابا الذى هو خليفة المسيح والقديس بطرس، فى أن يكون الزعيم الروحى لكافة المسيحيين فى الشرق والغرب على حد سواء. كذلك فمن المعروف ان حلم البابوية كان هو اخضاع الكنيسة الشرقية صاحبة المذهب الارثوذكسى Ortho - Dox ، إلى سلطان ونفوذ الكنيسة الغربية الكاثوليكية Catholico ، ولكن النزاع الذى استحكم بين البابوية من ناحية والإباطرة البيزنطيين من الناحية الاخرى، جعل توحيد الكنيستين الشرقية والغربية أو بمعنى أصح اخضاع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما، وإزالة ما بينهما من شقاق شبه مستحيل فى ذلك الوقت على الأقل، لذلك فقد وجدت البابوية فى لجوء الامبراطور اليكسيوس كومنينوس إليها والاستئجار بها ضد الاتراك السلاجقة، الفرصة الذهبية لتحقيق آمال

والإسلام البابوية في الزعامة، السيطرة وظهور البابا في صورة الزعيم الأوحيد للشعب المسيحي في الشرق والغرب، وإن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين واسترداد الأماكن المقدسة في فلسطين، وحماية الشعب البيزنطي من خطر المسلمين. ولكن الدارس لهذه الحركة يجد أن طمع الصليبيين في دولة البيزنطية فاق كافة الأخطار التي واجهتها من جانب المسلمين، وليس أدل على ذلك مما فعله صليبي الحملة الصليبية الرابعة من اتجاههم ضد القسطنطينية في عام ١٢٠٤م. واسقاط الحكم البيزنطي وإقامة مملكة لاتينية على أشلاء الامبراطورية البيزنطية، والفظائع التي ارتكبتها هؤلاء الصليبيون ضد اخوانهم المسيحيين الشرقيين لدرجة دفعت المؤرخ البيزنطي المعاصر نقيتاس خونياتس (توفي ١٢١٣م) إلى القول انه كان يتمنى لو ان عاصمتهم القسطنطينية كانت قد وقعت في يد المسلمين (الذين كانوا لطفاء ورحماء) حين فتحوا بيت المقدس في ١١٨٧م، على يد صلاح الدين الايوبي، ولم يفعلوا بها مثلاً فعله (هؤلاء المخلوقات الذين يحملون صليب المسيح على اكتافهم)^(١).

وقد ظلت هذه الدوافع كلها من اجتماعية واقتصادية وسياسية موجودة في الغرب الاوروبي إلى ان جاءت استغاثة الامبراطور البيزنطي اليكسيوس كومنينوس لتفجر هذه الدوافع وتجعلها تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً.

ذلك أن اليكسيوس كومنينوس تولى عرش الامبراطورية البيزنطية في ١٠٨١م، ليجد أن احوال الامبراطورية منهارة داخلياً وخارجياً، فالخزينة خاوية والجيش والاسطول في حالة انهيار، وكان ذلك نتيجة لفترة الفوضى والصراع على العرش التي اعقبت نهاية الاسرة المقدونية في ١٠٥٤م، وبمجرد أن تولى اليكسيوس العرش خاض صراعاً مريراً ضد روبرت

^(١) عن الفظائع التي ارتكبتها الصليبيون حينما فتحوا القسطنطينية راجع:

اسم غنيم: الحملة الصليبية الرابعة، ص ص ٩٧-١٠٠

جويسكارد زعيم النورمان فى جنوب ايطاليا الذى عبر البحر الادرياتيكي ونزل على ساحل دالماشيا مهاجما اراضى الامبراطورية البيزنطية، وكان هدفه الوصول إلى القسطنطينية ذاتها، وقد اضطر اليكسيوس لمواجهة هذا الصراع، ولما كان لا يملك اسطولا، فقد استغل الاتفاقية التجارية التى بينه وبين البنادقة وحول بعض اسطولهم التجارى إلى مراكب حربية خاض بها حرب بحرية ضد جويسكارد، كما لعبت المؤامرات البيزنطية دورها فى اشعال نيران الفتنة ضد جويسكارد فى جنوب ايطاليا، فعاد هذا لكى يخمدتها، وانتهى الأمر بوفاته وتخلص اليكسيوس من خطره.

وقد خاض اليكسيوس صراعا آخر ضد عناصر الاتراك البجناك على الحدود الشمالية للامبراطورية على أن خطر الاتراك السلاجقة المسلمين على الحدود الشرقية للامبراطورية كان لا يزال قائما، فعقب معركة منزيكرت فى ١٠٧١م^(١)، التى هزم فيها الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجنيس، وتم اسره على يد السلاجقة، أصبحت آسيا الصغرى مفتوحة على مصراعيها للسلاجقة الذين توغلوا فيها حتى وصلوا إلى كريسو بوليس على الضفة الآسيوية للبسفور وأصبحوا فى مواجهة القسطنطينية.

البابا ايربان الثانى والدعوة للحروب الصليبية:

فى ظل الظروف السابق شرحها التى احاطت بالامبراطورية البيزنطية فقد توجه الامبراطور اليكسيوس كومنينوس الى البابا ايربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩م.) وارسل له سفارة قابلته وسمح لها البابا بحضور المجلس

^(١) عن كل ما يتعلق بمعركة منزيكرت راجع:

اسمت غنيم: معركة منزيكرت فى ضوء وثائق بسللوس، بحث نشر فى مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية عام ١٩٨١.

الدينى الذى عقده فى مدينة بياكنزا فى شمال ايطاليا فى مارس ١٠٩٥م، وعرض طلباتهم على المجتمعين. وقد انتهى مجلس بياكنزا وواصل البابا طريقه إلى جنوب فرنسا، ويبدو أن فكرة المناداة بالحروب الصليبية كانت قد اختمرت فى رأسه أثناء رحلته هذه، وتقرر عقد مجلس دينى آخر فى مدينة كليرمونت فى جنوب فرنسا، وقد استمر اجتماع المجلس فى الفترة من ١٨ إلى ٢٦ نوفمبر ١٠٩٥م واشترك فيه عدد كبير من رجال الدين وشمل جدول أعماله عدة موضوعات كنسية وصدرت قرارات مثملا حدث فى مجلس بياكنزا، ثم أعلن البابا عن اجتماع عام يعقد فى ٢٧ نوفمبر، وقد حضر ذلك الاجتماع اعداد كبيرة من رجال الدين والعلمانيين، وألقى البابا ايربان الثانى خطابه الشهير الذى وصل إلينا عن طريق أربعة من المؤرخين المعاصرين هم: فولشير اوف شارتر Fulcher of Charter ، وروبرت الراهب Robert the Monk ، وبودرى اوف دولز Baudri of Dols ، وجيبرت اوف نوجنت Guibert of Nogent ، وقد بدأ البابا ايربان خطابه حاثا المسيحيين على مساعدة اهالى الدولة البيزنطية ونجدهم، وقال بان الاتراك السلاجقة كانوا يتقدمون فى قلب الاراضى المسيحية مسيئين إلى الاهالى ومدنسين الاماكن المسيحية، كما أشاد بأهمية مدينة بيت المقدس، ووصف الصعوبات التى يلقاها الحجاج المسيحيين إلى الاراضى المقدسة فى فلسطين، وبالغ فى ذلك بطبيعة الحال حتى يثير شعور الغرب الاوروبى ضد المسلمين، ثم أخذ يحض الناس على تقديم المساعدة ووعد بالغفران التام لمن مات فى هذه الحرب، وأشار إلى بؤس الحياه فى الغرب وأن الناس هناك يدفعون بانفسهم إلى مواطن التهلكة جسمانيا وروحيا، فى حين انهم بذهابهم إلى الشرق فانهم سوف يحصلون على السعادة والرخاء فى دنياهم ورضاء الله فى آخرتهم.

وقد كان البابا ايربان بليغا فى اسلوبه، عذب قوى ومؤثر فى كلماته، وفور انتهائه من ندائه استجاب له الحاضرون وتعالّت صيحاتهم، هذه ارادة الله. (Deus Vult).

وقد أعقب ذلك دعاية واسعة للحروب الصليبية، وأخذ البابا ايربان فى ارسال الرسائل لرجال الكنيسة والملوك والامراء وكبار رجال الاقطاع يدعوهم جميعاً للاشتراك فى الحركة والتبشير بها، وقد لقيت دعوة البابا ايربان الثانى استجابة عظيمة واخذت الرسائل تتوالى عليه من اقصى انحاء اوروبا، من شمالها إلى جنوبها طالبة الاشتراك فى هذه الحروب. وقد وضع البابا ايربان، من خلال مجمع دينى، عدة تنظيمات لهذه الحركة، ومنح المشتركين فيها امتيازات روحية اضفت عليها صفة الحرب المقدسة وكان أهم هذه الامتيازات ان كل من يشترك فى هذه الحرب تغفر له ذنوبه، كما أن ممتلكات المشتركين فى هذه الحرب سوف توضع تحت رعاية الكنيسة وحمايتها طوال مدة غيابهم وانها سوف ترد إليهم بعد عودتهم. كما نص كذلك على ان كل من يشترك فى هذه الحرب عليه أن يحيك صليباً باللون الاحمر على رداءه الخارجى من ناحية الكتف، رمزاً للحركة التى اشترك فيها وخرج للقتال من أجلها، وان كل من اتخذ شارة الصليب عليه ان يتجه فوراً إلى الشرق، فاذا أظهر تقاعساً عن تأدية ذلك الواجب ولم يذهب إلى الشرق فإنه يتعرض لعقوبة الحرمان. وتقرر أن يترك كل محارب موطنه فى ١٥ أغسطس بعد جمع المحصول، وان تجتمع كل هذه القوات فى العاصمة البيزنطية القسطنطينية، كما عين البابا ايربان مندوباً بابوياً ينوب عنه فى الحملة هو أدھيمار Adhemar اسقف كنيسة بوى Puy وهو فرنسى الأصل وكان قد سبق له الحج إلى الاراضى المقدسة فى فلسطين، كما كان أول من استجاب لنداء البابا فى مجمع كلير مونت. والواقع أن تعيين مندوب بابوى للإشراف على الحملة انما اراد به البابا ايربان ان يظهر بجلاء ان هذه الحروب تحت إمرة الكنيسة مباشرة.

وهكذا وضعت اسس الخلاف ومنذ البداية بين الصليبيين والدولة البيزنطية، هذا الخلاف الذى استمر بين الطرفين طوال عصر الحروب الصليبية، ذلك ان الامبراطور اليكسيوس كومنينوس حينما ارسل سفارته إلى

البابا ايربان الثانى طالبا مساعدة الغرب الاوروبى له فى نضاله ضد السلاجقة المسلمين انما كان يريد أن يرسل له البابا جيشا منظما من الفرسان يكون تحت إمرة الامبراطور ويخوض به حرب عسكرية من أجل تحقيق هدف سياسى ألا وهو استرداد ممتلكات الامبراطورية البيزنطية للامبراطورية البيزنطية، فاذا بالبابا ايربان يحول الموضوع الى حرب دينية ضد المسلمين تحت إشراف الكنيسة الغربية ومن أجل تحقيق هدف دينى (ظاهريا) ألا وهو الاستيلاء على الاراضى المسيحية المقدسة فى فلسطين. ومعنى ذلك ان الامبراطورية البيزنطية استبدلت عدو بعدو آخر، وان ممتلكاتها قد ضاعت، وانتقلت من يد المسلمين إلى يد الصليبيين، وهذا ما سوف يحاول الامبراطور اليكسيوس كومنينوس ان يتفاداه فى اتفاقية القسطنطينية فى ابريل ١٠٩٧م بينه وبين الحملات المنظمة فى الحرب الصليبية الاولى فهل سينجح فى هذا؟

الحملة الصليبية الأولى

الملاحظ ان الحملة الصليبية الاولى قد تكونت من شقين الشق الأول ما عرف باسم (صليبية الفلاحين) أو (الحملة الشعبية) مثل حملة بطرس الناسك ووالتر المفلس وإميخ وفولكمار وجوتشوك وغيرهم، والشق الثانى كان من الحملات المنظمة المكونة من الفرسان وهو ما عرف باسم (صليبية الأمراء).

وتعتبر حملة بطرس الناسك هى اشهر الحملات الشعبية وقد اطلقت عليه الاميرة آنا كومنيننا Anna Comnena ابنة الامبراطور اليكسيوس كومنينوس التى أرخت لعصر والدها فى سيرة ذاتية اسمتها اليكسياس، اسم كوكو بطرس Cucupetrus ، ومعناها بطرس الواقواق نسبة إلى طائر الواقواق الذى يكرر وقوقته بشكل رتيب حيث كان بطرس يكرر نفس كلامه مرارا وتكرارا. وبطرس هذا كان رجلا متقدما فى العمر حاول أن يقوم

بالحج إلى بيت المقدس، ولكنه تعرض في الطريق لمشاكل خاصة بالحرب التي كانت مشتتة بين الاتراك السلاجقة المسلمين والدولة البيزنطية، والتي كان مسرحها منطقة آسيا الصغرى، فعاد بطرس إلى وطنه دون أن يحقق أمنيته، مما ترك أثراً سيئاً في نفسه. وكان بطرس هذا لا يملك من حطام الدنيا سوى حمار أعرج، وبمجرد أن سمع بطرس بدعوة البابا ايربان الثاني للحروب الصليبية تلقف الخبر وأخذ يذرع أقاليم فرنسا داعياً الجماهير للاشتراك في هذه الحرب، ويبدو أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيبته الغريبة بثيابه المهلهلة وقدميه العاريتين وحماره الأعرج جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والاهماء في فرنسا، بحيث انهم كانوا لا يكادون يستمعون إلى حديثه حتى تغلب عليهم الحماسة فيجتمعون في سرعة غريبة ويشرعون في الزحف صوب الشرق دون إعطاء البابا والأمراء فرصة لتنظيم الحركة الصليبية تنظيمًا جدياً من الناحيتين السياسية والعسكرية.

ونظراً لهذا كله فإن عدد من المؤرخين يرجعون قيام الحروب الصليبية إلى شخصية بطرس الناسك، ولعل أول من حمل بطرس الناسك مسئولية قيام الحروب الصليبية هي الأميرة أنا كومنيننا التي ذكرت في كتابها (اليكسياس) أن السبب في قيام الحركة الصليبية التي اشترك فيها الغرب اللاتيني كله وقبائل البرابرة يرجع إلى بطرس الذي يعرف باسم بطرس الواقواق، الذي حاول القيام بزيارة القبر المقدس، ولكن حال الاتراك المسلمين بينه وبين هذه الزيارة، فدبر خطة مكره تتيح له زيارة هذه الأماكن المقدسة مع غيره من جموع اللاتين، وأخذ يبشر في المدن اللاتينية مدعياً بأن صوت الله هو الذي يأمره بدعوة جميع نبلاء فرنسا لهجر ديارهم والتوجه لاداء فروض العبادة عند القبر المقدس وتخليص اورشليم من سيطرة المسلمين⁽¹⁾.

⁽¹⁾ Anna Comnena: Alexias , in C.S.H.B. ed. Bonnae, vol 11, liberx, pp. 29-30 in Greek.

وذكرت أنا فى موضع آخر من كتابها، ان بوهيمند النورمانى والعديد ممن على شاكلته من اللاتين الذين كانوا يطمعون فى الامبراطورية الرومانية، ويريدون الاستيلاء عليها، وجدوا فى دعوة بطرس حجة يتعللون بها للاشتراك فى هذه الحروب، وخدعوا السذج وكانوا سببا فى قيام هذا التحرك العظيم، وباعوا اراضيهم متذرعين بأنهم متوجهون لتخليص القبر المقدس من يد الاتراك^(١).

على أية حال فقد أخذ بطرس جموعه هذه من الاقنان الذين هجروا حياتهم فى الغرب الاوروبى من النساء والشيوخ والأطفال الذين لم يكونوا على دراية بالقتال، كما انهم لم يكونوا مسلحين بأكثر من فأس أو بلطة أو عصى، وقد غادر بهم مدينة كولونيا مشيا على الاقدام فى ابريل ١٠٩٦م. مخترقا ألمانيا ثم هنغاريا حتى وصلوا إلى الحدود الهنغارية البيزنطية فى شرق اوروبا، وقد تعرضت بعض البلاد الهنغارية للسلب والنهب من جانب هؤلاء الرعاع، وخاصة بلدة سملين Semlin فى هنغاريا التى طالب الصليبيون اهلها بتزويدهم بالموءن اللازمة لهم، فرفض الاهالى، فما كان من الصليبيين إلا أن أجروا مذبحة مروعة لأهالى هذه البلدة المسيحية، وكان لابد لهذا الحادث أن يكون له رد فعل لدى السلطات البيزنطية التى شعرت بالارتياح والشك فى نوايا هذه الجموع التى جاءت إلى الشرق لتحارب من أجل المسيح والمسيحية فاذا بها تذبح الآلاف من المسيحيين الأبرياء من سكان هذه البلدة الأمنة، كما انه دفع الامبراطور اليكسيوس كومنينوس إلى اتخاذ سياسة معينة تجاه هذه الجموع، هدف من ورائها إلى حماية شعبه وممتلكاته فى منطقة البلقان من شرور هذه الأقوام، فأرسل بعض الموظفين البيزنطيين اشرفوا على قيادة هذه الجموع، والحيلولة بينهم وبين نشر الفوضى واعمال

^(١) Anna Comnena, p.36

السلب والنهب ضد رعايا الامبراطور، ورشم عدم سيطرتهم الكاملة على هذه الجموع إلا أنهم تمكنوا من الوصول بهم امام اسوار القسطنطينية.

وقد أصيب الامبراطور اليكسيوس وشعبه بخيبة أمل كبيرة، بعد ما رأوا هذه الجموع البائسة امام عاصمتهم، الذين سببوا متاعب جمّة للامبراطور اثناء تواجدهم امام العاصمة البيزنطية، اذ لم يكفوا عن نهب القرى والضياع المجاورة، والاعتداء على الأهالي وسلبهم قوتهم وامتعّتهم، بل وامتد أذى هذه الجموع إلى الكنائس والأديرة. وأمام هذه الظروف الصعبة التي تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية من جانب هذا الطوفان الهادر الآتى من الغرب، أصدر الامبراطور اوامره بنقل هذه الجموع إلى مدينة قزيقوس على الساحل الآسيوى للبسفور ونصحهم الامبراطور بالتزام الهدوء وعدم الاشتباك مع الاتراك السلاجقة، حتى تصلهم الامدادات العسكرية والحملات النظامية من الغرب الاوروبى، غير أن هذه الجموع لم تخلد إلى السكينة وانما استمرت فى النهب والسلب من الأماكن المجاورة لهم، وانتهزوا فرصة ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور فى اكتوبر ١٠٩٦م. وزحفوا على أقرب مركز للاتراك السلاجقة وهو مدينة نيقية مركز السلطان قليج ارسلان بن سليمان بن قتلмыш، والتي كانت تبعد عنهم عدة كيلو مترات فقط، وقد أحرز الصليبيون الذين كان عددهم يقرب من الخمسة والعشرون ألف منهم حوالى الخمسمائة فارس فقط، والباقي من المشاة المعدمين، بعض الانتصارات المبدئية مما شجعهم على المضى فى طريقهم إلى نيقية، ولكن السلاجقة اطبقوا عليهم وحولوهم إلى كوم من الاشلاء، ولم ينج منهم سوى حوالى الثلاثة آلاف فقط، حملتهم السفن البيزنطية وعادت بهم إلى القسطنطينية ليشملهم الامبراطور اليكسيوس بعطفه ورعايته، وظلوا هناك حتى وصول الحملات النظامية.

كان هذا هو المصير الذى آلت إليه حملة بطرس الناسك، ولم تصادف الحملات الشعبية الاخرى نجاحاً، ولم يكن حظها أفضل من ذلك، حتى أن المؤرخ جروسية Grousset اعتبر هذه الحملات الشعبية وصمة سوداء فى تاريخ الحركة الصليبية^(١).

ولم تلبث الحملات النظامية من الفرسان أو ما أطلق عليه اسم حملات الامراء، ان وصلت امام العاصمة البيزنطية واحدة تلو الاخرى، وبلغ عددهم أربع حملات، وكان أول من وصل منهم هى الحملة التى تولى قيادتها جودفرى دي بوايون امير لوثرنجيا الذى كان شخصاً أميناً تقياً ومحارباً شجاعاً محبوباً من رجاله، وقد تمتع بمكانة سامية داخل الامبراطورية الرومانية المقدسة، وكان الطابع العام لحمله جودفرى طابعاً فرنسياً، حيث أن معظم المشتركين كانوا من القطاع الفرنسى، ولم يشترك من القطاع الالمانى سوى عدد قليل من الفرسان وقد اتخذت الحملة طريق شرق اوروبا ومرت بهنغاريا حتى وصلت إلى حدود الامبراطورية البيزنطية.

وكان ثانى الحملات التى وصلت امام القسطنطينية هى الحملة النورماندية بقيادة بوهيمند النورمانى، وهو الابن الاكبر لروبرت جويسكارد، ذلك الداهية الذى دوخ الامبراطورية البيزنطية بأطماعه فيها، وكان روبرت قد أوصى بملكه فى جنوب ايطاليا (ابوليا وكالابريا) لابنه الأصغر روجير، لذلك أصبح بوهيمند بدون ملك أو اقطاع إلا اليسير، وقد أراد استقطاع بعض الممتلكات بالقوة فى ايطاليا، فنزل محاصراً لأمالفى، وظل أمامها حتى رأى جموع الصليبيين فى طريقهم إلى الشرق وسمع بالحركة الصليبية، فترك حصار أمالفى ووجد فى هذه الحروب فرصته الذهبية لتحقيق طموحاته فى الغزو والفتح وتكوين امارة خاصة به فى الشرق، وقد صاحبه ابن اخته

^(١) Grousset: Histoire des Croisades, vol 1, p. 9.

تأنكرد. وقد سببت حملة بوهيمند فزعا هائلا للامبراطور البيزنطى لدى سماعه بها، فلم يكن اليكسيوس قد نسى بعد ما سببه له روبرت جويسكارد من متاعب، لكن بوهيمند كان حريصا على محو أية شكوك لدى الامبراطور، وأظهر مرونة وطاعة لاوامر الامبراطور ازالته من نفسه الشك.

أما ثالث هذه الحملات النظامية، فكانت بقيادة الامير الفرنسى ريموند الرابع دى سان جيل أمير تولوز وبروفانس، الذى وصفه أحد الكتاب المعاصرين بقوله: (كان فى تعصب الرهبان أما فى حب امتلاك البلاد فكان فى جشع النورمان). وقد خصه البابا بشرف مصاحبة المندوب البابوى أدهيمار لحملته، وهو شرف لم تتله باقى الحملات الصليبية التى خرجت إلى الشرق. وقد سبب ريموند بعض المتاعب للامبراطور اليكسيوس لكن الأمر انتهى بتصفية الأجواء بينهما.

وأخيراً وصلت الحملة الفرنسية التى اشترك فيها ثلاثة من القادة لهم أهميتهم، هم الكونت روبرت أوف فلاندرز، وكان والده قد زار الاراضى المقدسة فى فلسطين، كما كان على اتصال بالامبراطور اليكسيوس، وروبرت دوق نورمانديا، وهوشقيق وليم الفاتح أول ملوك انجلترا من النورمان، وستيفن اوف بلوا وشارتر، وهو صهر وليم الفاتح، ويعد أحد كبار الاثرياء فى اوروبا، ويقال انه كان يمتلك ٣٦٥ حصنا، واحد لكل يوم من أيام السنة، وقد حضر هؤلاء الثلاثة سويا عن طريق ايطاليا، وصحبهم كاتب الحوليات فولشير اوف شارتر Fulcher of Charter .

وقد اجتمعت كل هذه الحملات مع بقايا حملات العامة على شاطئ البسفور، وبلغت اعدادهم من الضخامة بحيث انه كان من الصعب تقدير عددهم على وجه الدقة، وقد قالت المؤرخة المعاصرة الاميرة أنا كومنيننا ان اعدادهم فاقت نجوم السماء، ورمال الشاطئ واوراق الشجر.

ومنذ وصول أول حملة نظامية، وهي حملة جودفري دي بوايون بدأت تظهر السياسة البيزنطية تجاه (المسألة الصليبية) تلك السياسة التي أرساها ووضع قواعدها الامبراطور اليكسيوس كومنينوس، والتي سار عليها خلفاؤه من بعده حتى نهاية الحروب الصليبية.

وأول شق في هذه السياسة، هي المحافظة على املاك الامبراطورية في منطقة البلقان من عبث وتخريب هذه الجموع الصليبية، وحماية أرواح المواطنين من رعايا الامبراطور الأمنين في هذه المناطق. وقد بنى الامبراطور سياسته هذه على مبادئ معينة لجأ إليها بالترتيب وهي الترغيب، التهديد، ثم الردع.

والشق الثاني في سياسته تجاه هؤلاء الصليبيين هي انه ان لم يكن من الممكن وقف تدفق هذا الطوفان البشرى المتجه إلى الشرق، فلا أقل من الاستفادة بهم في استرجاع ممتلكات الامبراطورية البيزنطية التي استولى عليها الاتراك السلاجقة في منطقة آسيا الصغرى. وتنفيذا لهذه السياسة طلب اليكسيوس من قادة الحملات الصليبية النظامية، وأولهم جودفري دي بوايون أن يقسموا له يمين الولاء والتبعية، بمعنى أن يكونوا قادة في جيشه تحت إمرته يحارب بهم ويسترجع ممتلكاته، ولم يكن تحقيق هذا القسم بالشئ السهل الهين، وانما لقي معارضة ومقاومة من جانب القادة الصليبيين، ولم ييأس الامبراطور من جانبه، وانما لجأ إلى الترغيب عن طريق بذل الهدايا والاموال الكثيرة، فلم يستجيبوا، فامتنع عن تقديم المؤن والاغذية لهم، كنوع من الضغط عليهم، ولم تأت هذه السياسة ثمارها المرجوة، فاضطر لانزال الجيش البيزنطي إلى الساحة وقتالهم، وعن طريق هذه السياسة انتهى الأمر برضوخهم لمطالبه، وتم إبرام اتفاقية القسطنطينية في ابريل ١٠٩٧م. وفيها اقسم زعماء هذه الحملات النظامية يمين الولاء والطاعة للامبراطور

البيزنطى، باستثناء ريموند الرابع الذى اعاد على احترام حياة الامبراطور وشرفه وألا يقوم هو أو رجاله بعمل يسى ابنه، كما تعهد قادة هذه الحملات بوضع قواتهم الصليبية فى خدمة الامبراطور لاسترداد الاراضى التى اغتصبت من الاطورية وكانت فيما مضى من ممتلكاتها.

وهذا التعهد على جانب كبير من الخطورة، لان الامبراطورية البيزنطية اختارت الا تفسر هذا التعهد فى ضوء الاراضى التى استولى عليها السلاجقة فى آسيا الصغرى، وانما هدفت إلى استرداد كل املاكها التى فتحها المسلمون فى الشام وفلسطين، وان تتمسك بهذا التفسير والمطالبة بحقها هذا طوال القرن الثانى عشر الميلادى، مما أوقعها فى مشاكل جمه مع الصليبيين الذين أرادوا بحركتهم هذه تكوين اقطاعات لهم وامارات خاصة بهم.

ولم يكتب لهذه الاتفاقية ان تعمر طويلاً، وذلك بسبب تضارب مصالح كل طرف من الطرفين مع الطرف الآخر، وقد عبرت القوات الصليبية مضيق البسفور إلى آسيا الصغرى، وحاصرت مدينة نيقية التابعة للسلاجقة، والملاحظ أن الامبراطور اليكسيوس لم يصاحب الصليبيين اثناء زحفهم على نيقية ولا اثناء حصارهم لها، وانما أرسل قوة صغيرة صاحبت الصليبيين، كما زودهم بالمؤن والأغذية اللازمة لهم، وكان حاكم نيقية السلطان السلجوقى قليج أرسلان متغيباً عنها، فنزل الصليبيون محاصرين لها فى مايو ١٠٩٧م. واستمروا فى حصارهم حوالى الشهر، وعندما ادرك أهالى نيقية عدم جدوى المقاومة لتأخر وصول النجدة التى ارسلها إليهم قليج أرسلان قرروا أن يسلموها للامبراطور البيزنطى خوفاً من بطش الصليبيين بهم وانتقامهم منهم، فأخذوا يتصلون سراً برجال الامبراطور ولم يضيع هذا الفرصة فتدخل بسرعة وفاوض الحامية على اساس استسلام المدينة مقابل تأمين ارواح أهلها. وهكذا فوجئ الصليبيون بارتفاع الاعلام البيزنطية فوق نيقية فى ٢٦ يونيو ١٠٩٧م. وكانوا بطبيعة الحال لا يعلمون شيئاً عن المحادثات السرية

التي دارت بين حامية نيقية والامبراطور البيزنطى، ولم يخفى الصليبيون استيائهم من مسلك الامبراطور الذى حرّمهم من الغنائم والاسلاب التي كانوا يطمعون فى الحصول عليها من هذه المدينة، ولكى يتغلب اليكسيوس على خيبة أمل الصليبيين، ويتجنب عداؤهم له، أخذ يفرق على كبار قادتهم هدايا قيمة وثمانية، لدرجة أن ستيفن اوف بلوا وشارتر أرسل خطابا إلى زوجته فى الغرب الاوروبى يقول لها فيه انه تسلم من الامبراطور هدايا تفوق قيمتها البائنة الكبيرة التي تسلمها منها عند الزواج، كما وزع الامبراطور على الصليبيين من العامة نقودا نحاسية لم ترضيهم بطبيعة الحال، مما دفع أحد المؤرخين المعاصرين إلى القول (لقد اظهر الامبراطور اليكسيوس من الاعتراف بالجميل للصليبيين ما سوف يجعلهم ينزلون عليه اللعنة دائما ويتذكرونه كخائن)^(١).

هذا وقد أخذ سوء التفاهم والعداء يتزايد بين البيزنطيين والصليبيين منذ حادثة نيقية هذه، مما كان له أثر كبير على العلاقات بينهما فيما تلى من أحداث. وعلى أية حال فقد اتخذ الصليبيون طريقهم إلى بيت المقدس وكانوا يأملون فى الوصول إليها بعد عدة اسابيع، فقد قال ستيفن ارف بلوا وشارتر فى خطابه لزوجته السالف الذكر (اننا سوف نكون فى بيت المقدس فى غضون خمسة اسابيع، ما لم تقاومنا انطاكية). ولكن خاب ظنهم وامتدت الخمسة اسابيع هذه إلى اكثر من عامين وذلك بسبب الاخطار والصعاب التي عرضت لهم، كما دب الخلاف بين زعماء الحملة بسبب الصراع على امتلاك البلاد، بدلا من ان يتفرغوا جميعا لخدمة القضية الكبرى التي خرجوا من أجلها. ومما ساعد على المعاناة الكبيرة التي عاناها الصليبيون ان الاثراك السلاجقة اثناء انسحابهم امامهم خربوا البلاد حتى يعيقوا تقدم اعدائهم مما ادى إلى نقص كبير فى الطعام والماء، كما عانوا ايضا من ارتفاع درجة

^(١) Runciman: The Crusades, vol 1, p.p. 81-82.

الحرارة في شهور الصيف. وما يؤكد ذلك ما جاء في احد الحوليات اللاتينية المعاصرة التي ذكرت (كان تقدم قواتنا عبر صحراوات وارضى جرداء لا يقيم بها أحد ولم يتمكن من الهرب منها احياء إلا بصعوبة كبرى، وقد عانينا فيها الكثير من الجوع والعطش، فلم يكن هناك أى شئ يؤكل سوى تلك الحبوب التي كنا احيانا نعثر عليها، وكنا نقوم بسحقها على اكفنا ونقتات منها، وقد اختفى اغلب فرساننا، اذ أنهم على اثر موت خيولهم قد اصبحوا من المشاة، ولحاجة رجالنا إلى الركائب اضطر الكثير من الفرسان لان يمتطوا الثيران، كما حمل المتاع على الماعز والاغنام والكلاب).

ورغم هذه الصعاب التي عانى منها الصليبيون في الحملة الصليبية الاولى إلا انها كانت أنجح الحملات الصليبية على الاطلاق، اذ تمكنت من تكوين ثلاث امارات هي امارة الرها، امارة انطاكية، امارة طرابلس، كما تمكنت من فتح بيت المقدس وتكوين مملكة صليبية بها. ولن نخوض في تفاصيل فتح الامارات الثلاثة، ولكن من الأهمية بمكان ان نعرض لفتح بيت المقدس، وكيفية استيلاء الصليبيين على هذه المدينة المقدسة.

كانت بيت المقدس في هذه الفترة تحت سلطان الخلافة الفاطمية المسيطرة على مصر، وكانت هذه الخلافة في أواخر ايامها حيث ضعفت سلطة الخلفاء وتحكم الوزراء في شئون الحكم. وكان حاكم مصر الفعلى في هذه الأونة الوزير الأفضل شاهنشاه (١٠٩٥-١١٢١م)، وقد علم الأفضل بنزول الصليبيين في بلاد السلاجقة في آسيا الصغرى وشمال الشام وانهم يحاربونهم، ولما كان هناك عداء بين السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة، بالاضافة إلى استيلاء السلاجقة على املاك الفاطميين في الشام وفلسطين، لذلك فقد هداه تفكيره إلى التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة، فارسل إليهم في اوائل عام ١٠٩٨م. وكانوا يحاصرون انطاكية رسلا من طرفه، عرضت عليهم عرضا غريبا ان دل على شئ فانما يدل على مدى جهله بهدف الحركة

الصليبية، وكان مضمون هذا العرض ان يتعاون الطرفان فى القضاء على السلاجقة وتقسيم املكهم بحيث يأخذ الصليبيون الشام (سوريا) ويأخذ الفاطميون فلسطين. وهذا العرض فى غاية السذاجة لان الصليبيين لم يقوموا بحركتهم هذه ويغادرون اوطانهم ويتحملون كل المصاعب التى مرت بهم لا من أجل الوصول إلى فلسطين وما بها من آثار مسيحية مقدسة، وخاصة مدينة بيت المقدس.

وقد تميز رد الصليبيين على هذا العرض بالمكر والدهاء فردوا بسفارة مماثلة إلى القاهرة أكدت للوزير الأفضل حرصهم على التعاون معه للقضاء على العدو المشترك لكليهما وهم السلاجقة^(١).

على ان السلطات الفاطمية لم تلبث ان وجدت ان الصليبيين يواصلون زحفهم نحو الجنوب، فادركت ان بيت المقدس هى هدفهم، فارسلت لهم سفارة وصلتهم وهم بالقرب من طرابلس، وقدمت لزعمائهم الكثير من الهدايا الثمينة والاموال الضخمة، واخبرتهم ان السلطات الفاطمية تسمح لهم بزيارة بيت المقدس ولكن فى مجموعات لا تزيد عن المائتين أو الثلاثمائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين، فرد عليهم الصليبيون بانهم سيتمكنون من زيارة بيت المقدس ولكن بعون الله وليس بمساعدة من الفاطميين^(٢).

واصل الصليبيون تقدمهم حتى وصلوا إلى الرملة فى اوائل يونيو ١٠٩٩م. وهناك عقدوا مجلسا للحرب ناقشوا فيه عدة موضوعات لعل اهمها هو: هل يواصلون تقدمهم ويحاصرون بيت المقدس، ام يتوجهون إلى مصر للاستيلاء عليها، على اساس ان مفاتيح بيت المقدس موجودة فى القاهرة وانهم

(١) Michaud: 1, p. 362.

(٢) Guillaume de Tyr 1. pp 305-306.

... لانفسهم حياة آمنة : من ثم انهم استطاعوا ان يفتحوا مصر
على مصر اولاً (١).

وهكذا نجد أن فكرة برغبة الصليبيين في الاستيلاء على مصر قد
راودتهم منذ بدايه حركتهم، وقد حاولوا فيما بعد تحقيق هذه الرغبة اكثر من
مرة، مرة اثناء حكم عموري الأول لمملكة بيت المقدس الصليبية، والصراع
الذي قام بينه وبين نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي حول مصر هذا
الصراع الذي خسره الصليبيون ونجت مصر من ايديهم، كما نجت فيما بعد
اثناء الحملة الصليبية الخامسة على مصر، ثم اثناء الحملة السابعة بقيادة ملك
فرنسا لويس التاسع عند منتصف القرن الثالث عشر الميلادي.

واذا كان الصليبيون لم يستطيعوا تنفيذ هذه الفكرة بعد تكوين مملكة بيت
المقدس الصليبية وتثبيت اقدامهم في الشام وفلسطين، ورغم جحافل الصليبيين
وأساطيلهم التي أتت من الغرب الاوروبي قاصدة مصر في الحملتين الخامسة
والسابعة، وفشلوا في الاستيلاء عليها، فقد كان من الطبيعي ألا يجرؤ صليبي
الحملة الأولى مع ضعف امكانياتهم العسكرية وعدم تثبيت اقدامهم بعد في
الشام وفلسطين على محاولة تنفيذ هذه الفكرة التي راودتهم بخصوص
الاستيلاء على مصر.

لذلك، فقد اتجهوا صوب بيت المقدس، وبدأوا في حصار المدينة يوم
٧ يونيو ١٠٩٩م. وأخذوا في الهجوم عليها بعدد كبير من آلات الحصار
والهدم، وحوالي منتصف يونيو وصلت إلى ميناء يافا بعض سفن من اسطول
جنوا وتمكنت هذه السفن من الاستيلاء على المدينة، وكانت هذه خطوة هامة

(١) Raymond d'Agiles, p.299.

جاء الصليبيون لمحاصرين لبيت المقدس، إلا أن أفعالهم وما يترتب عنها من آلات الحصار ومواد التزوين لم تكن مكنوهم من مواصلة الحصار، ففي الوقت الذي كانت فيه الحامية الفاطمية محصورة داخل أسوار بيت المقدس دون أية مساعدة خارجية.

وقد ظل الصليبيون محاصرين لبيت المقدس حوالي الأربعين يوماً، عانوا خلالها من شدة حرارة الجو، ثم انتشرت اشاعة مؤداها ان جيش فاطمي كبير في طريقه لتخليص بيت المقدس من حصار الصليبيين لها، مما جعل الصليبيين يقومون بمحاولة قوية للاستيلاء على المدينة، وكان ذلك ليلة ١٤ يوليو ١٠٩٩م. وقد عمل الصليبيون برجين يطلان بهما على سور المدينة، أحدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود، فقام المسلمون باحراق البرج الأول، أما البرج الثاني فقد ألصقه الصليبيون بالسور (وحكموا به البلد، وكشفوا من كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد فانهزم المسلمون)^(١).

وفي صباح اليوم التالي أي يوم الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩م. اشتد الهجوم واتخذ طابعاً عنيفاً، مما أسفر عن اقتحام الصليبيين لبيت المقدس، وأجروا به مذبحة عامة رهيبة قتلوا فيها أعداد كبيرة من المسلمين المحاربين وغير المحاربين من الأطفال والنساء والشيوخ، وقد احتفى عدد كبير من المحاربين وأهالي المدينة وزوارها بالمسجد الأقصى، ولكن لم تنثنى حرمة هذا المسجد هؤلاء الغزاة الأجلاف عن اقتحامه، وأجروا به مذبحة مروعة حتى بلغ عدد القتلى داخل المسجد حوالي السبعين ألف قتيل كما ذكر ابن

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٤٨.

الاثير^(١) وعدد من المؤرخين الشرقيين مثل ابن العبري انذى قال (ولبت الفرنج فى البلد اسبوعا يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين ألفا)^(٢).

وقد اعترف بهذه الحقيقة المؤرخون الصليبيون انفسهم، فذكر وليم الصورى ان بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى اصبحت المدينة (مخاضة واسعة من دماء المسلمين اثار خوف جنودنا واشمنزازهم)^(٣). وقد كتب قادة الصليبيين إلى البابا يفتخرون بهذا العمل الوحشى فقال ريموند دى سان جيل (وكانت ترى فى شوارع المدينة اكداس من الرؤوس والأيدى والأقدام، وكان من الضرورى ان يشق المرؤ طريقه فوق جثث الرجال والخيول .. وفى محراب سليمان مر فرساننا ودماء المسلمين تصل إلى ركب خيلهم)^(٤).

ولم ينكر المؤرخون الاوربيون المحدثون هذه المذبحة ،بل ان المؤرخ رينيه جروسيه Grousset اعترف صراحة بان هذه المذبحة تعتبر وصمة عار فى تاريخ الحملة الصليبية الاولى^(٥). وقد ظلت هذه المذبحة تثير الاسى والألم فى نفوس المسلمين حتى تم طرد الصليبيين نهائيا من الشام وفلسطين.

^(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

^(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٧ .

^(٣) Guillume de Tyr, 1, p. 354.

^(٤) Krey: The First Crusade, p.261

راجع ايضا عن فتح بيت المقدس

Runciman: The Crusades, 1, pp. 265-314.

Grousset: Les Croisades, 1, pp. 116-163.

Stevenson: The Crusades in the East, pp. 30-34.

(5) Grousset: Histoire de Croisades, 1, p. 161.

Runciman: 1, p. 278.

وبعد هذه المنبحة الإنتقامية، أخذ الصليبيون فى تنظيف مدينة بيت المقدس وتنظيم عملية الفتح واختيار ملك يحكمهم وبطريك لكنيسة بيت المقدس، ولم يكن تبقى مع الصليبيين من زعماء الحملة سوى ريموند الرابع دى سان جيل، وجود فرى دى بوايون، وكان الأول يتمتع بقوة الشخصية، كما ان أوفر ثروة وجاها من الثنائى، وهذا ما جعل الامراء يتخوفون منه ويختارون جودفرى دى بوايون ملكا على بيت المقدس. وقد رفض جودفرى لقب (ملك) كما رفض أن يرتدى تاجا من الذهب فى نفس المكان الذى ارتدى فيه المسيح تاجا من الشوك، واتخذ لقب (حامى بيت المقدس).

Avocatus Sancti Spulchri

وكان يخاطب اثناء حكمه بلقب (الدوق) نسبة إلى مركزه فى الغرب الاوروبى كدوق لاقليم اللورين ولم يطل الوقت بجودفرى دى بوايون فتوفى فى ١٨ يوليو ١١٠٠م. وخلفه شقيقه بلدوين البولونى فى حكم بيت المقدس فى ١٠ نوفمبر ١١٠٠م وأصبح أول (ملك) يحكم مملكة بيت المقدس الصليبية.

أما بالنسبة لمنصب بطريك بيت المقدس فقد كان من المتوقع ان يتولاه المندوب البابوى ادهيمار، لكنه كان قد توفى قبل فتح بيت المقدس لذلك فقد تم اختيار ارنولف مالكورن رئيسا للكنيسة الكاثوليكية فى بيت المقدس، وكان رجلا ذا مقدرة وعلى حظ وافر من العلم، ولكنه لم يستمر فى منصبه وقتا طويلا، حيث حل محله دايمبرت رئيس اساقفة بيزا الذى ارسله البابا مندوبا عنه خلفا لادهيمار.

لكن ما هو موقف أولى الأمر فى المشرق وهما الخلافتين الفاطمية والعباسية؟

فيما يتعلق بالخلافة الفاطمية فقد ظلت تغط فى سباتها العميق، ولم تفق منه إلا فى عام ١١٠١م. حين أرسل الوزير الأفضل المسيطر على الأمور

فى مصر؁ حملة كبيرة إلى فلسطين تقابلت مع الصليبيين فى موقعة الرملة الأولى؁ واستطاع الصليبيون الانتصار على هذه الحملة؁ كما انتصروا أيضا على الحملتين الأخرتين اللتين أرسلتهما فى موقعتى الرملة الثانية فى ١١٠٢م والرملة الثالثة فى ١١٠٥م.

أما بالنسبة للخلافة العباسية فقد كانت فى ذلك الوقت مجرد صورة شكلية دون أن يكون للخليفة العباسى أى ظل من السلطان والنفوذ؁ وكان الاتراك السلاجقة يسيطرون على الأمور فى بغداد وكان محور اهتمامهم بلاد فارس؁ وقد ذهب إلى بغداد قاضى دمشق زين الدين ابو سعد الهروى وأخبر الخليفة العباسى بالكارثة التى حلت بالمسلمين فى الشام وفلسطين؁ واجتمع قاضى دمشق ووجهائها فى ديوان الخليفة (وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا؁ وقام القاضى فى الديوان وأورد كلاماً أبكى الحاضرين)^(١).

ولم يحرك كل ذلك ساكناً لدى الخليفة العباسى أو السلطان السلجوقى بركيا روق؁ ووقع التقاعد.

وهكذا ضمن الصليبيون فى الشام قسماً من الاستقرار والأمان فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى؁ امام تدهور واضمحلال نفوذ الخلافة الفاطمية فى مصر والخلافة العباسية فى العراق.

(١) ابن الجوزى: مرآة الزمان؁ حوادث سنة ٤٩٢هـ.

الفصل الثانى

الحملة الصليبية الثانية

وبداية هزائم الصليبيين

رأينا في الفصل تسنّى الانتجازات التي حقّقها الحملة الصليبية الأولى على حساب المسلمين وممتلكاتهم في الشام وفلسطين، وما فعله صليبي هذه الحملة عند فتحهم لبيت المقدس، وتنافس الخلافتين الفاطمية والعباسية.

على أن ظهور عماد الدين زنكي على مسرح الأحداث السياسية في المنطقة، كان بشيرا ببداية عصر جديد من الصحوّة الإسلامية والجهاد ضد الصليبيين لم ينتهي إلا بطرد هؤلاء الغزاة الغربيين من الشام وفلسطين إلى الأبد.

وينتمي عماد الدين زنكي^(١) بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان إلى قبائل (الساب يو) التركمانية، التي اغفلت المصادر تحديد موطنها، وطبيعة علاقتها بالسلاجقة والدور الذي لعبته إلى جانبهم، وقد حظى والده أبو سعيد آق سنقر، الملقب بقسيم الدولة والمعروف بالحاجب، باهتمام المؤرخين بسبب الدور الذي لعبه على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية، فقد كان مملوكا للسلطان السلجوقي ملك شاه بن ألب أرسلان ومن المقربين إليه، وقد تربى معه ورافقه في عهده الطفولة والصبا، وعندما تولى ملك شاه السلطنة، أصبح آق سنقر (من اعيان دولته واکابر امرائه، واخص اوليائه، واعتمد عليه في اموره كلها)^(٢). وقد كافاه ملك شاه بإعطائه حكم حلب سنة ١٠٩٢م، ولم يلبث أن قتل آق سنقر في ١٠٩٤م. فنشأ عماد الدين بعد مقتل أبيه نشأة بعيدة عن السلطان والنفوذ، وانخرط في خدمة الامراء السلاجقة

^(١) عن كل ما يتعلق بعماد الدين زنكي منذ نشأته وحتى مقتله راجع:

عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي، رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد، ونشرتها الدار العلمية، بيروت، ١٩٧١.

^(٢) ابن واصل: مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، ج١، ص ١١

ابن العديم: زين الحلبى، ج١، ص ص ١٠٣ - ١٠٤

ابو شامة: الروضتين، ج١ ص ٥٩.

حتى وصل إلى حكم الموصل سنة ١٢٧م. وبدأ حكمه لهذه المدينة بتعميرها وتقويتها وفرض النظام والأمن بها، ومنذ البداية كان عماد الدين يؤمن إيماناً عميقاً أن قيام وحدة للإمارات الإسلامية في الشام من الأمور الضرورية لمواجهة الصليبيين، لذلك أخذ يستولى على ممتلكات جيرانه من المسلمين بهدف توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، حتى تم له الاستيلاء على حلب في ١٨ يونيو ١٢٨م، حيث استقبله الأهالي بها استقبالا رائعا واطهروا من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، واستولى كذلك على حمص في سنة ١٢٩م. كما استولى من الصليبيين على مدينة مرعش وكانوا قد استولوا عليها في ١٠٩٨م. وبعد استرداد زنكي لها قام بإرجاع الأراضي إلى كل من استطاع إثبات ملكيتها قبل الغزو الصليبي لها. وبينما زنكي في الموصل مشغولا بالخلافات التي كانت مستمرة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، إذا بنائيه في حلب سيف الدين سوار ينتهز فرصة الاضطرابات التي كانت تعانيها إمارة انطاكية الصليبية، وقام بغزو الأراضي التابعة لها حتى وصل إلى اللاذقية، وقد بلغ عدد القرى الصليبية التي أغار عليها سيف الدين سوار حوالي المائة قرية، وعاد إلى بلاده ومعه (ما يزيد على سبعة آلاف أسير ما بين رجل وأمرأة وصبى وصبية، ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيول والحمير)^(١).

ولم يلبث زنكي أن استأنف جهوده لتوحيد الجبهة الإسلامية، فنزل على حمص محاصراً لها، وكان يحكمها معين الدين إندر، وفي ١١ يوليو سنة ١٢٣٧م علم زنكي أن الصليبيين أتوا لنجدة حليفهم أنر وكانت هذه الجيوش الصليبية بقيادة الملك فولك نفسه ملك بيت المقدس، والامير ريموند الثاني امير طرابلس، فاضطر زنكي أن يرفع الحصار عن حمص وذهب لمقابلة الصليبيين، وانزل بهم هزيمة ساحقة وقتل منهم أكثر من ألفين، وأسر

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٣٠هـ.

الكثيرين وكان من بينهم ريموند الثانى امير طرابلس، ويصف ذلك ان الاثير
فى عبارة موجزة فيقول: (وحمل عليهم عسكر عماد الدين، فكسروهم ومحققهم
قتلا واسرا وحصل لهم من الغنائم الشئ الكثير)^(١).

أما الملك فولك فقد تمكن من الفرار والاحتفاء فى قلعة بعرين فتبعه
زنكى وحاصره بها، فارسل الملك فولك يستجد ببطريك بيت المقدس
وجوسلين الثانى امير الرها، وريموند دى بواتيه امير انطاكية، وحينما علم
زنكى باقتراب وصول النجدات إلى قلعة بعرين، وافق على عقد الصلح مع
الصليبيين فى اغسطس ١٢٧م. ونص هذا الصلح على ان يدفع الصليبيون
للمسلمين خمسين ألف دينار مقابل اطلاق سراح الملك فولك، وباقى الاسرى
الصليبيين. كما نص ايضا على ان يسلم الصليبيون قلعة بعرين للمسلمين،
واعترف الصليبيون بامتلاك زنكى لما استولى عليه بالفعل فى عام ١٢٥م.
من مراكز صليبية وهى زردنا ومعرة النعمان وكفر طاب^(٢).

وهكذا أخذ زنكى يواصل جهوده لتوحيد الجبهة الاسلامية، وفى نفس
الوقت منازل الصليبيين حتى توجت جهوده ضدهم فى ٢٣ ديسمبر ١١٤٤م.
بالاستيلاء على مدينة الرها وهى أول امارة اقامها الصليبيون فى الشرق اثناء
الحملة الصليبية الأولى.

وقد عامل زنكى اهالى الرها المسيحيين بمنتهى الرحمة والرافة،
وشملهم بحمايته ولم يسمح لأحد من جنوده بالاعتداء عليهم، بل أكثر من ذلك

^(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ

^(٢) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ

أمر جنوده (برد ما أخذوه من الرجال ... رالأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وامتعتهم فردوا الجميع عن آخره)^(١).

وفي منذ ١٠ سبتمبر ١١٤٦م. قتل عماد الدين زنكى أثناء حصاره لقلعة جعبر التابعة للمسلمين، وهى على نهر الفرات بين بالس والرقّة، قتله أحد خصيانه ويدعى یرنقش، وقد كانت خسارة المسلمين بقتله فادحة لدرجة ان حامية قلعة جعبر انفسهم صاحوا فى القاتل (لقد قتلت المسلمين جميعاً بقتله).

وبعد اختفاء زنكى نجح جوسلين الثانى حاكم امارة الرها السابق بمساعدة أهاليها، من استعادة المدينة وكان ذلك فى أواخر اكتوبر ١١٤٦م. لكن قلعتها استعصت عليه، وظلت بيد حاميتها من الاتراك السلاجقة الشديدي البأس، مما دفع جوسلين الثانى إلى طلب النجدة من أمير انطاكية ريموند دى بواتييه، وأمير طرابلس ريموند الثانى، ومليزاند الوصية على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية. لكن نور الدين ابن عماد الدين زنكى كان اسرع من كل هؤلاء فى الوصول إلى الرها، وقد وجد جوسلين الثانى نفسه فى موقف حرج نتيجة وقوعه بين فكي الكماشة فالحامية السلجوقية محتمية بالقلعة داخل الرها، ونور الدين محمود يحاصر المدينة من الخارج وبصعوبة تمكن جوسلين الثانى من الفرار من المدينة بعد أن أصيب بجرح فى رقبته، أما أهالى المدينة من السريان والأرمن والصليبيين فقد لقوا شر الجزاء على سابق

^(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٩ هـ

ابن القلاسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٩

ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٩٤

تعاونهم مع جوسلين الثاني، وسيق الجميع اسرى إلى مقر نور الدين محمود في حلب^(١).

وقد كان لسقوط الرها في يد المسلمين وللمرة الثانية رد فعل عنيف ودوى هائل في الغرب الاوروبى، نظراً لما لحق بمختلف العناصر بها من قتل وتكيد وتشريد على يد المسلمين، مما أثار غضب الغرب الاوروبى ودفعهم إلى المناداة بحملة صليبية جديدة، هي الحملة التى عرفت بالحملة الصليبية الثانية، للثار مما لحق بأهالى الرها المسيحيين، واستعادة تلك المدينة ليد الصليبيين من جديد.

ولما كان البابا ايوجينيوس الثالث Eugenius III يعانى من بعض المشاكل التى اضطرته لمغادرة روما لبعض الوقت، لذلك فقد اضطلع ملك فرنسا لويس السابع بهذه المهمة، وافتتح قائمة المشتركين فى الحملة فى ٢٥ ديسمبر ١١٤٥م، وقام الراهب الفرنسى برنارد اوف كليرفو St. Bernard of Clairvaux بدور فعال فى الدعوة لهذه الحملة، وعن طريق خطبة الحماسية، استطاع ان يكسب مشتركين كثيرين فى فرنسا، ثم عبر الحدود وذهب إلى ألمانيا وحث ملكها كونراد الثالث والألمان على اتخاذ الصليب، وقد استجاب له الملك كونراد ووافق على الاشتراك فى هذه الحملة^(٢).

(١) Guillaume de Tyr, 1, pp 731-732
Michel le Syrien : Liber 111, p. 270

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤١ هـ

ابن القلاسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٨

(٢) Chalandon : Les Commene, Etudes sur l'Empire Byzantine au x1 et x11
Siecles, vol 11, paris 1912, p. 265
C. Med. H. ed. Bruy, p.307
Vasiliev : 11, p. 418-419.

وقد نعت المؤرخ الروسى UsPENsky هذه الحملة بأنها
"الخطوة المشنومة، والخطأ الأكبر للقيس برنارد" أما المؤرخ الالماني كوجلر
Kugler فقد رأى أن فكرة الحملة الصليبية الثانية كانت "فكرة تعسة إلى أبعد
الحدود"⁽¹⁾.

وقد أراد كل من لويس السابع وكونراد الثالث أن يشترك معهم فى هذه
الحملة امبراطور الدولة البيزنطية مانويل كومنينوس، فجرت اتصالات بينهما
وبينه وانتهت بالاتفاق بان يقدم مانويل للجيش الصليبية المشتركة فى هذه
الحملة المؤن والاغذية الضرورية، والأدلاء لارشادهم للطريق البرى، بشرط
أن يقسم الصليبيون له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل صليبيو الحملة الأولى
لجده اليكسيوس كومنينوس كذلك تضمن الاتفاق بان يعيد الصليبيون إليه أية
أراضى يستولون عليها من الأتراك وتكون فيما سبق من ممتلكات
الامبراطورية البيزنطية⁽²⁾.

وقد قرر الملكان لويس وكونراد ان يسلكا الطريق البرى عبر منطقة
البلقان التابعة للامبراطورية البيزنطية وتقرر ان يبدأ الالمان بالسير أولاً ثم
بعدهم الفرنسيون، وقد امدنا المؤرخ البيزنطى المعاصر كيناموس الذى عاش
خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى، بتفاصيل دقيقة عن خط
سير الحملة عبر منطقة البلقان والعلاقات البيزنطية الصليبية. خلال
هذه المرحلة . وقد اولى كيناموس اهتماماً خاصاً للعلاقات البيزنطية

(1) Kugler : Studien Zur Geschichte des Zweiten Kru Zuges, Stuttgart, 1960,p. 96 .

(2) Cinnamus : Historiarum, p.80 .

الالمانية^(١). لان هذه العلاقات كانت ذات اهمية خاصة للدولة البيزنطية في هذه الفترة التاريخية نظراً لعلاقات الود والتحالف والمصاهرة التي ربطت بين الطرفين البيزنطى والالمانى ولمصالحهما السياسية المشتركة التي كان لروجر الثانى ملك الصقليتين (صقلية وجنوب ايطاليا) دورا بارزا في تشكيلها، لذلك فقد تم ابرام تحالف مشترك بين الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس والملك الالمانى كونراد الثالث ضد العدو المشترك لكليهما وهو روجر الثانى، كذلك وتوثيقاً لهذا التحالف تم زواج مانويل كومنينوس من شقيقة زوجة كونراد وهى برثا اوف سلزباخ الالمانية فى ١٢ يناير ١١٤٦م. وتعهد كونراد بالعمل على اعادة ممتلكات الامبراطورية البيزنطية فى ايطاليا (ابوليا وكالابريا) كصداق برثا لمانويل^(٢).

وهكذا فقد اشترك الملك كونراد الثالث فى الحملة الصليبية الثانية وقرر أن يسلك الطريق البرى عبر اراضى الدولة البيزنطية وهو مطمئن تماماً إلى أنه سوف يلقى كل الترحيب وكل التعاون من جانب حليفه وصهره الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس.

ولكن على عكس ما توقع كونراد، فلم يكد يصل إلى الاراضى البيزنطية فى البلقان، ويبدأ فى عبور هذه الاراضى، حتى فوجئ بتغيير معاملة حليفه الامبراطور مانويل، الذى لجأ فى بعض الاحيان إلى استعمال القوة العسكرية ضد حليفه وصهره الملك كونراد الثالث وجيشه من الالمان.

^(١) راجع عن كل ما يتعلق بوثائق كيناموس فى هذا الموضوع المرجع التالى:

اسمت غنيم : العلاقات البيزنطية الالمانية خلال الحملة الصليبية الثانية فى ضوء وثائق كيناموس. الفنية

للطباعة والنشر ، ١٩٨٨.

^(٢) اسمت غنيم : العلاقات البيزنطية الالمانية، ص ص ١٧-٢٠.

ولنا أن نتساءل عن اسباب التغيير الذي طرأ على العلاقات البيزنطية الألمانية وعكر صفو هذه العلاقات؟ ان ذلك فى الغالب يرجع إلى عاملين، الأول: هو ان اشتراك كونراد الثالث فى الحملة الصليبية الثانية قد أضر بالمصالح السياسية لدولة البيزنطية فى الغرب الأوروبى، ذلك ان التحالف البيزنطى الألمانى قام أساساً من أجل القضاء على روجر الثانى، وبناء على ذلك أصبح كونراد هو رجل البيزنطيين الأول فى الغرب، الذى عليه ان يراقب نشاط روجر العسكرى ويوقف فى وجهه ويحول بينه وبين امتداد نفوذه وتوسيع ممتلكاته، بل والعمل على انتزاع الممتلكات البيزنطية فى أبوليا وكالبريا من يده واعادتها لبيزنطة من جديد.

وفى الوقت الذى كان فيه الامبراطور مانويل يخطط للقيام بعمل عسكرى مشترك مع الملك الألمانى كونراد ضد روجر الثانى، جاء اشتراك كونراد فى الحملة الصليبية الثانية مخيباً لآمال مانويل ومحطماً لخطته، كما ان غياب كونراد عن مسرح الاحداث فى الغرب الأوروبى، أدى إلى اطلاق يد روجر الثانى وجعله حراً فى مد نفوذه دون حسيب أو رقيب، لذلك قام فى خريف عام ١١٤٧ بشن هجوم مباشر على املاك الامبراطورية البيزنطية واستولى على كورفو Gifu وكورنث، وثيبس Thebes ، وتعتبر هذه المدن مراكز بيزنطية هامة لصناعة الحرير، وقد نهب هذه المدن وقبض على صناع الحرير البيزنطيين المهره، وحملهم معه إلى بالرمو، حيث اسسوا فيها صناعة الحرير النورمانية^(١).

وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى ضيق الامبراطور مانويل وتوتر العلاقات البيزنطية الألمانية.

^(١) Ostrogorsky : History of the Byzantine Empire, pp. 382-383
Vasilier : vol 11, p. 381
Brehier : Vie et mort de Byzance, pp. 270-271

أما العامل الثاني الذى زاد من حدة التوتر بين الطرفين فهو تصرفات الجنود المنخرطين فى جيش كونراد ضد رعايا الامبراطور البيزنطى فى منطقة البلقان وتغشى القوضى بين صفوف جيشه، واحداث الشغب من نهب وتخريب واعتداء على حياة المواطنين البيزنطيين الآمنين فى هذه المناطق^(١). وقد اعترف كونراد فى خطابه للامبراطور مانويل بذلك صراحة، لكنه نسب ذلك إلى (الغوغاء) فى جيشه فقال مخاطباً الامبراطور:

(الباسيليوس ذو العقل الراجح، لايجب النظر فى المشكلة نفسها فحسب، ولكن البحث عن السبب الواضح الذى برزت من أجله، ان اى شخص يعتمد على الشر يفشل دائماً فى اتمام ما هو طيب من الاعمال، ولا يوبخ عادة ما يبدو ظاهرياً انه عمل دنى، وعلى عكس الاعتقاد السائد فان شخصاً ما يقابل بالترحاب فى بعض الاحيان من اعدائه، ولكن مرة اخرى يقابل بروح عدائية من جانب اصدقائه. لا تتسبب إلينا الضرر الذى حدث مؤخراً فى أراضيك من جانب العامة فى جيشنا ولا تغضب لهذا السبب لاننا أنفسنا لم نقترف هذه التصرفات، لكن مبعثها كان الغوغاء الذين اندفعوا وراء شهواتهم، لقد كانوا ماهرين فى اقتراف هذه التصرفات بناء على رغبتهم الشخصية. حينما يكون هناك فى اى مكان جيش من الاجانب والغرباء يطوف ويتجول، فان بعضاً منهم يحاول اكتشاف الاقليم والبعض الآخر يجمع المون الضرورية واعتقد انه من غير المعقول ان يكون الشر قد خطر على بال اى يد امتدت بالاذى).

ورغم اعتراف كونراد الثالث بتصرفات جنده، فانه لم يبذل أدنى محاولة للسيطرة عليهم او كيح جماهم وردعهم، وكان هذا العدوان حق مشروع للصليبيين عامة ضد البيزنطيين، وقد أزعج ذلك كله الامبراطور

^(١) عن تصرفات الالمان أثناء سيرهم فى منطقة البلقان والأذى الذى لحقه برعايا الامبراطور البيزنطى راجع: Cinnamus : Historiarum, pp. 70-73.

منذ ريل راثار غضبه، ودفعه إلى الانتحاء إلى الدراسة التقليدية للابادة
البيزنطيين تجاه جموع الصليبيين. رعى أنقى ارساها ووضع قواعدها جده
الامبراطور اليكسيوس كومنينوس. وهي سياسة الترغيب والتهديد ثم الردع.

وقد رد الامبراطور مانويل على رسالة كونراد فى لهجة لا تخلو من
السخرية والتهديد وكان رده كالتالى:

(أهواء العامة دائماً غير سهلة القيادة، ويصعب التحكم فيها، وهذا لا
ينقذ بلادنا، هذا الأمر فى الواقع موضع اهتمامنا أكثر منك، الاجانب يجب ان
يعبروا خلال اراضى مملكتنا دون خسائر، ودون ادعاء أو معاناة حقيقية من
أى أذى يلحق بهم من جانبنا خشية ان نزال سمعة سيئة بين الجنس البشرى
بسبب اقرار ما هو ضد كرم الضيافة، حتى هذه الاشياء بالطبع ظهر
بوضوح انها غير ذات اهمية بالنسبة لك. نظراً لأنك حاد الذكاء وشديد
المهارة فى بحث طبيعة الاشياء على الوجه الصحيح، فنحن مدينون لك
بالشكر، ونحن سوف لا ننظر بعين الاعتبار لكيفية كبج جماح الاندفاع الواسع
النطاق لشعبنا ضدكم، ولكننا سوف نعزو ذلك إلى حماقة العامة، كما تعظفت
واخبرتنا، لذلك لن يكون هناك فائدة كبيرة لك لسلوكك الطريق مع الجيش
كله، ولا التجول كذلك فى ارض غريبة عنكم. نظراً لأن العامة يعتزمون
ممارسة أهواءهم، وظهر أن ذلك هو الصواب، لذلك فان الارجح ان الغرباء
سيقاسون الكثير على يد الأهالى).

ونتيجة لذلك فقد تآزم الموقف بين الطرفين الالمانى والبيزنطى، وحدث
اشتباك عسكرى بينهما، وقتل من الجانب الالمانى عدد كبير، مما أدى إلى
غضب كونراد، واصراره على الانتقال إلى الجانب الآسيوى، وقد طلب من

مانويل امداده يسفن من نوع الدرمونة^(١) كى يستخدمها هو وجيشه فى عبور
البسفور والوصول إلى شاطئ آسيا الصغرى، ولما استمهله الامبراطور
لبعض الوقت، ثار كونراد وهدد بفرض الحصار على العاصمة البيزنطية مما
دفع الامبراطور مانويل إلى مخاطبته فى رسالة جرت على النحو التالى: (من
اجل هؤلاء القادرون على اجتياز الاختبار الدقيق، جرى العرف ان الامور لا
يحكم عليها بالكم ولكن بالكيف، وعن طريق التفوق ومعالجة الخلل، ثمة
احدهم يجب أن يبرز المنافسون له فى القتال لا عن طريق العدد، ولكن عن
طريق التفوق والتمرينات والبراعة فى هذه المسألة، حتى اذا كان هناك جيش
كبير يتبعك ويفوق عدده قليلا الجيش الوطنى، رغم ان الجانب الاكبر من
الجيش الوطنى مقسم بين مناطق كثيرة من امبراطورية الرومان. إلى جانب
ذلك فهو (جيش كونراد) مجموعة من الدماء، واعداد كبيرة من الاشخاص
غير العسكريين، هل يعتد بقطيع من الخراف تزهو بكثرة عددها اذا ما
صادفوا اسدا يثب وراءها؟ ام انك لا تدري انك مثل العصفور تحت قبضتنا؟
انت لا ترغب فى ان تهلك، ولا نحن نرغب فى ذلك، فكر فى انهم يملكون
هذا الاقليم الذى جاب اجدادهم باسلحتهم انحاء المعمورة، واصبحوا سادة
عليكم وعلى اى عنصر آخر تحت الشمس. يجب عليك ان تفكر ايضا انك لن
تعتلى متن سفينة امبراطورية، ولن تنفذ بيننا ما تسعى إليه، لكن أرجل خيولكم
سوف تحملكم عائدين على نفس الطريق، ويجب ألا تلومنا اذا نحن جعلنا
انفسنا غير لطفاء مع هؤلاء الذين يقتربون الاثم والعدوان لان اقرار الاثم
والأخذ بالثأر شيان مختلفان، الأول نشأ من قرار متخلف، بينما التحذير يقود
الأخر. الاتفاق السابق بيننا يحفظ لنا حقنا، أية ارض سوف تسترجع

^(١) الدرمونة هى نوع من السفن المستخدمة فى الاسطول البيزنطى، وهى سفن قتال كبيرة الحجم، وهى تسير
بأربعة صفوف من المجاديف وبلغ عدد مجاديفها من ٢٠٠ إلى ٢٢٠ مجداف، وتسع الواحدة منها لسبعين
مقاتلاً عدا المجذفين، ومنها ما هو اكبر فيتسع لمائتين وعشرين مقاتلاً. راجع:

إسمت غنيم: الامبراطورية البيزنطية وكرت الاسلامية، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ص ١٧٠-١٧١.

عما قريب من الجيران الاتراك، فان الرومان سوف يملكونها بالفعل، وبدون صعوبات، ان الذى لا نستطيع ان نتحملة هو مطالب شعبنا (مهاجمة الالمان) نحن سنجازف الآن بالعمل فوراً بوجهة نظرك).

وواضح ان هذه الرسالة قد اتسمت بلهجة التعالى، وحفلت بكلمات السخرية فجيش كونراد على كثرة عدده ما هو إلا مجموعة من الرعاع غير المدربين على الحرب بالاسلوب العلمى السليم الذى يتقنه البيزنطيون وتشبيهه الجيش الالمانى بقطيع الخراف التى ترهو بكثرة عددها، والملك الالمانى نفسه ما هو إلا عصفور تحت قبضة الامبراطور البيزنطى القوية، وهذا يوضح بجلاء ان الامبراطور البيزنطى كان مشبعاً بالشعور بعظمته ومركزه السامى الرفيع الذى لا يصل اليه أى ملك من ملوك الغرب الاوروبى، اما الاباطرة الالمان فهم من وجهة النظر البيزنطية (محدثو نعمة) فأصلهم يرجع إلى البرابرة الجرمان الذين ظلوا على حدود الامبراطورية الرومانية ينظرون إليها بعين الحسد حتى وانتهم الفرصة وتمكنوا من الدخول إلى اراضيها واسسوا ممالكهم على انقاضها.

على أية حال تمكن كونراد وجيشه من استخدام بعض السفن الرديئة التى غالباً ما تكون موجودة على الشاطئ وعبر البسفور ووصل إلى ساحل آسيا الصغرى، وقد أرسل كونراد للامبراطور مانويل رسالة طلب فيها امداده بمرشد يدلهم على الطريق عبر اراضى آسيا الصغرى فارسل إليه الامبراطور احد القادة ويدعى ستيفانوس، الذى اوضح لكونراد ان عليه ان يسلك احد طريقين، إما طريق الساحل الجنوبى لآسيا بعيداً عن الاتراك السلاجقة، وإما الطريق الآخر فى جوف البلاد مخترقاً اراضى السلاجقة، وقد اختار كونراد الطريق الثانى مما عرضه لكارثة حقيقية، ونرجع إلى كينا موسى نستقى منه المعلومات عما حدث، قال: (..والى ان وصلوا إلى ميلانجيا

ودورينيوم^(١) لم يحدث ما يعكر صفو الالمان ولكن حينما وصلوا إلى هناك فإن عنصر الاتراك هاجموا المقدمة بجيش صغير ليختبروا قوتهم وليعلموا أى نوع من التنظيمات يتبعونها، حينما ظهر الاتراك امامهم، تقدم الالمان فى فوضى واندفعوا امامهم بحماس عظيم، وعندما اصبح الالمان على مقربة من معسكرهم، ولى الاتراك الادبار وتظاهروا بالفرار، ولكن حينما انهكت خيالتهم (الالمان) واصبحوا بعيدين عن معسكرهم، قام الاتراك بهجوم سريع عليهم وذبحوا الرجال والخيل، وقد تكرر حدوث نفس الشئ مرارا وتكرارا، فشعر الالمان بفرع عظيم، وهكذا يمكن ملاحظة ان هؤلاء الذين كانوا فيما سبق مفرطين فى التفاخر حينما هوجموا باسلوب همجى لا يمكن مقاومته، قد عجزوا بجبن وخسة عن فعل أو التخطيط لأى شئ، عندئذ اندفع كونراد (الذى كان جسورا فى الحرب) ضد الاتراك، وقد فقد على الأخص الخيالة الخفيفة التى كان الامبراطور قد اهداها له واستولى البرابرة (الاتراك) عليها كلها.)

وهكذا أصيب الالمان بهذه الكارثة فى يوم ٢٦ اكتوبر ١٤٧م. وقد اضطر كونراد إلى التراجع فى صعوبة بالغة إلى نيقية، ومعه من بقى من قلوب جيشه فى حين غنم السلاجقة كميات لاحصر لها من الغنائم.

وبينما الالمان يعانون من هذه الظروف الصعبة وصل الملك لويس السابع إلى الاراضى البيزنطية فى البلقان بعد ان عبر الدانوب، (وتقدم فى سيره عازما على انه لا ضرورة لان يصبح وقحا مثل كونراد وقد رحب بالرسل الذين ارسلهم إليه الامبراطور، اعنى السباستوس ميخائيل باليولوجوس، وميخائيل ويسمى كذلك براناس، وواعد بالتعاون مع الامبراطور ورأى عدم الحاق أى أذى بالرومان وان كنت لا أستطيع ان أرجح ايهما

^(١) مدينة قديمة تقع فى الشمال الغربى للاتاضول وتدعى حاليا (اسكى شهر) ومعناها المدينة القديمة.

الأصح، هل أخذ درساً من المصائب التي حلت بكونراد أم ان أخلاق الرجل وطباعه كانت هكذا، لذلك أنهى حديثه معبراً عن سروره للاستقبال الكبير من جانب الامبراطور. حينما اقترب من بيزنطة أرسل رسلاً إلى الامبراطور، ووعده بتوطيد الصداقة، واتفق على الاشتراك معه في بحث المسائل الهامة، وأكد على ضرورة مقابلة احدهما للآخر للاشتراك معا في مباحثات في القصر.) وذلك على حد تعبير كيناموس.

وقد قابله الامبراطور ماثويل بالقصر الامبراطوري وتشاورا معاً، وذهب لويس لرؤية الآثار المقدسة الموجودة في قصر بلاكرناى الذى يقع إلى الجنوب من العاصمة القسطنطينية، ثم اقسم على ان يكون صديقاً وحليفاً للامبراطور طوال حياته، وعبر البسفور إلى آسيا الصغرى، وفي نيقية التقى بكونراد وبقايا حملته الالمانية (حينما اجتمع الجيشان معا (الالمانى والفرنسى) وضح بشكل عملى القول المأثور من قديم الزمان الذى يطلقونه على الالمان وهو (القدم الالمانية)، ولما كان الأمر يعود إلى اصله فانتى سوف اشرح ذلك على الفور، اسلوب هذه الامم فى القتال ليس على نفس النمط، الفرنسيون بصفة خاصة ماهرون فى اعتلاء ظهور خيولهم فى نظام حسن، وفى الهجوم بالرمح، وخيالتهم يبرزون الالمان فى السرعة، الالمان بالطبع قادرون على القتال وهم مشاة أفضل من الفرنسيين، وهم ممتازون فى استعمال السيف الكبير، عندما يهجم الالمان على الفرنسيين فانهم يشعرون بشك فى خيالتهم ويصممون على خوض المعركة وهم مشاة، خوفاً من خوض المعركة بخيالتهم الغشيمة التى يهزمها الفرنسيون ويطاردون الجزء الاكثر مهارة من الالمان، ويردون هؤلاء المشاة الذين يسرون على اقدامهم، مع انهم أقل عدداً بكثير، لذلك فهم يسخرون منهم بكلام معبر لانه بينما يكون ممكناً القتال وهم يعتلون ظهور خيولهم، فانهم يختارون القتال وهم مشاة) ويستطرد كيناموس قائلاً: (هذا الذى تكرر مراراً من الفرنسيين ضد الالمان اغضبهم كثيراً، بناء على ذلك ولان المجازفة بأخذ المركز الثانى خلف الفرنسيين على الطريق

يهددهم لذا فانهم ساروا معاً حتى وصلوا إلى فيلادلفيا، وهناك لم يستطع كونراد ان يتحمل استخفاف الفرنسيين به وعزم على العودة، وقد كتب إلى الامبراطور وافصح عن خطته، وكانت هذه الخطة كما تمنى (مانويل) وهي انفصال الملكان كل منهما عن الآخر وقد عطف (مانويل) على الرجل، وارسل له رسالة كانت على النحو التالي: 'الرجال المطالبون باعمال فكرهم يلاحظون ان الامور لا تعتمد على دورة الحظ، بصرف النظر عن اى تغيير فجائى، لذلك حينما كنت موقفاً، صممتنا على عدم معاملتك فوق مستوى قيمتك، وانت الآن فى موقف حرج ونحن لا نتردد فى الترحيب بعودتك بنفس الاشياء التى نشأتنا للقيام بها من أجل واجب الضيافة تجاه صهر هو حاكم لامم كبيرة، ولنتشاور معاً، ناظرين فى الظروف الحالية، من اجل نداء العقل ولاننا ايضا على دين واحد، انتى لا اعرف كيف استهترت، ونظرت بقليل من الأهمية لما هو مفيد لك، واخترت الشئ الأقل فائدة، طالما أنه من غير الممكن تغيير ما حدث، جئ الينا على وجه السرعة، ودعنا نفكر على الوجه الأكمل ما هو المفيد لنا، ما الذى لم نخسره حتى الآن، ان الحظ لا يقف جامداً، ولكنه يمتلك خاصية التغيير المستمر، أحدهم جنى شيئاً ما، هو حينئذ يستطيع ان يمتلك كل شئ، لكن حين يهلك فى الماضى، يكون مستحيلاً عليه ان يعود للحياة مرة اخرى، طالما انه يمكن معالجة امورك، فأسرع بالتمسك بما سوف يفيدك)، وانتهت الرسالة على هذا النحو.

كنراد الذى كان يشعر بمدى حماقته السابقة، ولكن لا يعرف ماذا يفعل، لم يكن راغباً فى اقتفاء أثر الفرنسيين وحينما وصلتته رسالة الامبراطور، آمن ان الحظ قد وافاه، وتلقى للنصيحة بسرور وعاد مسرعاً حتى وصل إلى الهلسبون، وعبر المضيق إلى تراقيا، وقابل الامبراطور، الذى كان موجوداً هناك، وعاد معه إلى بيزنطة^(١)، وهناك تتابعت التسلية واحدة تلو الأخرى،

(١) كان ذلك فى شتاء ١١٤٧-١١٤٨م.

من قصور امبراطورية، إلى عروض مسرحية متنوعة، وسباقات خيل، واستقبالات فخمة، وعن طريق ذلك استعاد حيويته ونشاطه اللذين كان قد فقدهما نتيجة ارهاقه، وقد زود بذخيرة كافية وخرج إلى فلسطين في سفينة ثلاثية المجاديف، (مارس ١٤٨٠م.) وقاد له سفينته تقفور داسبوتا وزوده بالخدمات الضرورية، هناك قابل الملوك الآخرين، وأدى الشعائر الدينية المناسبة عند مقبرة المسيح المقدسة في فلسطين.)

أما لويس السابع فقد واصل سيره من افسوس حتى وصل إلى انطاكيا في يناير ١٤٨٠م وهذه المدينة على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى وكانت تابعة للامبراطورية البيزنطية في ذلك الوقت، وقد قرر لويس ان يتخذ طريق البحر، مبتعداً عن خطر الاتراك السلاجقة، ليصل إلى ميناء السويدية ومنه إلى انطاكية. ولما كان في حاجة إلى سفن لنقله إلى هناك فقد طلب من البيزنطيين تزويده بها ولكنهم افصحوا عن عداؤهم للصليبيين واثاروا امامهم العقبات، وعلى أية حال فقد نجح لويس في تدبير بعض السفن واستقلها مع بعض حاشيته، وترك باقى الجيش في انطاكيا يعانون من عدااء البيزنطيين وهجمات الاتراك السلاجقة، حتى تم نقلهم على دفعات إلى الشام، اما لويس فقد وصل إلى ميناء السويدية في ١٩ مارس ١٤٨٠م. ثم إلى انطاكية حيث قوبل بالترحيب من جانب اميرها عم زوجته اليانور، وهو ريموند دى بواتييه وقد طمع ريموند فى تأمين امارته فى انطاكية عن طريق مساعدة لويس له للقضاء على خطر الزنكيين فى شمال الشام وخاصة حلب قاعدة نور الدين محمود، وقد كان ريموند محققاً فى تفكيره هذا حيث ان الحملة الصليبية الثانية لم تقم إلا من أجل استرداد الرها والقضاء على قوة الزنكيين فى شمال الشام وبالتالي تأمين الاوضاع بالنسبة لامارتى الرها وانطاكية وهما الامارتان اللتان تعرضتا للمتاعب والهجمات من جانب الزنكيين. ولم يكن ريموند امير انطاكية هو الوحيد الذى طمع فى استغلال حملة لويس لصالحه وصالح امارته، وانما اراد جوسلين الثانى حاكم اماره الرها السابق ان يستغل حملة

لويس فى استرداد امارته، وهذا ايضا من حقه، ولم يلبث ريموند امير طرابلس الذى كان ينتمى إلى الأصول الفرنسية عن طريق والدته، ان طمع هو الآخر فى استغلال حملة لويس لاسترداد قلعة بعيرين التى استولى عليها المسلمون. وهكذا وجد لويس نفسه وسط تيارات متعددة يجذبه كل منها فى اتجاه معين، وبينما هو كذلك وصل إلى انطاكية فى ابريل ١١٤٨م. بطريق بيت المقدس الذى اخبر لويس بوصول كونراد الثالث إلى بيت المقدس ويطلب منه الرحيل إليها هو الآخر، فاعتبر لويس ذلك نجده وصلته من السماء لانتراعه من حيرته تجاه هؤلاء الذين يطالبونه بتسخير حملته لتحقيق مصالحهم وادرك ان اسلم الطرق هو طريق بيت المقدس فرحل إليها ووصلها فى منتصف ابريل ١١٤٨م، حيث استقبل بحفاوة بالغة.

وفى ٢٤ يونيو ١١٤٨ تم عقد مجلس عسكرى كبير فى عكا، حضره لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث ملك المانيا، وملك بيت المقدس القاصر بلدوين الثالث ووالدته والوصية عليه مليزاند، وامراء المملكة، وعدد من كبار رجال الدين، وقد تقرر فى هذا المجلس مهاجمة دمشق وحاكمها معين الدين أنر الحليف الوحيد المسلم للصليبيين فى الشام، وهكذا ضحى المسئولون فى مملكة بيت المقدس الصليبية بالصالح العام المتمثل فى مهاجمة الزنكيين فى شمال الشام ومحاولة استرداد الرها، من أجل تحقيق مصالح ثانوية للمملكة، لان العدو الحقيقى كان هو نور الدين محمود ومقره حلب فى شمال الشام حيث استولى على الرها وكان دائم التهديد للممتلكات الصليبية فى شمال الشام وخاصة اماره انطاكية، فى الوقت الذى لم يكن معين الدين أنر فى دمشق يمثل أى خطر حقيقى على الصليبيين.

وهكذا اجتمعت الجيوش الصليبية فى طبرية فى اوائل يوليو ١١٤٨م، ومنها زحفوا إلى بانياس ثم إلى دمشق، وحاصروها من الجهة الغربية المعروفة باسم الغوطة، واحتلوا بعض القرى خارج سور دمشق مثل المزة

والزبوة، وقد التحم المسلمون وتكلموا في ترك الزهاد والفقهاء في القدس.
(واجتمع عليهم من الاعمال والاجناد والامراك واحداث البلد والمطوعة
والغزاة اجم الغفير، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الاعداد...)^(١) وقد
استغل المسلمون وجود اشجار كثيرة في هذه الجهة واخذوا يحتمون بها
ويهاجمون الصليبيين، فاشار امراء بيت المقدس عليهم بسحب قواتهم من
الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية الخالية من الاشجار حتى لا يجد المسلمون
ما يحتمون به عند مهاجمتهم للمعسكر الصليبي،^(٢) وقد استمع الصليبيون لتلك
النصيحة وعملوا بها ونقلوا معسكرهم إلى الجهة الشرقية التي كانت غير
مناسبة على الاطلاق نظرا لتعرضهم للشمس الحارقة وحرارة الجو دون ان
يجدوا ما يحميهم، كما ان تلك الجهة كانت خالية من مياه الشرب، مما عرض
الصليبيين للكثير من المتاعب والصعاب. وبينما يعاني الصليبيون من تلك
المصاعب كانت النجدات تتدفق على معين الدين ابر في دمشق واستقبلها من
الابواب الشمالية البعيدة عن الحصار، واخذ المسلمون في الهجوم على
الصليبيين الذين تحولوا من الهجوم إلى الدفاع، كما انقسم
الصليبيون على انفسهم وهم امام دمشق، فامراء بيت المقدس كانوا
يطمعون في ان تنضم دمشق إلى المملكة الصليبية في حال استيلائهم
عليها، في حين طمع لويس وبعض امرائه في ان تكون دمشق
امارة صليبية جديدة مستقلة. وهكذا دب الخلاف والانقسام بين
الصليبيين امام دمشق على مصير الغنيمة قبل ان يفوزوا
بالغنيمة بالفعل.

^(١) ابو شامة : كتاب الروضتين، ج١، ص ٥٢

اسامة ابن منقذ : كتاب الاعتبار، ص ص ٩٤-٩٥

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١٢

وفي تلك الاثناء اخذ معين الدين انر يستجد بالأخوين نور الدين محمود في حلب، وسيف الدين غازي في الموصل، اللذان لم يرغبا في ساعة فرصة الاستيلاء على دمشق فزحفا عليها بجيوشهما ولكنهما توقفا عند حمص وارسلا إلى معين الدين انر يخبرانه بضرورة ان يكون نوابهما في داخل دمشق فان انهزما دخلا إلى المدينة وان انتصرا فالمدينة لمعين الدين انر، الذي لم يخفى عليه نية الاخوين في الاستيلاء على دمشق، لذلك اخذ يساوم الصليبيين ويهددهم بحضور نور الدين محمود وسيف الدين غازي لنجدة دمشق وانه سيسلمهما البلد وحينئذ لن يكون للصليبيين مقام بالشام، ثم عرض عليهم ان يسلمهم حصن بانياس، مقابل الجلاء عن دمشق^(١). ونظرا لصعوبة موقف الصليبيين وخوفهم من وصول قوات الزنكيين لنجدة دمشق، فقد قبلوا عرض معين الدين انر ورفعوا الحصار عن دمشق في نهاية يوليو ١١٤٨م، واثاء انسحابهم اخذ المسلمون يطاردونهم، مما افقدهم صوابهم واخذوا في تبادل التهم مع امراء مملكة بيت المقدس الصليبية خاصة وانهم هم الذين اشاروا عليهم بترك الجهة الغربية من دمشق والانتقال إلى الجهة الشرقية. وقد سارع كونراد الثالث بالابحار من عكا إلى سالونيك حيث قابل الامبراطور ماتويل كومنينوس ثم رحل عائدا إلى بلاده^(٢). أما لويس السابع فقد بقي ستة اشهر اخرى حتى تسلم الصليبيون بالفعل بانياس حسب وعد انر لهم، ثم رحل هو الآخر لبلاده.

(١) ابن الاثير: الكامل حوادث سنة ٥٢٣هـ ، ٥٤٣هـ

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١٢

الزويري : نهاية الارب ، ج ٢٥ ، ورقة ٨٠ (خطوط)

(٢) Cinnamus, p. 87

وهكذا انتهت أحداث الحملة الصليبية الثانية على هذا النحو، وفي تقييم مدى النجاح أو الفشل الذي حققته، يمكن القول انها فشلت في تحقيق هدفها، حيث انها خرجت اساساً من أجل تحقيق هدف محدد وهو استرداد امارة الرها من يد نور الدين محمود وتأمين شمال الشام من خطره غير أنه بعد وصول الحملة بشقيها الالمانى والفرنسى إلى الشرق نسي الملكان هدفهما الرئيسى وبعداً تماماً عنه وراحا يسعيان لتحقيق هدف آخر ثانوى تنفيذاً لرغبة المسئولين في بيت المقدس. وقد ترتب على فشل هذه الحملة مكاسب جمة للمسلمين لعل اهمها هو استرداد ثقتهم في انفسهم وفي امكانية إلحاق الهزيمة بهؤلاء الطغاة الذين أتوا من الغرب الاوروبى واذاقوا المسلمين الامرين خلال الحملة الصليبية الاولى، والذين نكلوا بهم وقتلوه في مذابح رهيبية لعل اكثرها بشاعة مذبحة بيت المقدس في ١٠٩٩م، وقد ظل المسلمون في خوف دائم من ان تأتي حملة جديدة من الغرب الاوروبى تتكل بهم من جديد وتفعل بهم مثلما فعلت الحملة الاولى، فلما جاءت هذه الحملة الثانية وباعت بالفشل، تشجع المسلمون وارتفعت روحهم المعنوية، وايقنوا أنهم قادرون بعون الله على إلحاق الهزيمة بهذه الاقوام والجموع الغربية المعتدية، فانحطت هيبة الصليبيين بالشام وفقدوا مكانتهم، واخذ المسلمون يغيرون على الممتلكات الصليبية بالشام ويستردون ما سبق ان فقدوه.

لذلك فلم يبعد المؤرخ ستيفن رانسيمن عن الحقيقة حين قال "ان فشل الحملة الصليبية الثانية يعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية وفي تاريخ الصليبيين في الشرق الادنى"^(١).

^(١) Runcuman 11, p. 291

وقد توالى الهزائم تترى على رؤوس الصليبيون، وخاصة بعد ظهور
بطل الاسلام ومؤسس الاسرة الايوبية الناصر صلاح الدين الايوبي.

الفصل الثالث

ظهور صلاح الدين الأيوبي

يرجع أصل صلاح الدين الأيوبي إلى الأكراد، وقد هاجر والده نجم الدين أيوب بن شادي وعمه اسد الدين شيركوه بن شادي من بلدة دفين Divin في أرمينيا، وانخرطا في خدمة عماد الدين زنكي أتابك الموصل.

ويعتبر صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية وأشهر سلاطينها، وقد حاز صلاح الدين شهرته الكبيرة هذه في المشرق الإسلامي والغرب الأوروبي، وعند المسلمين والمسيحيين على حد سواء نظراً للدور الكبير الذي لعبه في الجهاد ضد الصليبيين، وقد كللت جهود صلاح الدين ضد الصليبيين بانتصاره الساحق عليهم في معركة حطين ١١٨٧م.

والواقع أن تاريخ الأيوبيين في مصر والشام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحروب الصليبية، بل أن ظهور صلاح الدين نفسه على مسرح الأحداث السياسية ارتبط بالصراع الذي قام بين سيده نور الدين محمود والصليبيين حول مصر.

ذلك أن الدولة الفاطمية في مصر أصبحت تعاني في أواخر أيامها من الضعف والأضمحلال السياسي، فأصبح الخليفة الفاطمي العويبة في يد الوزراء يحركونها كيفما شاؤوا، بل أكثر من ذلك أصبح انوزير يستعرض الخلفاء استعراض الغنم ليختار منهم أضعفهم وأصغرهم سناً ليكون أداة طيعة في يده، مثل الوزير طلائع بن رزيك الذي كان أرمني الأصل، وسيطر على الوزارة لمدة سبع سنوات (١١٥٤-١١٦١م)، فعندما أخذ أهالي القاهرة يهترون للخليفة الجديد، قال ابن رزيك "كأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا، وما علموا أنني كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم".

وقد تطور التنافس على الوزارة بين مصر عند بداية العصر الفاطمي إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة مما ترتب عليه تطوع هؤلاء الأمراء إلى بسط سلطانهم عليها. فقد انفرد بالسلطة والى انصعيد ويدعى شاور بعد أن تخلص من الوزير الحادل بن طلائع بن رزيك في المحرم ٥٥٨هـ على أن أحد قادة الجيش ويدعى ضرغام ثار عليه وتقلد الوزارة، فاضطر شاور إلى الالتجاء إلى نور الدين محمود صاحب دمشق، وهو ابن عماد الدين زنكي صاحب أول حركة جهاد ضد الصليبيين، ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه، ووعد بأن يتنازل له عن ثلث خراج مصر إذا عاونه في التغلب على ضرغام وانتزع الوزارة منه. فتردد نور الدين محمود في بداية الأمر ثم لم يلبث أن وافق بعد أن قلب الأمر وادرك مدى الضعف الذي صارت عليه الخلافة الفاطمية، واقتنع بضرورة اقتناص الفرصة وعدم تركها تفلت من بين يديه، فأعانه بحمله اسند قيادتها إلى أسد الدين شيركوه، وقد نجحت هذه الحملة في التصدي لضرغام والتغلب عليه، وتمكنت من إعادة شاور لمنصبه في الوزارة في رجب ٥٥٩هـ.

لكن الخيانة التي اتصف بها شاور لم تلبث أن ظهرت بوضوح فلم يفى بما تعهد به لنور الدين محمود، وأرسل إلى أسد الدين شيركوه يطلب منه مغادرة البلاد المصرية والعودة إلى الشام. بل أكثر من ذلك أرسل إلى الملك عموري الأول ملك بيت المقدس الصليبي يطلب مساعدته ضد نور الدين محمود وأوضح له مدى الخطر الذي سيلحق بالصليبيين إذا استولى نور الدين محمود على مصر. لذلك فقد سارع الملك عموري إلى تلبية طلبه وخرج على رأس جيشه خاصة بعد أن وعده شاور بمبلغ كبير من المال، ووصل إلى مصر حيث اشترك معه شاور بجيشه في حصار شيركوه في مدينة بلبيس وأخيراً تم الاتفاق بين هذه الأطراف على أن يغادر كل من شيركوه وعموري أرض مصر، وكان ذلك في أواخر عام ١١٦٤م.

وقد أدت هذه الظروف إلى لفت أنظار كل من الصليبيين ونور الدين محمود إلى ضعف مصر وازداد طمعهم فيها. ولم يلبث الخليفة الفاطمي العاضد بالله أن أرسل إلى نور الدين محمود يخبره بأن شاور قد استبد بالأمور وكثر ظلمه للناس وسفكه للدماء. أضف إلى ذلك أن نور الدين محمود كان يكن الكراهية لشاور بعد أن غدر بأسد الدين شيركوه واستعان عليه بالصليبيين فانفذ نور الدين محمود حملته الثانية إلى مصر وغادرت دمشق في يناير ١١٦٧ في طريقها إلى مصر، وقد صار بصحبة شيركوه بعض الأمراء وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا في هذه الحملة.

وقد عاد شاور من جديد واستجد بالملك عموري، الذي خرج بجيشه على وجه السرعة وانضم إليه جيش شاور، فتقدم شيركوه إلى الصعيد فتبعه الصليبيون والتقى الفريقان في مكان يعرف باسم البابين على مقربة من مدينة المنيا، فكان النصر لحليف شيركوه الذي رأى بعد ذلك أن يسير إلى الاسكندرية، فدخلها من غير مقاومة تذكر وعين ابن أخيه صلاح الدين والياً عليها.

عادت القوات الصليبية ومعها قوات شاور إلى القاهرة بعد هزيمتهم في موقعة البابين، ثم ولوا وجوههم شطر الاسكندرية حيث قاموا بحصارها براً، في الوقت الذي كان اسطول الصليبيين يحاصرها براً ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار، فاسرع أسد الدين شيركوه إلى نجدته. وقد أرسل إليه الصليبيون وشاور يطلبون الصلح فأجابهم إلى طلبهم واشترط ألا يقيم الصليبيون في البلاد المصرية، ثم عادت قوات نور الدين محمود إلى دمشق.

على أن القوات الصليبية لم تغادر كلها مصر تنفيذاً لهذا الصلح، بل عقدت مع شاور معاهدة، كان من أهم شروطها "أن يكون لهم بالقاهرة

شحنة - وهو نائب السلطان فى ضبط البلد وتصريف شئونها - وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن انفاذ عسكر إليهم" كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنوياً من دخل مصر.

وقد علق المؤرخ أبو شامة على هذه الشروط بقوله: "هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور وأما العاضد - صاحب مصر - فليس له من الأمر شئ، ولا يعلم شيئاً من ذلك، قد حكم عليه شاور وصحبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة".

على أن شاور بدأ يتخوف عندما وجد أن مساعدة الصليبيون له انقلبت إلى حماية، هذا إلى أن الضريبة السنوية التى فرضها عمورى على شاور - وهى مائة ألف دينار- أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية، فى الوقت الذى نضبت فيه مواردها. أضف إلى ذلك أن وجود (شحنة) صليبي فى القاهرة يشارك فى شئون الحكم ووجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة، كل ذلك أزعج المسلمون. وهكذا لم يجد شاور أمام شعور الاستياء العام فى القاهرة، إلا أن يقلب سياسته رأساً على عقب، فما كان منه إلا أن اتصل بنور الدين محمود يطلب حمايته وتخليصه من الحماية الصليبية.

لكن عمورى الأول ملك بيت المقدس عندما علم بتغيير سياسة شاور تجاه الصليبيين عزم على مهاجمة مصر والاستيلاء عليها قبل أن تصل إليها قوات نور الدين، وبالفعل فانه خرج على رأس قواته فى أكتوبر ١١٦٨م، فوصل بلبس فى أول نوفمبر ١١٦٨م، وقد اغلقت المدينة أبوابها فى وجهه، ولكنه نجح فى اقتحامها واتخذ طريقه إلى القاهرة بعد أن أساء معاملة الأهالى فى بلبس وقتل منهم أعداداً كبيرة كما احرق وخرب أكثر البلد. وقد وصل عمورى بالقرب من القاهرة وعسكر جنوبى الفسطاط، فاحرق شاور الفسطاط

بعد أن أُنذِر أهلها فخرجوا جميعاً، وقد نُقل عموري معسكره بعد حريق
الفسطاط أمام القاهرة، ولكن القاهرة قاومت الجيوش الصليبية مقاومة باسلة.

هذا في الوقت الذي اخترق فيه شيركوه الصحراء ووصل بجيوشه
ومعه صلاح الدين الأيوبي إلى القاهرة، حيث ألّف حوله الأهالي، بوصفه
المدافع عنهم وعن الاسلام. وقد تم القبض على شاور وقتل، وهكذا انتهت
حياة ذلك الوزير الذي استبد بالسلطة في أواخر العصر الفاطمي واستعان
بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه ولم يعد للصليبيين بعد مقتله من سند يؤيد
وجودهم داخل مصر، فانسحبوا "عائدين إلى بلادهم بخفي حنين، خائبين مما
أملوه".

أصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلي في البلاد بعد أن
انتهى عهد شاور، فاتخذته الخليفة العاضد الفاطمي وزيراً له ولقبه بالملك
المنصور أمير الجيوش، وقلده جميع أمور الدولة، فجاء في سجل تعيينه
وزيراً . "وقلذك أمير المؤمنين أم وزارته وتدير مملكته، وحياطة ما وراء
سرير خلافته، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة امامته، وكفالة قضاة المسلمين،
وهداية دعاء المؤمنين.." ثم يوصي الخليفة العاضد أسد الدين شيركوه بأمر
العساكر "أحمرهم وأسودهم وأقربهم وأبعدهم، وفارسهم وراجلهم، ورامحهم،
ونابلهم، بتوفير الاقطاع، وأدراار النفقات.. إلخ" وكذلك يوصيه بالرعايا فيقول:
"والرعايا فقد علمت ما نالهم من اجحاف الجبايات، واسراف الجنایات، وتوالى
عليهم من ضروب النكایات فاعمر أوطانهم التي أخرجها الجور والاذى، وانف
عن مواردكم الكدر والقذى، وأحسن حفظ وديعة الله تعالى منهم وخفف
الوطأة ما استطعت عنهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمناً ..".

ومن هذا يبدو واضحاً ما قاساه الشعب المصري من متاعب حقيقية في
السنوات القليلة التي شهدت الصراع العنيف بين قوى الصليبيين وقوى نور

الدين محمود فى سبيل الاستيلاء على مصر، والتى انتهت بهزيمة الصليبيون وانسحابهم وقتل شاور وانتصار أسد الدين شيركوه ثم تولية الوزارة فى مصر.

وقد نجح أسد الدين شيركوه فى الفترة القصيرة التى قضاها فى الوزارة أن يقبض على زمام الأمور فى البلاد، كما وزع الاقطاعات على عساكره، وأعاد أهالى الفسطاط إلى بلدهم، وأوصى أصحابه ألا يتركوا القاهرة، ثم توفى بعد أن ظل فى منصبه ما يقرب من ثلاثة أشهر، فتنازع أمراء نور الدين محمود الذين كانوا بمصر فى طلب الرئاسة والوزارة، لكن العاضد اراد تولية صلاح الدين يوسف بن أيوب لصغر سنه بأمل أن يتمكن الخليفة من السيطرة عليه، ولكن ستظهر الاحداث التالية خيبة ظن الخليفة. وقد جاء فى سجل تولية الخليفة العاضد الوزارة لصلاح الدين ان المبررات التى دعت له لاختيار صلاح الدين مكانته عند عمه شيركوه، وشجاعته الفائقة فى الحروب. ويختتم السجل بالوصية المعتادة، فهو يوصى صلاح الدين بأولياء أمير المؤمنين "وأنصاره الميامين من الامراء المطوقين والاعيان المعصيين والأمائل والأجناد أجمعين" ويقصد بهؤلاء جميعاً امراء الجيش واجناده من المغاربة، أو كما يقول النص فى خطابه لصلاح الدين: "فهم أنصاره غربا كما أن عسكري أنصاره شرقاً". وهذا يوضح الحالة التى كان عليها الجيش فى الدولة الفاطمية، فقد اصبح يتنازع الزعامة فيه عنصران، عنصر المغاربة أولياء الدولة القدامى، وعنصر المشاركة جنود صلاح الدين وأعوانه.

ويوصى السجل صلاح الدين بالرعايا الذين هم: "ودائع الله لأمير المؤمنين ووداعة لديك، فأقبض عنهم الأيدى وابسط بالعدل فيهم يدك".

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفاً غريباً ومزدوجاً، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد بالله الفاطمى الشيعى، وهو فى الوقت

نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السنى، فهو موزع الولاء ومع ذلك كان يتبع فى سياسته أراء الرجلين الحكمة والتؤدة.

على أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية، وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد، ثم إقامة الخطبة للخليفة العباسى، وكان نور الدين مدفوعاً فى هذا بسنيته وكرهه للشيعة، وبرغبته فى اجابة الخليفة العباسى إلى طلبه، فقد كان دائم الالاحاح عليه أن يقيم له الخطبة فى مصر، ولكن صلاح الدين كان أعلم من نور الدين محمود بأحوال مصر. لهذا فقد أثر صلاح الدين التمهّل، وأن يمهد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة، فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين، ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه، وليستعيدوا نفوذهم وسلطانهم المسلوب، وكان صلاح الدين يخشى أن هو أسرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن ينجح هؤلاء فى الثورة عليه، يقول ابن واصل فى كتابه "مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب" : "كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية، وانه لم يبق لهم منعه كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد، ويخطب للخليفة من بنى العباس، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب لخوفه من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك لميلهم إلى العلوية، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل يلزمه به إلزاماً لا فسحه فيه".

وقد بدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره، فابعد هؤلاء القواد عن القاهرة، واستولى على أقطاعاتهم ومنحها لقواده هو ليضمن ولائهم واخلصهم له ثم ارسل إلى نور الدين يستأذنه فى أن يرسل اليه أباء نجم الدين أيوب وأهله، فارسلهم إليه، وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين، فقد كان ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة.

وأخذ صلاح الدين كذلك في تنظيم حركة إنشاء المدارس في مصر، وقد كان الهدف من حركة إنشاء المدارس منذ بدأها السلاجقة وتبعهم فيها الاتابكة، هو محاربة المذهب الشيعي، والدعوة للمذهب السني وتدريسه، وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية التي أنشئت في القسطنطينية لتدريس المذهب الشافعي، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكي، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته فأنشأوا مدارس أخرى كثيرة في مختلف المدن المصرية.

وخطا صلاح الدين خطوة أخرى، فعين صدرالدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضيا للقضاة، فجعل القضاة في سائر الديار المصرية شافعية، ويقول المؤرخ ابن واصل معلقاً على حركة إنشاء المدارس وعلى حركة تحويل القضاة من المذهب الشيعي الاسماعيلي إلى المذهب الشافعي: "فانتهر مذهب الشافعية، واندثر مذهب الاسماعيلية بالكلية، وانمحى أثره ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به".

وليس أبلغ من هذا القول للدلالة على قيمة هذه الخطوات التي كان يخطوها صلاح الدين في حرص وحذر للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسي ونور الدين محمود بقطع الخطبة للعاضد الفاطمي.

على أن صلاح الدين لم يلبث أن لقي معارضة شديدة من قبل بعض الفئات لاسيما قادة الجيش الفاطمي الذين اتخذوا لهم زعيماً من بين طواشيّة القصر، وهو مؤتمن الخلافة وساد السخط بينهم على أساس أن صلاح الدين يعمل على إضعاف مركز الخليفة ويحاول أن ينفرد بالسلطان، وكرهوا أن يخضعوا لسلطان صلاح الدين، وما حدث من القاء القبض على عدد كبير من رجال القصر لم يترك عندهم أي أثر للشك في نوايا الوزير الجديد

صلاح الدين. وكان مؤتمن الخلافة موطن ثقة الخليفة العاضد، ولم يتردد في أن يستتجد بقوة الصليبيون مثلما فعل شاور من قبل.

غير أن صلاح الدين أمر بقتل زعيم الثائرين في اغسطس ١١٦٩م. وترتب على ذلك أن تظاهر عدد كبير من الرعاع والجند عند دار الوزارة بالقاهرة، فبادر صلاح الدين بحشد قواته التي جعل عليها أخاه توران شاه، ووقع بين الترك والسودان معارك دامية في الشوارع، انتهت بهزيمة المتظاهرين ومطاردتهم في شوارع القاهرة، واشعال النيران في الدور التي ينزلها السودان. ثم أوقف صلاح الدين القتل وأخرج من القاهرة عدد كبير منهم، وما تبقى ألزمهم بعدم مغادرة دورهم، وعدم الظهور بشوارع القاهرة. وترتب على القضاء على هذه الفتنة أن هيبة الفاطميون وسلطانهم أخذ في الزوال بسبب سوء تصرف الخليفة، فما لحق السودان من القمع الشديد أودى بقوة الخليفة الفاطمي.

ولما تم لصلاح الدين ذلك، جمع أمراء جيشه ليستشيرهم في امر قطع الخطبة فترددوا كثيراً، وأخيراً تقدم فقيه يدعى الامير الحالم وتطوع أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة. وفي يوم الجمعة الأول من المحرم ٥٦٧هـ (سبتمبر ١١٧١) خطب هذا الرجل، ولم يدع للخليفة العاضد، وإنما دعا للخليفة العباسي المستضي بنور الله، فلم ينكر ذلك أحد عليه، فلما كانت الجمعة التالية، أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسي في مساجد الفسطاط والقاهرة جميعاً وبذلك انتهى آخر خيط في حياة الدولة الفاطمية، أما الخليفة العاضد الفاطمي، فانه كان مريضاً وتوفي بعد ذلك بثلاثة أيام (١٣ سبتمبر ١١٧١) دون أن يعلم بزوال دولته لأن صلاح الدين منع ابلاغه بهذا الأمر.

وما وقع من الحوادث بين سنة ١١٧١ (٥٦٧هـ) منذ سقوط الخلافة الفاطمية، وسنة ١١٧٤ (٥٧٠هـ) وهي السنة التي توفي فيها نور الدين

محمود، حدثت مستقبل صلاح الدين في مصر وعلاقته بالدولة النورية وما تطلع إليه من المضى في توحيد الجبهة الإسلامية ومهاجمة الصليبيين، يضاف لذلك ما تعرضت له مصر في أثناء هذه الفترة من الفتن والمؤامرات التي دأب أنصار الفاطميين على إثارتها.

استطاع صلاح الدين أن يطارد بقايا السودان الذين خرجوا من القاهرة، ولجأوا إلى النوبة فتحالفوا مع النوبيين سنة ١١٧٢ وأغاروا على أطراف مصر الجنوبية، ولم يكن قصد هؤلاء المغيرين سوى النهب أولاً، ثم الانتقام من صلاح الدين لازالته الدولة الفاطمية وشدته في قمعهم وطردهم من مصر، على أن صلاح الدين بفضل جهود أخيه توران شاه شتت شملهم، وأمر بوضع حامية كردية في ابريم.

وفي سنة ١١٧٣ (٥٦٩هـ) جرى تدبير مؤامرة شاملة الغرض منها إعادة الحكم الفاطمي إلى مصر، وتضمنت هذه المؤامرة، التي يعتبر الشاعر عمارة اليمنى من أكبر زعمائها استغلال توزيع قوات صلاح الدين في جهات عديدة، والاتصال بسائر العناصر المناهضة لصلاح الدين في داخل البلاد، والتحالف مع أعدائه خارج البلاد، فضلاً عن الاستعداد لإعلان الخلافة الفاطمية في مصر من جديد.

وتفصيل هذه المؤامرة أن الشاعر عمارة اليمنى، الذي أمضى شطراً كبيراً من حياته في القصر الفاطمي، وعاش على سخاء وكرم الوزراء الفاطميين، حاول أن يتقرب إلى السادة الجدد (الايوبيون) لاسيما توران شاه فحرضه على فتح بلاد اليمن لابعاده عن مسرح الأحداث التالية لما اشتهر به من العنف والشدة. ووافق ذلك هوى عند توران شاه لاسيما أن صلاح الدين منذ أن استقر بمصر ظل هو وأهله خائفين من نور الدين أن يدخل مصر وينتزعها منهم، فرأوا أن يقيموا لهم مملكة يلجأون إليها، ووجدوا ما يبرر ذلك

عند نور الدين من حيث التحريض على اقامة الخطبة العباسية ببلاد اليمن. واستجد المتآمرون بالصليبيين في الشام، والنورمان في صقلية، وكتبوا إلى زعيم الحشيشية بالشام يطلبون إليه أن يرسل من يقاتل صلاح الدين. وانطوت خطتهم على أن انصليبيين اذا قصدوا مصر، وخرج إليهم صلاح الدين أعلنوا الثورة بالقاهرة، وأعادوا الخلافة الفاطمية، وانحاز إليهم من مالأهم من عسكره، فلا يستطيع صلاح الدين الصمود للصليبيين، أما اذا بقى صلاح الدين بالقاهرة وأرسل عساكره لمواجهة الصليبيين، ففي استطاعتهم أن يقبضوا عليه، لأنه ليس لديه من العساكر ما يحميه، وعلم صلاح الدين بتفاصيل المؤامرة، عن طريق الفقيه الواعظ زين الدين على ابن نجا الذي اشركه معهم المتآمرون واطلعوه على سرهم، فقام باطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولاً فاول. وقد تمكن صلاح الدين حين تأكد من قيام هذه المؤامرة بالفعل، من القبض على زعماء المؤامرة وجرى الاحتياط على أفراد الاسرة الفاطمية، ثم أمر بصلب عمارة وباقي المتآمرين، وصادر أموال الفاطميين وأرسل جانباً كبيراً منها إلى نور الدين محمود ليستعين بها على الجهاد.

أما عموري الأول ملك بيت المقدس، فلم يكذ يعلم باتكشاف سر المؤامرة في القاهرة، وفشل الخطة الموضوعة لغزو مصر، حتى توفي في بيت المقدس وسط جو من خيبة الأمل (١١ يوليه ١١٧٤). ولم يلبث أن أرسل النورمان بصقلية اسطولهم الذي وصل إلى ميناء مدينة الاسكندرية في أواخر يوليو ١١٧٤.

وقد تمكن هذا الاسطول من انزال بعض قواته على الشاطئ كما استطاع تدمير بعض السفن التجارية الراسية في ميناء الاسكندرية، وقد حاول النورمان اقتحام الاسكندرية وشدوا هجماتهم عليها، ولكن الاهالي ثبتوا لهم ثبوتاً عظيماً واحرقوا بعض سفنهم في الوقت الذي وصل إلى الاسكندرية

صلاح الدين بجيشه فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم وانزل بهم الهزيمة، فاضطر النورمان إلى مغادرة ميناء الاسكندرية والعودة إلى بلادهم خائبين خاسرين.

محاولة صلاح الدين الاستقلال بمصر:

من الواضح أن صلاح الدين بعد أن تم له انزال الهزائم المتتالية بالمتأمرين لاعادة الخلافة الفاطمية، لم يعد يفكر في أية أخطار تتجم عن اعادة الدولة الفاطمية وانما اشتد قلقه من تصرفات نور الدين محمود، ذلك أن نور الدين أراد أن يحكم قبضته على مصر، فارسل إليها في عام ١١٧٣م. موفق الدين خالد القيسراني متولى ديوان الاستيفاء يطلب منه أوراقا بخراج مصر، بعد أن حاول صلاح الدين الاعتذار عن عدم التعاون الحربى معه ضد الصليبيين، لما تعرضت له مصر من اخطار خارجية، وما جرى بها من تدبير المؤامرات مما يتطلب منه الالتفات والاهتمام، والواقع أن السبب في امتناع صلاح الدين عن التعاون مع نور الدين، ما لمسه صلاح الدين من حرص نور الدين على انتزاع مصر منه، والاستعداد لغزوها، فعلى الرغم من أن صلاح الدين وافراد أسرته أعلنوا ولاءهم لنور الدين، وارسلوا له بالهدايا، فان نور الدين انتهز فرصة اعتراف الخليفة العباسى به سلطانا على مصر، فارسل القيسراني ليتحقق من أحوال البلاد، ويتحرى بالتفصيل المركز المالى بها، ويحدد ما ينبغى أن تدفعه مصر من الجزية كل سنة لنور الدين، ومن الواضح أن نور الدين طلب إلى وزيره أن يتعرف إلى نوايا صلاح الدين وميوله.

واستطاع صلاح الدين أن يقنع القيسراني بحسن تصرفه، وأخذ في جمع الاموال التى سوف يرسلها إلى نور الدين، وجعل للقيسراني من الاموال ما لم يكن يتوقعه وحمله من الهدايا ما تفوق فى الفخامة والابهة ما سبق أن

بعث به. وقد خرج القيسراني من مصر محملاً بكل هذا في طريقه إلى نور الدين محمود بالشام، ولكنه علم وهو في الطريق بوفاة نور الدين محمود في ١٥ مايو ١١٧٤م.

وهكذا انقذت الاقدار صلاح الدين من محاولات نور الدين المستمرة لاحكام قبضته على مصر وابعاد صلاح الدين عنها. وما وقع من الأحداث بعد وفاة نور الدين جعل صلاح الدين يقترب من تحقيق الهدف الذي سعى إليه دائماً وهو الاستقلال بمصر والابتعاد بها عن سلطة البيت الزنكي. فقد خلف نور الدين على الحكم ابنه الصالح اسماعيل، الذي كان طفلاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وادرك صلاح الدين انه قد حان الوقت للانفراد بحكم مصر. ولم يمانع صلاح الدين في بادئ الأمر من ان يذكر اسم هذا الامير الصغير في خطبة الجمعة وان يسك النقود باسمه. كما انه ادرك أن عليه أن يقوم بعمل خطير، وهو الاستيلاء على دمشق من أجل توحيد الجبهة الاسلامية وتطوير الصليبيين. على أن تحقيق هذا الهدف كان يتوقف على موقفه من الصالح اسماعيل.

وقد التزم صلاح الدين طريق الحكمة والروية حتى يحقق غرضه، كما أنه حرص على أن يسير في ذلك على مراحل وخطوات. ذلك أن الصالح اسماعيل قد انتقل من دمشق للاقامة بحلب، وقد اتاح ذلك لصلاح الدين دخول دمشق في اكتوبر ١١٧٤م. وقد أبطل صلاح الدين كل المكوس التي جرى استحداثها بعد نور الدين في دمشق، ثم أعلن أنه لم يقدم إلا ليقوم على تربية الصالح اسماعيل، وأنه لم يقصد إلا أن يتولى شئون المملكة باسم الامير الزنكي. غير أن ما حدث من سيطرة بعض أمراء نور الدين على الصالح اسماعيل وشدة حنقهم على صلاح الدين، والاستتجاد بقوات الموصل، والتماس المساعدة من الصليبيين، جعل صلاح الدين يتخذ من الاساليب والوسائل ما يبطل هذه الدسائس، ويوقف مساعدة الصليبيين ويحقق غرضه

وقد لجأ صلاح الدين إلى استمالة بعض الامراء النوريين وبذل الاقطاعات لهم وتعيينهم فى وظائف رئيسية بالشام. كذلك فإنه حرص على اقامة العلاقات الطيبة مع الخليفة العباسى، يدل على ذلك ما تردد فى رسائله إلى الخليفة المستضى من الاشارة إلى جهوده فى القضاء على الدولة الفاطمية واعادة المذهب السنى بمصر واليمن وإلى حرصه على جهاد الصليبيين وتوحيد كلمة المسلمين، وأظهر ما لجأ إليه خصومه من الاستعانة بالصليبيين والباطنيين اعداء الاسلام.

وقد أحرز صلاح الدين فى ١٣ ابريل ١١٧٥ انتصارا حاسما على جيوش الصالح اسماعيل قرب حماه. وترتب على ذلك أن أمر صلاح الدين بقطع الخطبة باسم الصالح اسماعيل، وتقرر عقد صلح بينهما فى يوليه ١١٧٦، اعترف فيه الامير الزنكى لصلاح الدين بكل ما استولى عليه من البلاد، وما هو جار تحت حكمه من جنوب الشام إلى حماة، وتعهد صلاح الدين بمساعدة الصالح اذا هاجمه عدو، ولم يسع الخليفة العباسى إلا أن يمنح صلاح الدين تقليدا بالسلطنة ببلاد مصر والشام.

وهكذا تم لصلاح الدين ما أراد وما عمل من أجله سنين طويلة، وقد ساعدته الأقدار بوفاء نور الدين محمود فى تلك الآونة مما كان له أبعد الأثر فى تمكين صلاح الدين من تحقيق اهدافه والاستقلال بمصر وما تحت يديه من بلاد، هذا الأمر الذى كان من العسير بل المستحيل أن يحققه صلاح الدين فى حياة نور الدين محمود.

الفصل الرابع

نصر حطين

تجدر الإشارة إلى أن صلاح الدين لم يغفل أمر الصليبيين أثناء انصرافه إلى معالجة موقفه مع نور الدين وابنه الصالح اسماعيل، على أن ما قام به صلاح الدين من اجراءات ضد الصليبيين يصح تقسيمها إلى مرحلتين متميزتين.

ففي المرحلة الأولى لم يفكر السلطان صلاح الدين في القيام بعمليات حربية واسعة النطاق مثل المرحلة الثانية التي بدأها بعد توحيد مصر والشام. فحملاته الأولى وجهها إلى ارض الصليبيين المحصورة بين الأراضي الاسلامية والتي تعترض طريق المواصلات بين مصر والشام. وما وقع بين صلاح الدين والصليبيين من اشتباكات حتى سنة ١١٨٠ وما تخلل هذه الفترة بين ١١٧٤-١١٨٠م. من مهادنة لم تؤد إلى تغيير في الأوضاع الاقليمية، غير أن صلاح الدين أفاد من هذه الحروب في أمور عديدة، فبالاضافة إلى ما أحرزه من انتصارات على الجيوش الصليبية في مواضع عديدة، وتدمير ما أقاموه من حصون لاسيما حصن بيت الاحزان بين دمشق وطبرية، وما ترتب على ذلك من وقوع اسرى عديدين في يده، ورد الاسطول الصليبي الذي قدم من صقلية وهاجم الاسكندرية، فانه عمد إلى تجديد استحکامات دمشق، وتهيأت له الفرصة بعقد هدنة عام ١١٨٠ بينه وبين الصليبيين لأن يواصل تقوية الاستحكامات. فمن ذلك تقوية الجسر المؤلف من السفن والذي يصل بين البرجين اللذين يتحكما في دمياط، وتشيد قلعة في تيس، وعمارة الاستحكامات في الاسكندرية، وتلى ذلك قيامه بتفقد هذه المنشآت الحربية، يضاف لذلك اهتمامه بالاسطول والبحرية فأفرد له ديوانا خاصا به.

وقد توجت جهود صلاح الدين ضد الصليبيين بانتصار حطين، أما العوامل التي مهدت لهذه المعركة التاريخية الهامة فقد كانت ترجع في المقام الأول إلى تصرفات أحد الفرسان الصليبيين المعروف بالطيش والتهور والذي

أطلق عليه المؤرخون الغربيون انفسهم اسم (الفارس اللص) وهذا الفارس هو رينودى شاتيون الذى عرف لدى المؤرخين اناسلمين باسم (ارناط).

وقد لعب رينودى دوراً بارزاً فى الصراع بين الصليبيين وصلاح الدين وجر بتصرفاته الطائشة على الصليبيين الكثير من المتاعب التى كانوا فى غنى عنها. وكان رينودى قد تزوج من وريثه صاحب الاردن وتدعى انتيت دى ميلى طمعا فى اقطاعها الذى ورثته عن ابيها وهو الاردن وحصنى الكرك والشوبك، وقد امتاز هذان الحصنان بموقعهما الهام على طريق القوافل الذاهبة إلى الاراضى الحجازية، وفى نفس الوقت القوافل المتنقلة بين شطرى مملكة صلاح الدين فى مصر والشام. وكان رينودى بطبيعة الحال يجنى ثروات طائلة من المكوس التى يفرضها على القوافل التى تعبر بحصنيه، ولكن هذا الفارس لم يفتح بذلك وانما أعماه الجشع المادى عن ادراك خطورة تصرفاته الهوجاء على الصليبيين جميعاً خصوصاً فى وقت كانت فيه شخصية مثل شخصية صلاح الدين الايوبى هى التى تحكم مصر والشام، وتواجه الصليبيين.

وكانت بداية الاحتكاك بين رينودى وصلاح الدين فى عام ١١٨١، اذ تناسى رينودى أمر الهدنة المعقودة بين صلاح الدين والصليبيين فى عام ١١٨٠، والتى سبقت الإشارة إليها، وخرج على رأس قوة من رجاله وتوجه إلى صحراء العرب حيث أوغل فيها حتى وصل إلى واحة تيماء، وهى واحة لها أهميتها لوقوعها فى منتصف الطريق بين الاردن والمدينة المنورة، وقد وصفها صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة العباسى بانها (دهليز المدينة). وكان هدف رينودى شاتيون من تصرفه هذا أن يصل حتى المدينة المنورة حيث يقوم بتخريب الاماكن المقدسة بها. لكن صلاح الدين أصدر أوامره إلى نائبه فى دمشق وهو ابن اخيه ويدعى فرح شاه بالاغارة على الاردن حتى يجبر رينودى على العودة دون اتمام مشروعه. وقد كان فعاد رينودى إلى امارته

للدفاع عنها ضد هجمات المسلمين، بعد أن نهب قافلة اسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة المكرمة وسلب جميع ما بها من نفائس.

وقد ازعج تصرف ارناط هذا المسلمين والصليبيين على حد سواء، فقد انزعج الصليبيون لأن هذه الغارة التي قام بها رينو قد عكرت صفو السلام القائم بينهم وبين صلاح الدين، وأما المسلمون فقد انزعجوا أشد الانزعاج لتطاول هذا الصليبي ومحاولته المساس بالاماكن المقدسة التي يتجهون إليها بقلوبهم، وهو التصرف الذي لم يجرؤ أحد من الصليبيين قبله أن يفعله. لذلك فقد أرسل صلاح الدين إلى ملك بيت المقدس بلدوين الرابع يطلب منه أن يجبر رينو على رد ما سلبه من أموال القافلة وإطلاق سراح من أسره من رجالها، وقد طلب بلدوين من رينو تحقيق كل ما طلبه صلاح الدين، ولكن رينو رفض تنفيذ كل ما طلبه الملك بلدوين.

وقد رد صلاح الدين على هذا العمل بأن أسر نحو ألفين وخمسمائة مسيحي كانوا في طريقهم لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين ولكن شاءت الظروف أن يتعرضوا لعاصفة طاحت بسفنهم على شاطئ دمياط، وأعلن صلاح الدين أنه لن يفرج عن هؤلاء الحجاج إلا بعد أن يفرج رينو عن الأسرى المسلمين وأموالهم.

وفي مايو ١١٨٢. غادر صلاح الدين مصر إلى الشام وكانت هذه آخر مرة يرى فيها صلاح الدين وجه مصر، إذ ظل بالشام يناضل الصليبيين حتى أدركه الموت.

ولم يلبث رينو دي شاتيون أن قام بتصرف طائش آخر، بمحاولته الثانية تخريب الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكان رينو يهدف

من وراء ذلك إلى طعن العالم الاسلامى فى قلبه، أما الهدف الثانى فكان السيطرة على البحر الاحمر واحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندى.

وقد قام ارناط بالاستيلاء على ايلة ذلك المركز الهام والتي تقع على خليج العقبة، ثم استولى على جزيرة القلعة المواجهة لها فى خليج العقبة أيضاً. وقام رينو بغارة بحرية على السواحل المصرية الواقعة على البحر الاحمر، ثم سار بسفنه حتى وصل إلى ميناء عيذاب فى مواجهة جدة، وقد نهب رينو بعض السفن التجارية الواقعة من جدة واليمن وعدن والهند.

وقد بلغ من جرأة رينو واعوانه انهم انتقلوا بعد ذلك إلى شاطئ البحر الحجاز، حيث تركوا سفنهم واستعانوا ببعض الخونة من البدو الذين دخلوا على داخلية البلاد فتوغلوا فيها حتى اصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة. ولم يسكت المسلمون على هذا التهديد السافر للامكنة المقدسة بالحجاز، فخرج حسام الدين لؤلؤ قائد الاسطول المصرى على رأس قوة بحرية، أغارت على ايلة حيث وجدوا بعض السفن الصليبية فاحرقوها وأسروا من فيها، ثم تعقبوا السفن الصليبية عند عيذاب فساحل الحجاز، ثم وجدوا السفن الصليبية راسية أمام ساحل الحوراء، فهاجمها حسام الدين ودمرها وفك أسر التجار المسلمين الذين سبق أن أسره الصليبيون وقد كان حسام الدين بقواته على الساحل وأخذ فى مطاردة الصليبيين بين الجبال، ثم له أسره جميعاً فيما عدا رينو الذى نجح فى الفرار وقد نذر صلاح الدين دمه وأقسم ألا يغفر له فعلته هذه.

أما الاسرى الصليبيين فقد أرسل بعضهم إلى منى وكان موسم الحج أرف فذبخوا كما تذبح الشاه عقاباً لهم على فعلتهم هذه، أما باقى الاسرى عاد بهم حسام الدين لؤلؤ إلى مصر حيث تم تشهيرهم بشوارع القاهرة والاسكندرية.

ولم يلبث رينو دي شاتيون أن طلب الصفح والأمان من صلاح الدين فتم عقد هدنة بين صلاح الدين من جهة والصليبيون ورينو من جهة أخرى. وبناء على هذه الهدنة أخذت قوافل الحجاج والتجارة تغدوا وتروح بين البلاد الإسلامية مارة بصحراء الأردن. ومما لا شك فيه أن رينو قد كسب من وراء ذلك الكثير نتيجة للمكوس التي كان يفرضها على هذه القوافل. على أنه لم يفتن بكل ذلك وإنما عاوده الحنين إلى أعمال اللصوصية والقرصنة. وكان أن انقض بكل الغدر والخيانة على قافلة تحمل بضائع ثمينة كانت في طريقها من حمّة إلى دمشق في أوائل عام ١١٨٧. وقد استولى رينو على كل ما تحمله قافلة من أشياء نفيسة وأسر رجالها عن آخرهم في حصن الكرك حيث أساء معاملتهم إلى حد كبير. ولم يكتف بذلك وإنما أصر على غيّه ورفض ما طلبه صلاح الدين من فك أسر الرجال وإعادة الأموال والبضائع إليهم، وكان رده يتسم بسوء الخلق والأصرار على استنزاف صلاح الدين والمسلمين حيث رد على صلاح الدين قائلاً: "قولوا لمحمد يخلصكم".

وقد بلغ الضيق بصلاح الدين أشده، ولكنه تمالك نفسه وأرسل إلى ملك بيت المقدس جاي لوز جنان طالبا منه أن يرغم رينو على رد الأسرى والبضائع، ولكن الملك جاي لم ينجح في مهمته إذ أن رينو كان يشعر بأنه صاحب فضل عليه لمساعدته في الوصول إلى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية عقب وفاة الملك الطفل بلدوين الخامس في ١١٨٦. فما كان من الملك جاي إلا أن أخبر صلاح الدين بعجزه عن إرغام رينو على رد الأسرى والغنائم. وهكذا لم يعد هناك مجال أمام صلاح الدين إلا إعلان الحرب على الصليبيين فأخذ في تعبئة قواه تعبئة شاملة وخرج من دمشق على رأس جيش كبير متجها نحو الجنوب حيث هاجم حصن الكرك وخرب حوله وكذلك فعل بحصن الشوبك وهكذا أصبح رينو دي شاتيون محصوراً داخل حصن الكرك في الوقت الذي كان صلاح الدين يتمنع بحرية الحركة. وقد رغب صلاح الدين في إبريل ١١٨٧ في إرسال قوة استكشافية لتقوم بالاغارة على إقليم

عكا، ولما كانت هذه القوة في باتياس فقد كان عليها لكي تصل إلى عكا. ثم باقليم الجليل الذي يخضع لريموند أمير طرابلس والذي كان في حالة تحالف مع صلاح الدين. وهنا وجد ريموند نفسه في موقف حرج، فهو إذا لم يجب طلب صلاح الدين تعرض لافساد العلاقات معه، وإذا وافق فلا شك أن ذلك سيغضب الصليبيين، ولم يجد ريموند مفرأ من السماح لهذه القوة بالعبور خلال إقليم الجليل ولكنه في نفس الوقت اعطى تعليماته إلى مدن هذا الإقليم مثل الناصرة وطبرية باغلاق ابوابها حتى لا يستولى عليها المسلمون.

على أن هذا العبور لم يمر بسلام، وذلك بسبب مقدم الداوية جيران دى ريد فورت الذى كان معروفا عنه وعن فئته التعصب الشديد ضد المسلمين. فحين علم بمرور هذه القوات خلال إقليم الجليل جمع بضع مئات من الصليبيين وتصدى للمسلمين بالقرب من صفورية، وقد دارت معركة عنيفة بين الطرفين في مايو ١١٨٧ أسفرت عن انتصار ساحق للمسلمين الذين قتلوا القوة الصليبية عن آخرها باستثناء بضعة أشخاص نجحوا في الإفلات من القتل، وبعد المعركة وصلت قوة أخرى من الصليبيين تمكن المسلمون من أسرها، وعادوا سالمين وهم يحملون رؤوس القتلى على أسنة حراهم.

وقد حمل الصليبيون ريموند أمير طرابلس مسؤولية هذه الكارثة التي حاقت بهم فلم يجد بدا من نقضه تحالفه مع صلاح الدين والعودة إلى التعاون مع بنى جلادته الصليبيين. فما كان من صلاح الدين إلا أن رد على تصرف ريموند بالهجوم على مدينة طبرية التابعة لزوجته أشيفا وكان ذلك في أوائل يوليو ١١٨٧، وقد اقتحم المسلمون المدينة واحرقوها ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على قلعتها التي احتمت بداخلها أشيفا.

وقد اجتمع الصليبيون في صفورية بالقرب من عكا، وأخذوا في حشد جيوشهم، ثم عقدوا اجتماعا للحرب في عكا وطلب بعضهم مثل رينو دى

شائون ومقدم الداوية وغيرهم من المتطرفين، ضرورة الاشتباك مع صلاح الدين وتخليص طبرية من ايدى المسلمين، ومن الغريب أن ريموند أمير طرابلس وهو صاحب طبرية لم يؤيد مبدأ الاشتباك مع المسلمين وألقى فى الصليبيين خطبة أعلن فيها رأيه هذا فقال: (إن طبرية لى ولزوجتى، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقي القلعة وفيها زوجتى، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتى وما لنا بها ويعود، فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة، وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقتها وعاد عنها اخذناها وان أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ولا يقدر على الصبر طول الزمان عن اوطانهم واهليهم فيضطر إلى تركها ونفثك من أسر منا. فقال له برنس ارنات صاحب الكرك قد أطلت فى التخويف من المسلمين ولا شك أنك تريد تميل إليهم وإلا ما كنت تقول هذا، وأما قولك انهم كثيرون فان النار لا يضيرها كثرة الحطب. فقال: انا واحد منكم ان تقدمتم تقدمت وان تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون)^(١). وقد استطاع رينو ومن على شاكلته من الصليبيين التأثير على ملك بيت المقدس الضعيف الشخصية جاي لوز جنان، وانتهى الرأى وتم الاتفاق على أن يسير الصليبيون من صغورية حتى طبرية لقتال صلاح الدين وتخليصها من يديه.

وقد سر صلاح الدين سروراً عظيماً حين علم بخطة الصليبيين هذه وعزمهم على المسير إليه، وقال (جاءنا ما نريد)، ويفهم من ذلك أن صلاح الدين كان يريد أن يسير إليه الصليبيين حتى تنهك قواهم من حرارة الجو ووعورة الطريق وطول الرحلة الذى بلغ ١٦ ميلاً وقد كان، اذ سار الصليبيون فى اتجاه طبرية، ولكن صلاح الدين ترك طبرية وتقدم حوالى خمسة أميال حتى وصل إلى قرية حطين التى تمتاز بوفرة الماء وكثرة

^(١) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٥٨٢ هـ .

المرعى. وفى يوم ٣ يوليو ١١٨٧م. وصل الصليبيون إلى سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين وهو عبارة عن هضبة ترتفع عن سطح البحر بحوالى ثلثمائة متر، ولها قمتان اطلق المسلمون عليهما اسم قرون حطين. وقد وصل الصليبيون إلى هذا الموقع وهم فى غاية الارهاق والتعب، كما اشتد بهم العطش أيضاً وقد نصبوا معسكرهم فوق هذه الهضبة، وكان فى اسفل الهضبة تقع بحيرة طبرية، وقد حاول بعضهم الوصول إلى ماء البحيرة لاطفاء نار ظمأهم، ولكن حال المسلمون بينهم وبين الوصول إليه، وقد قضى المسلمون ليلتهم وهم يهللون ويكبرون (الله اكبر)، كما استغلوا ستار الليل واحاطوا بالهضبة التى عسكر الصليبيون فوقها احاطة الدائرة بقطرها. وفى صباح ٤ يوليو ١١٨٧م. كان اليوم شديد الحرارة، كما ان المسلمين اشعلوا النيران فى الحشائش الموجودة باسفل الهضبة وكان الهواء على الصليبيين، فعمل إليهم حر النار والدخان، فاجتمع عليهم كما يقول ابن الاثير "العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال" (١).

وهكذا اصبح الموقف شديد الصعوبة بالنسبة للصليبيين، الذين انهكهم العطش واشتد عليهم الحر، وأخذ المسلمون يتسلقون الهضبة وهم يقاتلون قتال الابطال، والصليبيون يتراجعون امامهم نحو قمتى الهضبة وقد نجح ريموند أمير طرابلس فى الفرار من المعركة فكان الوحيد من زعماء الصليبيين الذى نجا، أما باقى الصليبيين فوقعوا ما بين قتيل وأسير حتى لم يبق إلا الملك جاي لوز جنان ومعه رينو دى شاتيون ومائة وخمسون من رجاله. وقد تم اسرهم جميعاً وبلغ من كثرة القتلى والاسرى ان قال المؤرخ ابن الاثير "وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك اسرى، ومن يرى الاسرى يحسب ان ليس هناك قتلى" (٢) وقد سيق الاسرى إلى معسكر المسلمين واستقبل صلاح الدين

(١) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٥٨٢هـ.

(٢) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٢هـ.

فى خيمته الملك جاى لوز جنان ورينو دى شاتيون وكان الملك جاى يعانى من العطش فقدم له صلاح الدين اناء به ماء مثلج ليروى ظمأه، وبعد أن ارتوى الملك قدم ما بقى من الماء لرينو دى شاتيون، ولكن صلاح الدين غضب لذلك وقال للملك جاى "ان هذا الملعون لم يشرب الماء بأذننى ليناله امانى" وأخذ يؤنب رينو على تصرفاته الطائشة ضد المسلمين وقال له: "كم تحلف وتتكث؟" فرد عليه رينو بوقاحتة المعهودة: "هكذا جرت عادة الملوك" وقد ضايق رده هذا صلاح الدين لدرجة أنه تناول سيفه واطاح برقبته، فذعر الملك جاى وتوجس خيفه من قتله هو الآخر على هذا النحو ولكن صلاح الدين هدأ من روعه وقال له: "لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك أما هذا فقد تجاوز حده ولذلك جرى عليه ما جرى".

ولقد أكرم صلاح الدين الاسرى وعلى رأسهم الملك جاى وعامله معاملة طيبة للغاية وقد بلغ من كثرة الاسرى انهم كانوا يباعون بالجملة أى تباع الأسرة المكونة من الأب والأم والأبناء والبنات بيعة واحده وبالسعر البخس.

صلاح الدين وانهيار مملكة بيت المقدس الصليبية:

لقد فتح نصر حطين الطريق إلى بقية الممتلكات الصليبية بالشام وفلسطين، بعد أن أصبحت البلاد الواقعة تحت سيطرة الصليبيين وليس بها من يحميها بعد ان سقط فرسان المملكة الصليبية ما بين اسير وقتل اثناء معركة حطين. وكان من المنتظر ان يتجه صلاح الدين بعد حطين مباشرة إلى بيت المقدس لفتحها، ولكن تجلت عبقرية صلاح الدين وبعد نظره فى تأجيله فتح بيت المقدس والبدا بفتح البلاد الساحلية ليقطع بذلك الشريان الذى يمد الصليبيين بداخل الشام وفلسطين بالمساعدات العسكرية الآتية من الغرب الاوروبى وبذلك يعزل هذه البلاد الداخلية عن الاستفادة بأية معونة حربية يرسلها الغرب الاوروبى فيسهل بذلك فتحها.

هذا فضلا عن ان استيلاء صلاح الدين على موانئ الشام سيمنحه من تحقيق الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته فى مصر والشام.

وقد تعاونت البحرية المصرية مع الجيوش الشامية على استرداد عكا وقيسارية وببيروت وجبيل وعسقلان وغيرهم من الثغور الساحلية، ولم يستعصى على صلاح الدين سوى مدينة صور التى كانت كما يصفها العماد الاصفهاني: "محاطة بالبحر من معظم نواحيها كأنها سفينة". واضطر صلاح الدين إلى استدعاء الاسطول المصرى المرابط فى عكا ليقوم بمحاصرة صور من جهة البحر بينما حاصرها هو بجيوشه من ناحية البر.

والواقع ان من العوامل الهامة التى ساعدت صور على الصمود فى وجه صلاح الدين وجيوشه واسطوله، وصول كونراد دى مونتفرات الذى يصفه المؤرخ المسلم ابن شداد بقوله أنه: "كان رجلا عظيما ذا رأى وبأس فى دينه، وصرامة عظيمة"، وكونراد هذا هو ابن وليم دى مونتفرات الذى قاتل إلى جانب الصليبيين فى معركة حطين ووقع أسيرا فى يد صلاح الدين، وهو شقيق بونيفيس دى مونتفرات الذى لعب دورا هاما فى الحملة الصليبية الرابعة، حيث أنه كان قائد هذه الحملة التى انحرفت واتجهت ضد القسطنطينية فى ١٢٠٤ حيث اسقطت الحكم البيزنطى واقامت مملكة لاتينية بها. وكان كونراد قد جاء من الغرب الاوروبى ونزل بالقسطنطينية حيث ساعد فى القضاء على التأثير البيزنطى براناس فى عام ١١٨٦، وهزم براناس وارسل رأسه للامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس وتزوج من ثيودورا شقيقة الامبراطور اسحاق، ثم ترك الاراضى البيزنطية واتجه إلى الشام حيث وصل إلى عكا بعد معركة حطين ووقوع عكا فى يد المسلمين، الذين لم يتعرضوا لكونراد بسوء وتركوه يغادر عكا فى أمان، فاتجه إلى مدينة صور، والتف حوله الاهالى بها حيث أخذ كونراد ينظم صفوف المقاومة فى صور

ضد المسلمين، وكان قد اجتمع بصور اعداد كبيرة من الصليبيين، الذين فتح صلاح الدين بلادهم فلم يجدوا امامهم مأوى يأويهم إلا صور فتجمعوا بها، وقد أخذ كونراد في تقوية روحهم المعنوية وحثهم على الصمود والدفاع عن دينتهم. وهكذا صمدت صور في وجه صلاح الدين الذي حاصرها برا وبحرا.

وقد حدثت معركة بحرية بين المراكب الحربية الصليبية الموجودة داخل ميناء صور وبين مراكب الاسطول المصري، ونجح المصريون في تشتيت مراكب العدو وابعادها وضرب حصار قوى حول ميناء صور. وكان من المنتظر ان تسقط المدينة سريعا بعد هذا الانتصار الذي احرزه المسلمون، ولكن الذي حدث ان رجال الاسطول المصري امام صور احتفلوا بانتصارهم، وسهروا تلك الليلة إلى السحر، ثم غلبهم النعاس فناموا، وقد انتهز الصليبيون هذه الفرصة واغاروا على الاسطول المصري وأسروا خمس سفن من سفنه، وأسروا قائد هذه السفن ويدعى عبد السلام المغربي، وألقى البحارة المسلمين بأنفسهم في البحر فغرق منهم من غرق ونجا من نجا. واضطر صلاح الدين ازاء هذا الموقف ان يصدر أوامره إلى رؤساء المراكب الباقية ان يرفعوا الحصار عن صور.

ومما لا شك فيه ان هذه الهزيمة التي منى بها الاسطول المصري في مياه صور قد رفعت من روح الصليبيين المعنوية بداخل المدينة، فصاروا يخرجون منها من حين لآخر ويغيرون على جيوش المسلمين المحاصرة للمدينة مما اضطر صلاح الدين آخر الأمر إلى رفع الحصار عن صور والاتسحاب جنوبا إلى عكا، وترك أمر صور لكي يعود إليها في وقت آخر.

وهكذا لم يبق امام صلاح الدين فى داخل فلسطين سوى المدينة الهامة بيت المقدس عاصمة مملكة بيت المقدس الصليبية ولنرى كيف تم لصلاح الدين فتحها.

كان باليان دى ابلين من الفرسان الصليبيين الذين تم أسرهم أثناء معركة حطين، وكان باليان متزوجا من ملكة بيت المقدس السابقة ماريّا كومنين ارملة الملك عمورى الأول، وهى سيدة بيزنطية من عائلة كومنين الشهيرة، وقد توسل باليان لصلاح الدين طالبا منه السماح له بالذهاب إلى بيت المقدس لأخذ زوجته وابنائهم ومغادرة المدينة على الفور، وكعادة صلاح الدين وتسامحه وكرم اخلاقه، سمح له بذلك بعد أن أقسم لصلاح الدين ألا يبيت داخل بيت المقدس أكثر من ليلة واحدة على أن باليان لم يلبث بعد وصوله إلى بيت المقدس ان نكث بوعده وقسمه لصلاح الدين، وترغم حركة المقاومة ضد المسلمين، وذلك انه وجد المدينة فى حال يرثى لها بعد أن فقدت ملكها وفرسانها، وقد بلغ من نقص الرجال بها أنه كان هناك رجل واحد مقابل كل خمسين امرأة وطفل، وقد توسل أهالى بيت المقدس لباليان أن يبقى معهم ويتولى الدفاع عن المدينة ضد المسلمين، فوافق باليان واتخذ اجراءات سريعة لتقوية الدفاع عن المدينة ولكن كل اجراءاته كانت ليست ذات قيمة بعد أن انعدم عنصر الفرسان المدربين.

وقد استقبل صلاح الدين قبل وصوله إلى بيت المقدس وفد من المدينة ذاتها فعرض عليهم ان يسلموا المدينة مقابل تأمينهم على ارواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، ويسمح لمن شاء منهم الخروج من المدينة سالما. وهى نفس الشروط التى فتح بها صلاح الدين جميع بلاد مملكة بيت المقدس الصليبية، غير أن الوفد رفض مطالب صلاح الدين وأوضحوا: "أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس". عند ذلك أقسم صلاح الدين على أن يفتح بيت المقدس بحد السيف، فنزل على المدينة محاصرا لها

وقد طُف بالمدينة خمسة أيام يتحسس موضع الضعف فيها، حتى استقر رأيه أخيراً على تركيز الهجوم على الجانب الشمالى منها، وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ بدأ هجوم صلاح الدين عند باب صهيون، فحمل المسلمون (حملة رجل واحد) حتى وصلوا إلى سور المدينة ونقبوه.

ومن الامور الغريبة ان الملكة ماريّا كومنين زوجة باليان دى ابلىن الذى نكث بوعدده لصلاح الدين والذي تزعم حركة المقاومة ضده داخل بيت المقدس، طلبت من صلاح الدين ان يسمح لها بمغادرة المدينة (بيت المقدس) هي وابنائها، وقد سمح لها صلاح الدين بما طلبت، بل أكثر من ذلك، أمر بحراستها من بيت المقدس حتى طرابلس، كما سمح لغيرها من النساء والاطفال الذين رغبوا فى مغادرة بيت المقدس ان يخرجوا من المدينة آمنين.

وقد عرض صلاح الدين للمرة الثانية على أهالى المدينة الخروج بنفس الشروط التى سبق أن عرضها عليهم، ولكنهم رفضوا.

وعندما أدرك باليان استحالة التغلب على جيوش صلاح الدين المحاصرة لبيت المقدس قرر الاستسلام، فأرسل وفداً لمقابلة صلاح الدين وعرضوا عليه تسليم المدينة على نفس الشروط التى سبق أن عرضها عليهم، ولكن صلاح الدين أبى فى تلك المرة أن يوافق على طلبهم وأصر على أن يواصل حصاره للمدينة حتى يفتحها بحد السيف، وقال لرسل الصليبيين: "لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله، حين ملكتموه سنة احدى وتسعين واربعمئة (١٠٩٩م) واجزى السيئة بمثلها".

وقد خرج باليان بنفسه لمفاوضة صلاح الدين فى شروط الاستسلام، ولكنه وجد اصراراً من صلاح الدين على فتح بيت المقدس بحد السيف عند ذلك لجأ باليان للتهديد فقال لصلاح الدين: "إذا رأينا الموت لابد منه فوالله

لنقتل ابناءنا ونساءنا ونحرق ما نملكه من أموالنا وامتعتنا، ولا نترككم تاعمون منا دينارا ولا درهما ولا تأسرون رجلا ولا امرأة فاذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع الشريفة، ثم نقتل من عندنا من اسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيوان إلا قتلناه، ثم خرجنا اليكم وقاتلنا قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله".

عندئذ أعاد صلاح الدين التفكير في الأمر مرة أخرى واستشار أصحابه فيما ينبغي فعله، فاجتمعوا على الموافقة على ترك المسيحيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنائير للرجل، وخمسة دنائير للمرأة، ودينارا واحدا للطفل. أما الفقراء فقد دفع باليان لسبعة آلاف منهم مبلغا قدره ثلاثون ألف دينار. وقد أعطى صلاح الدين للصليبيين مهلة قدرها اربعون يوما لكي يدفعوا الفداء ويغادروا المدينة ومن بقى بعد الاربعين يوما ولم يؤد ما عليه صار مملوكا.

وفي يوم الجمعة ١٢ اكتوبر ١١٨٧م. وهو يوافق ٢٧ رجب ٥٨٣هـ وهى ليلة الاسراء والمعراج، دخل صلاح الدين بيت المقدس، وقد رتب على كل باب من أبواب المدينة أمينا من الامراء لتحصيل الفدية المتفق عليها، وقد اظهروا تسامحا كبيرا تجاه فقراء المسيحيين الذين لم يقدرُوا على دفع الفدية ومنحهم صلاح الدين مساعدات مالية من ماله الخاص كما أن صلاح الدين قد عامل نساء الصليبيين معاملة طيبة للغاية اشاد بها المؤرخون المسلمون والمسيحيون على حد سواء. وقد ارسل الحراس ليصاحبوا الخارجين من بيت المقدس من الصليبيين خوفا عليهم من اعتداءات البدو. واذا قارنا بين هذه المعاملة التى ان دلت على شئ فانما تدل على مدى الحضارة التى كان عليها المسلمون فى تلك الآونة، بالتصرف الهمجى للصليبيين يوم ان فتحوا بيت المقدس فى ١٥ يوليو عام ١٠٩٩ واجروا به مذبحة مروعة بحيث انهم لم يتركوا مسلما فى الطرقات أو المساجد أو البيوت وإلا قتلوه واستباحوا دمه،

يفرقوا بين رجل ومثل وامرأة، ولم يراعى الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فاجهزوا على كل من احتذى به من المسلمين وكان عددهم أكثر من سبعين ألفاً، كما سبق أن ذكرنا .

أقول لو قارنا بين فتح الصليبيين لبيت المقدس والمذابح الرهيبة التي أجروها للمسلمين، وبين فتح صلاح الدين لهذه المدينة المقدسة والمعاملة الطيبة التي عامل بها الصليبيون لبدا الفرق واضحاً بين حضارة المسلمين وترفعهم عن الانتقياد وراء شهوة الانتقام، وبين بربرية الصليبيين الغربيين الذين اتصفوا بتصرفاتهم وتشبعت بروح الكراهية والحقد المتأصل في نفوسهم تجاه المسلمين.

وقد كان صدى فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي في العالم الإسلامي كبيراً، وهلل المسلمون لهذا النصر وأتوا القدس الشريف من كل قطر زائرين له. وقد أخذ صلاح الدين يعمل على إزالة كل أثر للصليبيين في بيت المقدس، فأنزل الصليب الكبير الذهبي الذي أقامه الصليبيون في أعلا قبة الصخرة، كما أمر بغسل الصخرة نفسها بعدة أحمال من ماء الورد وبخرت وفرشت.

وقد نادى بعض المسلمين بهدم كنيسة القيامة وقالوا "إذا هدمت ونبشت المقبرة وعفرت وحرثت أرضها ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها أمداد الزوار، ومهما استمرت العمارة استمرت الزيارة". ولكن صلاح الدين لم يوافق على هذا الرأي وأمرهم باحترام الأماكن المقدسة المسيحية في بيت المقدس والتزام روح التسامح مع المسيحيين وهو الأمر الذي انتهجه المسلمون دائماً تجاه أهل الذمة.

الفصل الخامس

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة

لقد كان لسقوط بيت المقدس في يد المسلمين وانهيار المملكة الصليبية آثار خطيرة لدى المسيحيين وخاصة في الغرب الاوروبي، وقد عمل كونراد دي منتفرات على اذكاء روح البغض والكراهية تجاه المسلمين، بما أرسله للمغرب الاوروبي من لوحة كبيرة جرى الطواف بها في اوروبا وهي تمثل القبة المقدسة والقبر المقدس وقد لوثنه خيول المسلمين، ونسى كونراد او تناسى كرم وتسامح صلاح الدين ومعاملته الطيبة للصليبيين كافة على النحو الذي تم توضيحه فيما سبق من احداث.

وقد أرسل كونراد مع هذه اللوحة جوسياس رئيس اساقفة صور ليطلب من البابوية وملوك الغرب المساعدة العسكرية العاجلة. لذا فان كونراد دي منتفرات يعتبر مسئولاً أكثر من غيره عن الدعوة للحملة الصليبية الثالثة.

وقد قابل جوسياس البابا ايربان الثالث الذي كان مسناً ومريضاً فلم يحتمل الانباء السيئة التي نقلها إليه جوسياس وخاصة استيلاء المسلمين أو بمعنى أصح استعادتهم لبيت المقدس، وقد توفي البابا ايربان الثالث غماً وحزناً بعد سماعه لهذه الاخبار.

وتجدر الإشارة إلى ان الحملة الصليبية الثالثة تختلف عن الحملة الأولى، من حيث أنها لم تتبع من البابوية، وانما نبتت من السلطة العلمانية، التي تمثلها امبراطورية المانيا (الامبراطورية الرومانية المقدسة)، وملكة انجلترا وفرنسا. وقد اعلن الامبراطور الالماني فردريك بربروسا الاشتراك في توجيه حملة صليبية إلى الاراضى المقدسة، وقرر ملك فرنسا فيليب اوغسطس وملك انجلترا هنرى الثانى، الاشتراك سوياً في حملة صليبية. وما اتحده كل من هذين الملكين من الوسائل للقيام بالحملة الصليبية انما يدل على ما كان لهذه الحملة من مظهر علمانى. اذ قاما بفرض ضريبة وهي المعروفة باسم عشور صلاح الدين، على كل من لم ينهض لاتخاذ الصليب والاشتراك

فى الحملة، دفعت من جهة عددا كبيرا إلى ان يتحدوا الصليب ويشتركوا فى الحملة الصليبية حتى لا يقوموا بدفعها، وصارت من جهة أخرى تعتبر أساسا ماليا للعمليات الحربية والاساس العلمانى للحملة الصليبية الثالثة هو الذى جعلها من جهة أكبر الحملات الصليبية، اد اشترك فيها الملوك الثلاثة الكبار الذين يحكمون غرب أوروبا، وجعلها من جهة أخرى من عوامل فشلها، لأن ملكى انجلترا وفرنسا بعد أن تغيرت بوأياهما، نقلا ما بينهما من منازعات سياسية، إلى الحركة الصليبية، بعد أن تم الاتفاق بينهما على ضرورة اغفالها ونبذها. ولذلك فان الحملة الصليبية الثالثة تعتبر من الناحية الروحية أقل شأنا من الحملة الصليبية الأولى. ومهما يكن فان هنرى الثانى ملك انجلترا توفى فى اوائل يوليو ١١٨٨ فخلفه ابنه ريتشارد قلب الاسد الذى توج فى سبتمبر ١١٨٨.

وفى صيف ١١٩٠ أبحر ملكا فرنسا وانجلترا على رأس جيوشهما الصليبية ليقضى كل منهما فصل الشتاء فى جزيرة صقلية (سبتمبر ١١٩٠ - مارس ١١٩١) مستمتعين بجو صقلية الدافئ. أما امبراطور ألمانيا فردريك بربروسا فقد خرج على رأس جيوشه فى مايو ١١٨٩ فى طريقه للاراضى المقدسة فى فلسطين متخذا الطريق البرى عبر هنغاريا مارا باراضى الدولة البيزنطية.

والواقع أن شخصية فردريك بربروسا استحوذت على اعجاب المؤرخين فى مختلف العصور التاريخية، فيقال انه جمع فى شخصه جميع الشيم التى افتخرت بها فروسية العصر الذى عاش فيه، من شجاعة فائقة وهمة خارقة ومرح مفرط فضلا عن شغف بالقتال والنزال وولوع بالمغامرة، وحب للعدل بين الناس عدلا عرفيا مصدره حسن الادراك، لا القانون الجامد. ويقول المؤرخ فيشر انه لم يعتل عرش ألمانيا منذ شارلمان ملك تم فيه من خلال المؤهلة لحكم الالمان مثلما تم فى بربروسا، اذ كان باستطاعته ان

يخيف العقول ويسحرها بلطفه في أن واحد، ولمس رجال الدين والامراء الاقطاعيون والفلاحون تلك الناحية من شخصيته الممتازة، واعتبروه مثال الفارس الكامل.

على أية حال فإن فردريك بربروسا وصل إلى أراضي الدولة البيزنطية على رأس جيوشه التي بلغت مائة ألف مقاتل، وكان بصحبته ابنه فردريك أمير سوابيا، الذي عرف باسم فردريك السوابي. ويهمنا في هذا المجال ان نتعرض للعلاقة بين فردريك بربروسا والامبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس الذي كان يحكم الامبراطورية البيزنطية آنذاك (١١٨٥-١١٩٥) فقد اتصفت هذه العلاقة بالكراهية والبغض الشديد وذلك لعدة أسباب منها العداء التقليدي الذي ساد دائما العلاقات بين الامبراطوريتين البيزنطية والالمانية، وقد نظر الاباطرة البيزنطيين دائما نظرة احتقار وتعالى للامبراطور الالمانى (المحدث)، الذي لم يحظى بلقب الامبراطور إلا منذ عام ٨٠٠م حين توج البابا ليو الثالث شارلمان امبراطورا، وبذلك أوجد منافسا خطيرا للامبراطور البيزنطي الذي كان يعتبر فريدا من نوعه، وقد رفض الاباطرة البيزنطيون دائما الاعتراف بالاباطرة الالمان الذين كانوا يطمعون في الامبراطورية البيزنطية منذ عصر شارلمان. أضف لذلك ان الامبراطور فردريك بربروسا كان في حالة تحالف مع النورمان في صقلية وجنوب ايطاليا وهم الاعداء الألداء للامبراطورية البيزنطية لما لهم هم الآخرون من اطماع فيها، وقد ظهرت هذه الاطماع بوضوح خلال عصر الامبراطور اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١-١١١٨) الذي خاض نضالا عنيفا ضد روبرت جويسكارد النورمانى الذي نزل مهاجما لأراضي الامبراطورية البيزنطية في البلقان، وقد ظل النورمان على عدائهم للبيزنطيين واطماعهم في الدولة البيزنطية وتاريخ الحملة الصليبية الاولى حافل بالصراع الذي نشب بين بوهيمند النورمانى ابن روبرت جويسكارد وبين الامبراطور البيزنطي اليكسيوس كومنينوس حول امتلاك انطاكية. هذا إلى جانب العداء التقليدي أيضا الذي كان بين الدولة

البيزنطية والصليبيين بصفة عامة منذ الحملة الصليبية الأولى. لذلك لا نعجب حين نجد الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس يواجه فردريك ببروسا بالعداء منذ أن وطأت قدماه الارض البيزنطية، مما دفع ببروسا إلى ارسال رسالة لابنه هنرى فى المانيا يطلب منه اعداد الجيوش لقتال الدولة البيزنطية. وقد اخذ اسحاق انجيلوس يرسل لصالح الدين الرسالة تلو الأخرى يخبره فيها بتحركات الألمان، ومحاولاته المستمرة لعرقلة مرورهم عبر أراضيه.

وقد رد صلاح الدين هذا الجميل للامبراطور البيزنطى بان وافق على وضع الاماكن المقدسة المسيحية فى بلاد الشام وفلسطين تحت رعاية رجال الدين الارثوذكس. وقد وافق الامبراطور البيزنطى من جانبه على اشراف صلاح الدين على الجامع الموجود بالقسطنطينية، وهو الذى تم بناؤه فى عصر الامبراطور ليو الثالث الايسورى (٧١٧-٧٤٠ م.) وفى خلافة الأمويين. وقد ارسل صلاح الدين الخطيب والمؤذنين والقراء إلى القسطنطينية واقيمت الخطبة بهذا الجامع للخليفة العباسى.

ولم يلبث فردريك ببروسا بعد أن ووجه بهذا العداء من جانب الامبراطور البيزنطى ان رحل إلى آسيا الصغرى فى أواخر مارس ١١٩٠. وقد دخل الامبراطور الالماني وجيشه إلى أراضى سلطان سلاجقة الروم الذين اتخذوا من مدينة قونية فى آسيا الصغرى عاصمة لهم وكان يدعى قليج ارسلان الثانى. ويهمنا أيضاً أن نشير هنا إلى علاقات الود التى ربطت بين هذا السلطان المسلم الذى ينتمى إلى السلاجقة الذين حملوا لواء الجهاد ضد المسيحيين منذ وصولهم إلى آسيا الصغرى عند منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، وبين الامبراطور الالماني فردريك ببروسا. وقد تعهد له قليج ارسلان بامداده بالمرشدين وحمايته ورجاله من المعتدين واذا تساءلنا عن الدافع لقليج ارسلان لأن يدخل فى تحالف مع هذا الامبراطور الصليبي لوجدنا ذلك يرجع إلى عداء قليج ارسلان لكل من الامبراطور البيزنطى من جهة

ولصلاح الدين من جهة أخرى، وقد وجد في تحالفه مع الامبراطور الالماني الرد على تحالف صلاح الدين مع اسحاق انجيلوس.

وبناء على الاتفاق الذي تم بين قليج ارسلان وفرديك بربروسا فقد أمده سلطان سلاجقة الروم بالادلاء والمرشدين الذين قادوا الجيش الالماني خلال آسيا الصغرى حتى وصلوا إلى ارمينيا في سلام.

وهكذا اصبح الوضع بالغ الخطورة بالنسبة للجانب الاسلامي بعد أن وصلت الحملة الالمانية إلى ارمينيا وكانت الحملة الفرنسية والحملة الانجليزية في طريقهما للشام، وهكذا أحس المسلمون انهم سيقعوا بين شقى الرحى أو فكى الكماشة، حين يتعرضون لضغط الالمان من الشمال من جهة ارمينيا وضغط الفرنسيين والانجليز من ناحية الجنوب أى من ناحية السواحل المطلّة على البحر الابيض المتوسط.

وقد أورد المؤرخون المسلمون عبارات توضح مدى اليأس الذي انتاب المسلمين عندما علموا بوصول الالمان إلى ارمينيا فقال ابن الاثير: "لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان أيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام"، وقال أبو الفدا: "بلغ المسلمون وصول ملك الالمان، وكان قد سار من بلاد ما وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، واهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية".

وقد سيطر القلق على صلاح الدين، واتخذ من الاجراءات ما يكفل عدم سيطرة الصليبيين على المراكز الاسلامية الهامة واستخدامها في محاربة المسلمين، فأمر بهدم سور طبرية ويافا وارسوف وقيساريه وصيدا وجبيل، ونقل أهلهم إلى بيروت.

لكن الله سبحانه وتعالى لطف بالمسلمين، وشاء تعالى ان يرفع عنهم ذلك الخطر الجسيم الذين تعرضوا له، اذ غرق فردريك ببروسا اثناء عبوره لنهر السالف في أرمينيا. وقد تعددت الروايات بصدد غرقه، فمن قائل بأنه رمى بنفسه اثناء عبوره للنهر من على ظهر فرسه ليطفئ حرارة جسده، فغرق، ورواية أخرى تقول ان فرسه قد جمح به وألقاه في الماء على حين غرة ولما كان فردريك يرتدى ملابس الحرب الثقيلة من الدروع وغيرها فانه لم يستطيع ان ينهض وغرق. اما الرواية الثالثة فتقول انه نزل ليستحم في مياه النهر فغرق في موضع لا يصل فيه الماء إلى وسط الرجل. ومهما يكن، فان غرق فردريك ببروسا على هذا النحو كان تدخلا من الاقدار في ساعة حاسمة في مصير المسلمين بالشام في هذه المرحلة التاريخية من نضالهم مع العدو الصليبي.

وقد هلك المسلمون لاختفاء الامبراطور على هذا النحو وقال ابن الاثير: "لولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الالمان - لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام - وإلا كان يقال ان الشام ومصر كانتا للمسلمين".

وبموت فردريك ببروسا انفلت زمام الجيش الالمانى ولم يستطع ابنه فردريك السوابي ان يسيطر عليه، فعادت طائفة منه إلى الغرب الاوروبى تجر اذيال الخيبة، أما فردريك فقد حمل جثمان والده في جرة نبيذ وسار في طريقه للشام، وعند نهر العاصى اصيب هو ورجاله بالوباء، فالتقطهم بوهيمند الثالث أمير انطاكية على أمل أن يموتوا عنده فيغنم ما معهم. ولكنهم لم يموتوا وانما اخذوا يستردون صحتهم، فضاق بهم وثقلت عليه وطأتهم، فأراد أن يستفيد منهم لمصلحته الخاصة فعرض عليهم مساعدته في الهجوم على حلب، ولكن فردريك السوابي رفض، ورحل هو ورجاله لينضموا إلى باقى الصليبيين المحاصرين لمدينة عكا.

الحملة الصليبية الثالثة والاستيلاء على عكا:

كان الملك جاي لوز جنان أحد الذين وقعوا أسرى في يد صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين كما سبق أن ذكرنا ذلك في موضعه، وقد أخذت زوجته سبيل تلح على صلاح الدين لاطلاق سراح زوجها جاي لوزجنان، وقد استجاب صلاح الدين لتوسلاتها وأطلق سراح جاي في يوليو ١١٨٨، وكعادة صلاح الدين في نبل الاخلاق والكرم، أطلق مجموعة من كبار الشخصيات الصليبية التي كانت في الاسر، حتى يكونوا رفقاء للملك جاي لوزجنان، وقد أطلق صلاح الدين سراح جاي ورفقائه دون مقابل مادي على الإطلاق، وكل ما هنالك أن جاي تعهد لصلاح الدين بالألا يشهر في وجهه سيفاً أبداً ويكون غلامه ومملوكه إلى الأبد. وبعد إطلاق سراح جاي لوزجنان توجه مع زوجته سبيل إلى المدينة الوحيدة التي بقيت في يد الصليبيين من مملكة بيت المقدس الصليبية وهي مدينة صور، وقد سبق أن ذكرنا أن كونراد دى مونتفرات قد سيطر عليها وداقع عنها ضد المسلمين وحال بينها وبين السقوط في أيديهم، وقد وصل الملك جاي لوزجنان والملكة سبيل إلى صور وطالبا كونراد بالسماح لهما بدخولها، ولكنه رفض أن يسمح لهما بذلك واجابهما بأن هذه المدينة لم تعد مدينتهما وان الفضل يعود إليه في حفظها والدفاع عنها ضد المسلمين، ولولا جهوده هذه لكانت قد سقطت في أيديهم كما حدث لغيرها من مدن مملكة بيت المقدس الصليبية. وقد ظل الملك والملكة أمام صور عدة أشهر يحاولان دخولها دون جدوى ولما وجد الملك جاي لوزجنان انه لم يعد له بلد يأويه نكث في قسمه وخان عهده الذي قطعه لصلاح الدين بالألا يشهر في وجهه سيفاً أبداً، واتجه نحو عكا التي تعتبر من أهم مدن الشام الساحلية وثاني مدينة بعد بيت المقدس في الأهمية بالنسبة للصليبيين، وقد سحب الملك جاي في طريقه إلى عكا جموع كثيرة من الفرسان الصليبيين المشردين، وكذلك مجموعة من الفرسان المقاتلين من النورمان

المعروفين بشدة بأسهم في القتال. وكان صلاح الدين في ذلك الوقت مشغولا بحصار قلعة الشقيف ارنون، ولم يصدق الانباء التي وصلت إليه عن اعتزم الملك جاي لوزجنان الاستيلاء على عكا، وظن أن في الأمر خدعة لاجباره على ترك قلعة الشقيف ارنون. ولكن لم يلبث أن تأكد من صحة هذه الاخبار وان الصليبيين وعلى رأسهم جاي لوزجنان في طريقهم فعلا من صور إلى عكا مروراً بالساحل. وقد كان رأى صلاح الدين أن يقضى على جموع الصليبيين قبل أن يصلوا إلى عكا، ولكن امراءه خالفوه في الرأي وطالبوا بتأجيل ذلك حتى تكتمل جموع الصليبيين أمام عكا ويقضون عليهم دفعة واحدة.

ولا شك أن رأى صلاح الدين كان هو الأصح والاسلم ولكن لم يعملوا به، وهكذا اجتمع امام عكا جموع كثيرة من الصليبيين خاصة وأن جاي لوزجنان وكونراد دي مونتفرات قد صفيا ما بينهما من خلافات وتعاوناً معاً في حصار عكا، كذلك وصل امام عكا فردريك السوابي ببقايا الحملة الالمانية الفاشلة والتي انفصم عراها بعد غرق فردريك ببروسا. هذا إلى جانب اساطيل المدن البحرية الايطالية جنوا وبيزا والبندقية التي كانت قد سمعت بالدعوة للحملة الصليبية الثالثة، فصفوا ما بينهم من خلافات واسرعوا للشام للاشتراك في حرب المسلمين. ويقدر بعض المؤرخين عدد الجموع الصليبية التي احتشدت امام عكا بأكثر من عشرين ألفاً. كما قدروا عدد سفنهم بما لا يقل عن ٥٥٢ سفينة من مختلف البلاد الاوروبية. وهذا العدد الكبير كان يزيد كثيراً على ما كان عند صلاح الدين من سفن حربية وقد اعترف صلاح الدين بهذا التفوق البحري للعدو في بعض رسائله مثل قوله: "ومن خبر الكفار انهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه، ويخرج للمسلمين منهم أمر من اجاجه.. فاذا قتل المسلمون واحدا في البر بعث البحر عوضاً ألفاً".

على ان صلاح الدين لم يقف مكتوف اليدين ازاء تجمعات العدو امام عكا، بل سارع بمهاجمتهم، ونجح فى فتح الطريق إلى المدينة لامدادها بالمؤن والاسلحة والرجال، وظهرت حامية المدينة تحت قيادة قراقوش بطولية وشجاعة تسترعى الانتباه.

كذلك كان صلاح الدين يتصل بحامية المدينة عن طريق الحمام الزاجل، أو عن طريق العوامين فى البحر وهم ما نعرفهم فى الوقت الحالى باسم (الضفادع البشرية) ومن امثلتهم عيسى العوام الذى كان يشد على وسطه الرسائل المراد توصيلها إلى حامية عكا وأكياس الذهب للانفاق منها على المجاهدين، ثم يغوص فى البحر ليلاً وفى غفلة من العدو، ثم يخرج من الجانب الآخر من سفن العدو، ويدخل عكا حيث يسلم ما يحمله من الذهب والرسائل إلى رجال الحامية.

وفى ذات يوم حمل عيسى العوام أكياس الذهب والرسائل كعادته، وغاص فى البحر، ولم يعد أحد يسمع عنه خبر بعد ذلك، فاعتقد البعض أنه فر بالذهب، على حين اعتقد البعض الآخر بأنه وقع اسيراً فى يد الاعداء. وبعد عدة أيام بينما الناس على ساحل البحر فى عكا، اذا بالبحر يقذف اليهم ميتاً غريقاً، فنظروا إليه فاذا به عيسى العوام، ووجدوا على وسطه أكياس الذهب والرسائل كما هى، وبذلك برأه الله سبحانه وتعالى مما نسب إليه من الخيانة والفرار بالذهب.

وعلى الرغم من الإمدادات التى وصلت لصلاح الدين وهو امام عكا إلا ان التفوق العددي كان للصليبيين. وقد أصبح رجال الحامية أعنى حامية عكا، يشتكون مر الشكوى من مواصلة السهر والقتال ليلاً ونهاراً وطلبوا بالحاح سحبهم إلى خارج عكا ووضع حامية اخرى جديدة، وقد تم تجديد الحامية فى منتصف فبراير ١١٩١، ولكن هذه العملية لم تتم على الوجه

الأكمل نظرا لما أحاط بها من ظروف عسيرة خاصة بحصار الصليبيين لعكا. ولم يستطع المسلمون ان يدخلوا إلى عكا سوى عشرين اميرا بدلا من الستين الذين تم سحبهم من عكا ويرجع بعض المؤرخين السبب في سقوط عكا فيما بعد إلى الخطأ في تنفيذ هذه العملية بالذات وعدم اتمامها على الوجه الأكمل.

وقد توفيت الملكة سبيل زوجة جاي لوز جنان وهم محاصرين لعكا، وهكذا فقد جاي لوز جنان أى حق له فى عرش مملكة بيت المقدس، بعد وفاة زوجته الملكة صاحبة الحق الشرعى، لأنه كان يجلس على عرش مملكة بيت المقدس بصفته زوج الملكة وليس بصفته الشخصية.

وهكذا انتقل الحق فى العرش إلى اختها ايزابيلا، وكانت ايزابيلا، متزوجة من شخص ضعيف الشخصية وخامل يدعى اونفروى دى تورون، فاتفق الفرسان الصليبيون على تطليق ايزابيلا من زوجها وتزويجها من رجل الساعة حينئذ لديهم وهو كونراد دى مونتفرات، وقد تم ذلك بالفعل فى نوفمبر ١١٩٠. وهذا بطبيعة الحال مما أغضب جاي لوز جنان وأوجد فرقة وانقسام فى صفوف الصليبيين، ولكن سرعان ما انتهى بوصول فيليب اوجسطس ملك فرنسا إلى الشام.

وقد وصل فيليب اوجسطس إلى صور أولا فرحب به قريبه كونراد دى مونتفرات وصحبه إلى عكا، وكان لوصول الملك فيليب إلى عكا رد فعل كبير عند الصليبيين والمسلمين على حد سواء، وفى الوقت الذى هلل فيه الصليبيون وابتهجوا لوصوله نظرا لمكانته الكبيرة عندهم. اذا بالمسلمين يعملون حسابا كبيرا لوصوله، خاصة وانه وصل فى الوقت الذى بدأ المسلمون فيه يضجرون من كثرة القتال وطول البقاء امام عكا، فبدأ بعضهم ينسحب من امامها مثل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل.

ولم يلبث ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا أن وصل هو الآخر إلى صور بعد أن ساقته الظروف لفتح جزيرة قبرص والاستيلاء عليها من يد حاكمها البيزنطي. وقد رفضت حامية صور استقباله بالمدينة وطلبت منه الإسراع إلى عكا. وبعد وصوله إلى عكا في ٨ يونيو ١١٩١، ازداد الصليبيون قوة وكثرة عذية، ورغم ذلك فإن المسلمين قد أبدوا بطولات وشجاعة نادرة، مثال يعقوب الحلبي الذي خرج من بيروت على رأس سفينة كبيرة (بطسة) مشحونة بالآلات والميرة والرجال لامداد حامية عكا، فاعترضه ملك إنجلترا ريتشارد وحاصره بسفنه التي كانت تبلغ الأربعين قطعة بحرية، فقاتلهم المسلمون قتالا عنيفا، واحرقوا لهم سفينة كبيرة غرقت بمن فيها، ولما تكاثر العدو على سفينة المسلمين وكاد أن يستولى عليها، قال مقدمها يعقوب الحلبي: "والله لا نقتل إلا عن عز، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئا". ثم حطموا جوانب البطسة، بالمعاول حتى فتحوها، فامتلات ماء وغرق جميع من فيها وكان عددهم ستمائة وخمسون رجلا وما فيها ولم يظفر العدو منها بشئ.

وقد مر الصليبيون هم الآخرون بظروف سيئة، بعد أن اشتد الخلاف بين جاي لوز جنان وكونراد دي مونتفرات، مما جعل كونراد ينسحب إلى صور، ومرض ريتشارد قلب الأسد، وجرح فيليب اوجسطس، ولكي يكسبوا الوقت حتى تتحسن ظروفهم، اخذوا في مراسلة صلاح الدين شغلا للوقت، وظل ريتشارد ملك إنجلترا يطلب من صلاح الدين الفاكهة والتلج التي احتاج اليها في مرضه، وكان صلاح الدين يمدّه دائما بما يطلبه.

وما أن تحسنت احوال الصليبيين حتى استأنفوا القتال من جديد بضراوة وعنف، وقد ارسلت حامية عكا رسالة إلى صلاح الدين عن طريق الحمام الزاجل جاء بها: "أنا قد بلغ منا العجز غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في

الغد ثامن الشهر (جمادى الاولى ٥٨٧هـ / ١١٩١م) ان لم تعملوا معنا شيئا، نطلب الامان ونسلم البلد".

ولم تتجح جميع المحاولات التى قام بها صلاح الدين لانتقاذ عكا، واضطر إلى الدخول فى مفاوضات مع الصليبيين ناب عنه فيها أخوه العادل وناب عن الصليبيين الاسبتارية، ولكن الصليبيين غالوا فى مطالبهم وطالبوا برد جميع البلاد التى فتحها صلاح الدين بعد حطين واعادة صليب الصليبيوت، وكان من الطبيعى أن يرفض صلاح الدين مطالبهم هذه وبذلك انقطعت المفاوضات. وقد تدخل كونراد دى مونتفرات فى الأمر وبدون موافقة صلاح الدين عقد اتفاقية مع حامية عكا، وقد نصت الاتفاقية على السماح لحامية عكا بالخروج سالمة مقابل فدية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ دينار وتحرير ٢٥٠٠ من الاسرى الصليبيين، ورد صليب الصليبيوت. وهكذا تم للصليبيين الاستيلاء على عكا ودخلوها فى يولية ١٩١١ بعد حصار دام ما يقرب من العامين.

وبعد سقوط عكا فى يد الصليبيين اعتذر فيليب اوجسطس ملك فرنسا بالمرض وغادر بلاد الشام إلى برنيزى فى ايطاليا فى اغسطس ١١٩١، على حين استمر ريتشارد ملك انجلترا فى الشام وقام بعدة محاولات لاسترداد بيت المقدس ولكنه فشل، ولم يستطع سوى الاستيلاء على ساحل فلسطين من عكا إلى يافا.

وقد حاول ريتشارد ان يصل إلى حل سلمى لمشكلة بيت المقدس فاقترح ان تتزوج اخته جوانا من العادل شقيق صلاح الدين ويحكمان معا مملكة بين المقدس الصليبية بحدودها التى كانت عليها قبل معركة حطين ١١٨٧. وقد وافق صلاح الدين على هذا الاقتراح ووافق العادل أيضا، ولكن جوانا رفضت بعد أن حرضها رجال الدين ضد الزواج من مسلم. وكان ان اقترح

ريتشارد ان يعتق العادل المسيحية، ولو نظاهرا، حتى توافق جوانا، ولكن صلاح الدين والعادل رفضا ذلك، وهكذا انتهى هذا المشروع بالفشل.

ولما طالت اقامة ريتشارد بالشام واصابه المرض واضطربت احوال مملكة انجلترا نتيجة لغيابه عنها طوال هذه السنين منذ خرج من بلده في صيف ١١٩٠، أخذ يلح على صلاح الدين من أجل الوصول إلى اتفاق حتى يتمكن من مغادرة الشام والعودة إلى وطنه، وأخيرا تم بينهما صلح الرملة في ٢ سبتمبر ١١٩٢. ونص على ما يلي:

١- أن يكون للصليبيين البلاد الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وارسوف.

٢- تكون عسقلان للمسلمين.

٣- تكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين.

٤- يكون للمسيحيين حرية الحج إلى الأماكن المقدسة في بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك.

٥- أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

وهكذا تم الاتفاق أخيرا، وعقب ذلك غادر ريتشارد الشام في ٩ أكتوبر ١١٩٢ في طريقه بحرا إلى بلاده.

وبذلك انتهت قصة الحملة الصليبية الثالثة التي قامت أساساً من أجل استرداد بيت المقدس بعد أن فتحها صلاح الدين وحطم مملكة بيت المقدس الصليبية عقب انتصاره في معركة حطين ١١٨٧م. ولكن هذه الحملة رغم اشتراك ثلاثة من كبار ملوك الغرب الأوروبي بها، ورغم الاستعدادات المادية والبشرية التي اتاحت لها، ورغم الظروف الصعبة التي مر بها صلاح الدين والمسلمون، إلا أنها لم تحقق الهدف الذي خرجت من أجل تحقيقه وهو استعادة بيت المقدس من يد المسلمين، ولذلك يمكننا القول أن هذه الحملة فشلت في تحقيق هدفها، وبقيت مدينة بيت المقدس في حوزة المسلمين.

وفاة صلاح الدين والصراع بين الأيوبيين:

توفي صلاح الدين في أوائل مارس سنة ١١٩٣، وكانت وفاته وهو بدمشق بعد مرض قصير ألم به. ودفن هناك ومعه سيفه الذي طالما جاهد به أعداء الاسلام، ليتوكأ عليه إلى الجنة على حد تعبير المؤرخ أبو شامة.

أما المؤرخ ابن شداد فيصف حب صلاح الدين للجهاد وتفانيه في نصرة دين الله. فيقول: "ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آياته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة".

وقد كان يوم وفاته يوم حزن وأسى بالنسبة للمسلمين وقد تمنى الكثيرون منهم ان يفتدوه بأنفسهم، وقد اعترف المؤرخون الغربيون بقوة صلاح الدين وعدله وتسامحه بل وأكثر من ذلك لقد اعترفوا بانه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية بأجمعه، ولا شك أن هذه شهادة طيبة للغاية خاصة اذا كانت صادرة من أعدائه، ورغم ما حفل به عصر الحروب الصليبية من شخصيات الاباطره والملوك الغربيين، ولكن تصرفات صلاح الدين التي اتسمت دائماً بالشهامة والمروءة والنبيل والترفع عن الانتقام والرد بالمثل على تصرفات الصليبيين الهمجية، كل ذلك جعل منه اعظم شخصية في عصر الحروب الصليبية وبشهادة أعدائه.

على أنه ما كاد صلاح الدين يختفى من مسرح الاحداث، حتى دب الخلاف والانقسام بين أفراد البيت الايوبي. فقد أنجب صلاح الدين سبعة

عشره من نوابه. كن من الطبيعي و يختص صلاح الدين ببنائه بحكم
الاجراء الرئيسي في دولته، وقد حوّه الدين كن اهم شخصية فيهم هو
العادل، الاجراء الثانوية.

و عند وفاة صلاح الدين كان أكبر ابنائه ويسمى الأفضل نور الدين علي
موجودا مع أبيه بدمشق، فاحتفظ بها وبالمدن الساحلية وبيت المقدس وبلبك
صرحد وبصرى وبنياس وهوير وتبين إلى الداروم بالقرب من حدود
مصر. وكان صلاح الدين قد أوصى بالسلطنة من بعده لابنه الأفضل بمعنى
ان تكون له السلطة العليا في باقى انحاء الدولة الايوبية.

اما الابن الثانى لصلاح الدين وهو العزيز عثمان، فكان في مصر وقت
وفاة أبيه، لذلك فقد احتفظ بها. أما الابن الثالث وهو الظاهر غازى، فقد أخذ
حلب وشمال الشام وكان صلاح الدين قد منح اخوه العادل بعض الاقطاعات
الثانوية المتفرقة مثل الاردن والكرك إلى جانب الجزيرة وديار بكر.

كان هؤلاء اهم الشخصيات بعد صلاح الدين أما باقى ابنائه واخوته فقد
اخذوا اقطاعات صغيرة.

ما يهما في هذا الصدد ان الملك الأفضل وهو الابن الأكبر لصلاح
الدين لم يكن بالشخصية التي تصلح لأن تتولى السلطنة بعد والده صلاح الدين
العظيم، فقد كان الأفضل ضعيف الشخصية سيئ السيرة والسلوك وقد احتجب
عن الرعية وقضى وقته كله في شرب الخمر والاستماع إلى الاغاني واللهو
وشتان بين شخصية صلاح الدين وشخصية ابنه الأفضل.

وقد أبعد الأفضل رجال أبيه صلاح الدين من الامراء والوزراء، الذين
سأهم تصرفات الأفضل، فلجأوا إلى اخيه الملك العزيز عثمان حاكم مصر،

واخذوا يثيرونه على اخيه الافضل، وكان ان استجاب لهم العزيز وخرج على رأس جيشه واتجه إلى دمشق حيث فرض الحصار عليها. وقد لجأ الافضل إلى عمه العادل يستجد به، وكانت هذه هي الفرصة التي انتظرها العادل، ليتدخل في شئون ابناء صلاح الدين ويحركهم جميعاً لخدمة اغراضه الخاصة، لاسيما وأنه كما وصفه المؤرخون كان "ذا مكر شديد وخديعة، صبوراً ذا أناة وتؤده". وقد استجاب العادل لنداء الأفضل وجمع الامراء من بيت صلاح الدين ووقفوا جميعاً في وجه العزيز عثمان، الذي أدرك تماماً أنه لا قبل له بمواجهة هؤلاء مجتمعين، فاجتمع مع العادل بالقرب من دمشق وطيب العادل خاطره وزوجه من ابنته، وعاد العزيز إلى مصر.

على أن الافضل لم يرتدع، وإنما استمر في لهوه وتشاغله عن الرعية وعن تصريف امورها بنفسه بعد أن أوكل هذه المهمة لوزيره ضياء الدين ابن الاثير وهو شقيق المؤرخ المشهور. فعاد العزيز عثمان خروجه من مصر إلى دمشق بغرض ضمها لممتلكاته وابعاد الأفضل، وقد استجد الافضل بعمه العادل للمرة الثانية، فحرض امراء العزيز على تركه والعودة لمصر، وهكذا انفض الامراء من حول العزيز الذي وجد نفسه وحيداً، فاضطر للعودة إلى مصر.

وقد خشى الأفضل ان يعاود اخيه الكرة ويحاربه من جديد، فاتفق مع عمه العادل على أن يذهبا بجيوشهما إلى مصر ويستوليا عليها وتكون من نصيب الأفضل على أن يعطى عمه العادل حكم دمشق. وبالفعل خرج الاثنان لتنفيذ الاتفاق السابق ودخلا الاراضى المصرية ونزلا على بليس محاصرين لها، ولكن العادل خشى أن يأخذ الأفضل مصر ولا يعطيه دمشق، فارسل سرا إلى العزيز وطلب منه الثبات وتعهده له بأنه سيعمل على عودة الأفضل لدمشق، وقد كان فعاد الأفضل لدمشق دون ان يحقق أمله في الاستئثار بحكم مصر دون أخيه العزيز.

وهكذا أصبح العادل يمسك بالموقف كله بين يديه، ويحرك الاخوة أبناء صلاح الدين كيفما أراد. وحين تمادى الأفضل في طيشه ولهوه وضج الناس بالشكوى، ذهب العادل إلى العزيز في مصر واتفقا على خلع الأفضل والاستيلاء على ملكة بدمشق، وقد خرج الاثنان في يونيو ١١٩٦ لتحقيق هذا الاتفاق ودخلا دمشق دون مقاومة تذكر وحل العادل محل الأفضل في حكم دمشق. على حين اخذ العزيز لقب السلطنة وظل يحكم مصر.

ولم يلبث العزيز عثمان ان توفي في نوفمبر ١١٩٨، وكان أكبر أبنائه لا يزال طفلاً صغيراً في العاشرة من عمره، فأرسل فخر الدين جهار كس المسيطر على الأمور في مصر إلى العادل يستدعيه ليسلم له مصر، في حين ان المماليك الأسدية والصالحية خشوا قوة شخصية العادل واستبداده بالأمور، ورأوا أن يسلموا مصر للأفضل، وهو المعروف بضعف شخصيته وتشاغله باللهو، حتى تناح لهم الفرصة ليفعل كل منهم ما يراه في ظل حكمه. وبالفعل وصل الأفضل إلى مصر وتسلم مقاليد الأمور بها وقد أراد الأفضل الانتقام من عمه العادل، فاتفق مع أخيه الملك الظاهر حاكم حلب لأخذ دمشق من عمهما العادل، الذي كان غائباً عن دمشق يحاصر ماردين في ديار بكر. ولكن العادل حين علم بمؤامرة أبناء أخيه ضده عاد مسرعاً إلى دمشق ودخلها قبل وصولهما إليها، وأخذ يعد العدة للدفاع عن دمشق. وقد وصل الأفضل بجيوشه من مصر والظاهر بجيوشه من حلب، وحاصرا دمشق لمدة ستة أشهر دون أن يقوما بمحاولة جدية لاقتحامها. وقد استعمل العادل ذكائه ودهائه لبذر بذور الخلاف بين الأخوين، إلى جانب استمالته لامراء الأفضل والظاهر، فانضموا إلى جانب العادل، وانفضوا عن الأفضل والظاهر. وانتهى الأمر برفعهما الحصار عن دمشق والعودة إلى ديارهما.

وقد طرد العادل الأفضل حتى مصر وأوقع به هزيمة كبيرة بالقرب من بلبيس، ثم لحق به إلى القاهرة وأجبره على التخلي عن حكم مصر وتركها للعادل، أما هو أي الأفضل فقد انسحب إلى أقطاعه الصغير في حوران.

وقد قام الأفضل بالاتفاق مع شقيقه الظاهر، وتعاوننا معا ضد العادل، وحاصرا دمشق، وقد خرج العادل من مصر على وجه السرعة، حيث بذر بذور الخلاف كعادته بين الشقيقين، وكان من نتيجة ذلك أن رحل الظاهر إلى حلب، أما الأفضل فقد عاقبه العادل وسحب منه حوران وأقطعه سميساط لاغير.

وهكذا دان للعادل ملك مصر ودمشق وبيت المقدس بفضل حيلته ودهائه، وإن كان صلاح الدين الأيوبي قد خشي من طموح العادل وحاول أن يقضى على طموحه هذا باعطائه أقطاعاً ثانوياً لا يتناسب مع أطماعه، إلا أن العادل نجح عن طريق الصبر والمكر والخديعة أن يحقق أطماعه في ملك صلاح الدين، وصفى له الجو بعد أن تخلص من الأفضل وخلصه الموت من العزيز عثمان.

وقد قسم العادل ملكه على ابنائه، فأعطى الكامل حكم مصر، والمعظم عيسى دمشق، والأشرف موسى حران، والأوحد ميافارقين، أما العادل فكان له الإشراف العام والتام على جميع تلك الممالك.

وإذا كان العادل قد نجح في توحيد مصر والشام مرة أخرى، إلا أنه وقع عليه عبء مواجهة الصليبيين، وحماية الأراضي الإسلامية من غاراتهم عليها، كما سنرى فيما بعد.

مملكة بيت المقدس الصليبية الأسمية:

رغم ان الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت في استرداد بيت المقدس من يد المسلمين، إلا أنها نجحت في استرداد الساحل القديم لمملكة بيت المقدس بما فيه حيفا وقيسارية وارسوف ويافا وعكا، التي كانت أهم مدينة به، وصارت قاعدة مملكة بيت المقدس في عهدها الجديد، ورغم عدم وجود مدينة بيت المقدس نفسها في يد الصليبيين إلا أنهم أصروا على استمرار احتفاظ المملكة باسمها القديم (مملكة بيت المقدس). وهذا يدل على تصميمهم على استعادة مدينة بيت المقدس لحوزتهم من جديد.

وهكذا كانت الصفة البحرية هي الطابع المميز لهذه المملكة، بعد أن فقدت كل ما كان لها من ممتلكات داخل فلسطين، وأصبحت لا تضم سوى المدن الساحلية بما فيها صور، وقد كان لذلك نتيجة حتمية هي اعتماد هذه المملكة على الغرب الاوروبي وخاصة اساطيل المدن البحرية الايطالية أو الثلاثة الكبار كما كان يطلق عليهم في ذلك الحين وهم جنوا وبيزا والبندقية.

وكان اول من حكم هذه المملكة في عهدها الجديد هو هنري دي شامبني وهو ابن اخت الملك ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، والزوج الثالث لايزابيلا وريثه مملكة بيت المقدس الصليبية، والجدير بالذكر أن هنري دي شامبني لم يتوج ملكا على تلك المملكة، والسبب في ذلك غير معروف، وربما رأى هو تأجيل هذا التتويج حتى استرداد بيت المقدس ويتوج بها، وعلى أية حال فقد توفي هنري دي شامبني في ١٠ سبتمبر ١١٩٧، وجرى البحث عن زوج رابع لايزابيلا وكان أن تم الاتفاق على تزويجها من عموري لوز جنان ملك قبرص، وهكذا تم توحيد عرش مملكة قبرص ومملكة بيت المقدس الصليبية. على أن هذا التوحيد لم يلبث أن انفصمت عراه، بعد وفاة عموري لوز جنان، وبذلك عاد عرش مملكة بيت المقدس إلى صاحبه ايزابيلا ثم إلى

كبرى بناتها من هنرى دى شامبنى وتدعى ماري. ولما كانت ماري لا تزال صغيرة السن اذا كانت فى الرابعة عشرة من عمرها فقد وضعت تحت وصاية ابلين حاكم بيروت. وفى عام ١٢٠٨ بلغت ماري سن الرشد وبدأت مشكلة البحث عن عريس مناسب، ليس لها، وانما مناسب للمملكة، أى تكون له من الخبرة والكفاية ما يمكنه من حماية مصالح الصليبيين بالشام، وهو ما نطلق عليه اسم (الزواج السياسى)، وقد تم عقد مجلس فى عكا برئاسة البطريرك لبحث هذا الموضوع، واجتمع رأى المجتمعين على الرجوع إلى فيليب اوجسطس ملك فرنسا ليتولى اختيار الزوج المناسب. وللأسف فقد وقع اختيار فيليب على عجوز مفلس يدعى حنا دى برين وكان فى الستين من عمره ليتزوج من ماري التى لم تبلغ العشرين بعد. ولكن ملك فرنسا وجد فى حنا دى برين الصفات اللازمة للصليبيين بالشام. وفى سبتمبر ١٢١٠ وصل العريس المفلس إلى عكا بعد أن زوده كل من البابا وملك فرنسا بمبلغ من المال، وقد استقبله الصليبيون بجميع طوائفهم بالترحاب، وتم زواجه من ماري وتوج ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية فى كاتدرائية صور فى اوائل اكتوبر ١٢١٠م.

ولم يمتد العمر بماري مع هذا الكهل لأكثر من سنتين فتوفيت فى عام ١٢١٢، حزيناً على شبابها الضائع، وبعد أن اتجبت طفلة اسمتها ايزابيلا أو :. لاند. وهكذا أصبح حنا دى برين غير ذى صفة بالنسبة للصليبيين، لأنه تولى الحكم بصفته زوجاً للملكة صاحبة الحق الشرعى، فلما ماتت فقد صفته هذه وأصبح لا شئ. على انه تم الاتفاق سريعاً على ان يتولى حنا دى برين الوصاية على ابنته يولاند حتى تبلغ سن الرشد. وبذلك استمر حنا دى برين ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ولكن بصفته وصى على ابنته يولاند صاحبة الحق الشرعى. وقد قام حنا دى برين هذا بدور كبير فى الحملة الصليبية الخامسة على مصر، كما سنرى خلال عرضنا للاحداث فيما بعد.

الفصل السادس

الحملة الصليبية الرابعة والعاصمة البيزنطية

"أيتها المدينة .. المدينة..

لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس

غضب الله"

خونياتيس

فى سنة ١١٩٨، تولى كرسى البابوية واحد من المع البابوات الذين تولوا هذا المنصب فى العصور الوسطى، وهو لوثر اوف سيجنى Lohtar of Segni الذى عرف باسم البابا اينوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) وهو ينتمى الى عائلة رومانية عريقة هى عائلة Conti سادة مقاطعة سيجنى، وكان يبلغ السابعة والثلاثين من العمر حين تولى منصب البابوية.

وقد درس اللاهوت فى باريس على يد Peter of Corbeil وهو واحد من الرجال اللامعين فى هذا العلم. كما درس أيضاً القانون فى بولونا على يد واحد من أشهر رجال القانون فى ايطاليا وهو Uguccio of Ferrara.

وقد ظهر البابا اينوسنت الثالث فى هذه الفترة ليسترد النفوذ السياسى للبابوية فى ايطاليا وعبر جبال الالب، وليحمى السلطة الاكليريكية من جور السلطة العلمانية. وفى ظل هذا البابا نظمت الحياة الدينية فى الغرب الاوروبى واديرت بشكل لم يسبق له مثيل من قبل، فبينما خلف البابا جريجورى السابع "مرارة الحزن وعظيم القلق" نجد أن اينوسنت الثالث جعل من البابوية "المركز الاكثر تمجيداً على وجه الأرض" وذلك لأن البابا نائب المسيح، وخليفة بطرس، الذى ليس له نظير بين البشر، فهو بصفته نائب المسيح يعتبر "ملك الملوك وسيد السادة"، وهو يجمع فى شخصه بين السلطتين الدينية والدنيوية، لأن كلاهما أتت من نفس المصدر الالهى. وهكذا أصبح البابا على عهد اينوسنت الثالث صاحب السلطة المطلقة فى كل شئ وهو ما يعرف باسم... Plenitudo Potestatis

وكان من رأيه ان البابا هو القاضى الأعلى فى الشئون الدينية والدنيوية على حد سواء، فهو يمثل القانون الجنائى فى الأمور المدنية، كما يمثل القانون

الكنسى فى الأمور الدينية. ولذلك أصبح البابا هو الفيصل الأعلى للمجتمع المسيحى، والمصدر الذى تتبع منه العدالة، والمحكمة العليا التى يرفع إليها الناس شكواهم وأصبحت روما على عهده الملجأ لكل صاحب شكوى مهما كان مصدرها.

أما الأبريشة المقدسة لروما فهى من وجهة نظره "تجلس فى مكان متوسط بين الله والبشر، هى أدنى من الله، ولكنها أعلى من البشر".

ومن أقواله عنها "الأبرشيه، أنا امك ذلك اليوم الذى تجلس فيه فوق الأمم والممالك، ترفع وتخفض، تقهر وتخرب، تزرع وتشيد".

وادعى البابا اينوسنت الثالث، ان الامبراطورية الرومانية قد اختصت الباباوية بشينين هما: -

Principaliter et Finaliter

Principaliter لأن البابوية هى الأصل ، Finaliter لأن الامبراطور يتسلم سلطاته العلمانية من الحبر الأعظم البابا.

وبناء على سلطة البابا المطلقة فى كل شئ التى نادى بها اينوسنت الثالث، كان أول بابا يدعى الحق فى اتفاق ايرادات الكنيسة بالصورة التى يراها هو فقط، وقد أصبح للبابوية على عهده موارد مالية ضخمة، هى الضرائب التى اشترك فى دفعها العالم المسيحى الغربى بوجه عام، وقد ارتبطت هذه الضرائب فى تطورها بالحروب الصليبية ، بعد أن فرضها الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا على

رعياهم العلمانيين والاكليير كيين من أجل الغرض الصليبي. وقد خطا البابا اينوسنت خطوة جديدة فى هذا الشأن عندما اصدر أمراً سنة ١١٩٩ إلى جميع الاساقفة بأن يرسلوا إلى البابوية جزءاً من اربعين ($\frac{1}{4}$) من دخل الاسقفية السنوى المتحصل من جميع ممتلكاتها واقطاعاتها، هذا غير مجموع الضرائب الأخرى التى ظلت البابوية تجمعها عن طريق مباشر عند تعيين الاساقفة وغيرهم من كبار رجال الدين فى مناصبهم، أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران . ونتيجة لذلك أصبحت البابوية فى القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد المالية ما يعادل دخل كل ملوك أوروبا مجتمعين.

وهكذا تمكن البابا اينوسنت الثالث من تحقيق كل ما كانت تطمح فيه البابوية من سمو فى ضوء مبادئ جريجورى السابع واسكندر الثالث. وقد شبه البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس، وبذلك عاد إلى نعمة سيادة البابوية على الامبراطورية.

والمعروف أن البابا اينوسنت الثالث قد اصدر قرار الحرمان على يوحنا الثانى ملك انجلترا، ولما اعترف الملك بخطيئته وأعلن خضوعه، التفت اينوسنت إلى البارونات الاتجليز الذين ثاروا ضد يوحنا واجبروه على كتابة العهد الأعظم، فضرب بهذا العهد عرض الحائط، ثم اصدر قرار الحرمان على هؤلاء البارونات . وهو الذى حافظ على حقوق فردريك الثانى فى مملكة صقلية ، واشعل حرباً مروعة فى المانيا ونادى بأنه من حق البابا تعيين الاباطرة بها أو عزلهم وفقاً لمشينة الكنيسة

ولصالحها^(١). وحاول جاهدا القضاء على الهرطقة الالبيجنسية التي انتشرت في جنوب فرنسا حتى قضى عليها وعلى أهلها^(٢).

قد وضع البابا اينوسنت الثالث نصب عينيه محو اثار الانتصارات التي حققها صلاح الدين على الصليبيين في الشرق. تلك الانتصارات التي توجت بمعركة حطين في ١١٨٧م. والعمل على استرجاع بيت المقدس من يد المسلمين. وبعد أن تولى اينوسنت منصب البابوية بوقت قصير، دعا في منتصف سنة ١١٩٨ إلى الإعداد لحملة صليبية جديدة هي الحملة التي عرفت باسم الحملة الصليبية الرابعة^(٣).

^(١) بخصوص البابا اينوسنت الثالث والبابوية في عهده انظر المراجع التالية:

Jacob (E): Innocent III, in C.M.H. ed Hussey, London, 1975, Vol. VI, pp. 1-6
Barrachogh (g) : The Medieval Papacy, London, 1975, pp. 112-114.

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٢، ج٢، ص ٩.

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص ٢٢١ - ٢٢٣.

^(٢) الالبيجنسية حركة دينية ظهرت في جنوب فرنسا في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، واصحابها ينسبون إلى مدينة البى Albi في كونتيه تولوز فعرفوا بأسم الالبيجنسيين Albigensians وأطلق عليهم كذلك اسم الكاتارين Cathari أي المنطهرين، كانت تعاليمهم ذات أصل شرقي وعلى صلة بتعاليم المانويين ونادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها، وتحريم الزواج وانكار الثالوث المقدس، إلى غير ذلك من الآراء التي خالفت تعاليم الكنيسة، مما جعل الموقف بينها وبينهم مسألة حياة أو موت، قد حاول البابا اينوسنت الثالث إقناع هؤلاء الهرطقة في أول الأمر بالعودة إلى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة فأرسل بعض الوعاظ على رأسهم مقدم دير سيستو ومنلوب من قبل البابا نفسه إلى جنوب فرنسا لتحقيق ذلك ولكن هؤلاء المبعوثين لم يوفقوا في مهمتهم، لذلك أخذ البابا يدعو لحملة صليبية ضد هؤلاء الهرطقة وقامت هذه الحملة بالفعل في سنة ١٢٠٩ ونجحت في مهمتها، مما دفع البابا إلى عقد مجمع ديني في ١٢١٧ قرر منح قائد هذه الحملة وهو سيمون دي مونتفورت أحد أمراء فرنسا، دوقية تولوز وغيرها من اللوقيات المجاورة مكافأة له على نجاحه في القضاء على هذه الحركة، عن ذلك راجع المراجع التالية:

Lavise: Histoire de France, Paris. 1911, Tome 3, Premiere Partie, p. 262-277.
Painter (s) : A History of the Middle Ages. New York. 1954, p. 306.

^(٣) عن كل ما يتعلق بالحملة الصليبية الرابعة راجع:

يسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢.

وقد أرسل البابا إلى إيمار Aymar بطريرك مملكة بيت المقدس يأمره بإرسال تقرير مفصل إلى روما عن الموقف في بلاد الشام وبصفة خاصة مدى قوة حكام المسلمين^(١).

وقام البابا على الفور باتصالات واسعة مع البابطرة والملوك المسيحيين من أجل دعوتهم للاشتراك في هذه الحرب الجديدة ضد المسلمين فأرسل إلى الامبراطور البيزنطي اليكسيوس الثالث انجيلوس يدعو للمساهمة في هذه الحملة وأكد البابا للامبراطور على ضرورة ترك الأمور الأخرى جانبا والاسراع للاشتراك في هذه الحملة خاصة وان قرب الدولة البيزنطية من ميدان المعركة مع المسلمين مما ييسر لها هذه المهمة ومما جاء في خطاب البابا اينوسنت إلى الامبراطور اليكسيوس الثالث قوله : " من يستطيع أن يفعل أكثر منك، أنظر قربك من الميدان حيث يجب أن تشتعل المعركة، ثروتك وقوتك، ضع كل الاعتبارات الأخرى جانبا، وحي لمساعدة يسوع المسيح، ووطنه الذي فاز بدمه. أن المسلمين سيفرون أمامك وأمام جيشك، وأنت يجب أن تشارك مع الآخرين في مساعدة البابوية".

وقد أرسل البابا رسلا من طرفه إلى القسطنطينية من أجل التفاوض على موضوعين، أحدهما موضوع اشتراك البيزنطيين في هذه الحملة الجديدة، أما الموضوع الآخر فهو اتحاد الكنيستين. وقد استقبل البيزنطيون رسل البابا باحترام بالغ. لكن اللهجة المتعالية لخطاب البابا لم تجد صدا طيبا لدى الامبراطور كما أن تجربة البيزنطيين مع الحملة الصليبية السابقة وهي الحملة الثالثة جعلتهم لا يرحبون بالتعاون الفعال مع الصليبيين.

^(١) Luchaire : Innocent III. La question d'Orient, p. 15.

وقد رد الامبراطور على البابا بخطاب أوضح فيه أن الامبراطور فردريك بربروسا أثناء مروره بالأراضي البيزنطية منذ سنوات قليلة. أقسم على عبور تلك الأراضي بسلام وعلى ألا يرتكب أى فعل ضد رعايا الامبراطور، ولكنه نقض قسمه، وقاتل المسيحيين مثلما قاتل المسلمين، وأن الصليبيين منذ بداية الحروب الصليبية وهم يعتدون على الأراضي البيزنطية. ويرفعون السلاح على المسيحيين بها، ويدنسون أيديهم بدمائهم ويجلبون على أنفسهم بذلك غضب الله، وأن من صميم اختصاص البابا أن يثنيهم عن اتيان مثل هذه الأفعال^(١).

وقد وعد الامبراطور البابا بأنه سيبذل كل جهده من أجل العمل على استرجاع الأراضي المقدسة، إذا سمحت ظروف الامبراطورية بذلك.

أما فيما يتعلق باتحاد الكنيستين، فلم تسفر المفاوضات عن شئ، وقد أوضح الامبراطور للبابا رأيه في هذا الموضوع، وهو أن الاتحاد الأفضل لا بد وأن تكون لإحدى الكنيستين فيه السيادة على الأخرى، وأن كنيسة روما تطمح في أن تكون لها هذه السيادة بما تدعيه من أنها الكنيسة العالمية، الكنيسة الأم لكل الكنائس المسيحية. لكن الامبراطور أوضح أن هذا الأمر لا يخص كنيسة روما. ولكنه خاص بكنيسة أورشليم. وبالتالي لا يحق لروما ادعاء السيادة على كنيسة القسطنطينية^(٢).

^(١) أشار البابا اينوسنت الثالث في خطابه إلى الامبراطور اليكسيوس الثالث في ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ إلى ما جاء

في خطاب الامبراطور للبابا، انظر عن ذلك:

Innocentii III Epistolae, in Patrologia Latina, ed Paris, 1855, Vol, CCXIV. Cols. 1123 - 1124.

^(٢) Pears: The Fall of Constantinople, Being The Story of the Fourth Crusade, pp. 226-227.

وكذا لم تحقق دعوة البابا اينوسنت الثالث للامبراطور البيزنطي
الاشتراك في الحملة الصليبية نجاح يذكر. أما في الغرب الاوروبي فقد
صادفت الدعوة نجاحا أكثر، وأخذ رجال الدين يدعون للحملة، كما وضع
صندوق في كل كنيسة لتلقى الهبات المالية من أجل الاعداد لها.

والجدير بالذكر أن أحدا من ملوك أوروبا لم يشارك في هذه الحملة، فقد
شغل كل من فيليب أوجسطس ملك فرنسا ويوحنا الثاني ملك إنجلترا بالصراع
الذي اشتعل بينهما من جهة وبمشاكلهما الداخلية من جهة أخرى^(١). أما فيليب
السوابي ملك المانيا فقد كان يخوض نضالا مريرا مع منافسه على العرش
الالمانى أوتو اوب برنسويك ابن هنرى الأسد^(٢).

على أن ذلك لم يمنع الأمراء والفرسان الغربيين من تقبل الدعوة
فاشترك في هذه الحملة نخبة من أفضل البارونات والفرسان في فرنسا مما
جعل الطابع الفرنسى يطغى على الحملة كذلك اشترك فيها فرسان من إنجلترا
والمانيا، والفلاندرز وصقلية^(٣). وتولى قيادة الحملة ثيبوت كونت شامبني
وبري Thibout Count of Champagne and Brie. الذى كان فى الثانية
والعشرين من عمره آنذاك، كما يذكر مؤرخ الحملة الماريشال جيوفرى
فيلهاردوين^(٤).

^(١) Lavise ; Histoire de France, Paris 1911, Tome 3, Premiere Partie, pp
112-290

Painter (s) ; A History of the Middle Ages, New York, 1954, p. 253.

^(٢) Austin Lane Poole ; Philip of Swabia and Otto IV, in C. M. H. ed Hussey,
London, 1975, Vol, VI, Part 1, ppm 44-71.

^(٣) ذكر فيلهاردوين بالتفصيل أسماء كبار الشخصيات التى اشتركت في هذه الحملة، انظر عن ذلك:

Villehardouin : op. cit. pp. 2 - 3.

^(٤) Ibid : p. 2.

وكانت الخطوة الأولى أمام الصليبيين هي تحديد وجهة الحملة. وقد انقسموا إلى فريقين، فريق يطالب بأن تتوجه إلى بيت المقدس مباشرة للاستيلاء عليها، وفريق آخر رأى أن تكون وجهتهم هي مصر، على أساس أنها الخطر الحقيقي الذي يهدد الصليبيين في الشام، بما لها من إمكانيات مادية وبشرية ضخمة استعان بها الأيوبيون على محاربة الصليبيين. هذا بالإضافة إلى أن إعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت حكم الملك العادل جعل الخطر يتزايد على الصليبيين فيما لو اتجهوا لحصار بيت المقدس أولاً لأنهم عندئذ سيقعون بين فكي الكماشة حين تخرج الجيوش من مصر ومن دمشق في نفس الوقت للقضاء عليهم.

هذا فضلاً عن وجود عدد كبير من التجار الإيطاليين في موانئ دلتا النيل وبصفة خاصة في مدينتي دمياط والاسكندرية ولا شك أن هؤلاء التجار سيتعرضون للانتقام من جانب السلطات المصرية، في حالة حصار الصليبيين لبيت المقدس، فالأفضل أن يبدأ الصليبيون الهجوم على شواطئ مصر الشمالية لحماية هؤلاء التجار وتأمين الجبهة الجنوبية لفلسطين، ثم بعد ذلك يصبح من السهل عليهم الاستيلاء على بيت المقدس، أما عن طريق القوة، أو عن طريق المساومة.

ولهذه الأسباب كلها، تم الاتفاق على أن تكون مصر هي مقصد الحملة الصليبية الجديدة⁽¹⁾.

⁽¹⁾ Grousset (R) : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris 1946, Vol, III p. 171.

Nicol : The Fourth Crusade and the greek and Latin Empires, 1204 - 1261, in C.M.H. ed Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, Part 1, p. 276.

Rumciman (s) : A History of the Crusades, Cambridge University Press. 1966, Vol. 3, p.113.

على أن الصليبيين لم يلبثوا أن واجهوا مشكلة خاصة بكيفية حصولهم على السفن اللازمة لنقلهم إلى مصر، وقد وقع اختيارهم على البندقية لإمدادهم بما يلزمهم من أسطول، وذلك للمركز الكبير والهام الذي كان للبندقية في هذه الفترة. فقد كانت آنذاك في أوج قوتها ومجدها وثرائها. وكان هذا الثراء ناتج عن نشاط أسطولها الضخم في عمليات النقل التجاري بين الشرق والغرب. وبعد قيام الحروب الصليبية أخذ هذا الأسطول يقوم بدور هام في نقل الصليبيين إلى الشرق وكذلك نقل المعدات الحربية لهم وللمسلمين على حد سواء لأن ما يهم البندقية كان هو الكسب المادي الذي تحصل عليه نتيجة لعمليات النقل، أما الصالح الصليبي والبابوية والأراضي المقدسة فهذه كلها الفاظ جوفاء في نظر البنادقة لن يجنوا من ورائها الفساد تجارتهم وكساد نشاطهم، لذلك لم يكونوا ليتأخروا عن التعامل مع المسلمين والمسيحيين، وتقديم خدماتهم للجميع، على الرغم من المنشورات الصريحة التي كان يصدرها بابوات روما بتحريم الاتجار في المعدات الحربية مع المسلمين والتهديد بتوقيع عقوبة الحرمان على كل من يشتغل بهذه التجارة المحرمة ومصادرة ممتلكاته.

وكان للبندقية دار لصناعة السفن، وقد روعى في بناء سفنها التجارية إمكان تحويلها إلى سفن حربية وقت الحرب، وكانت أساطيلها التجارية تجتمع في شكل قوافل وتغادر البندقية مرتين في العام في مواعيد محددة ثابتة تحت إشراف أحد كبار موظفي الحكومة.

وكان هناك خمس قوافل رئيسية، قافلة القسطنطينية وقافلة الاسكندرية وقافلة الشام، وقافلة طانا Tana على سواحل البحر الأسود، وقافلة الفلاندرز في شمال أوروبا.

وفيما يتعلّق بقافلة الاسكندرية فانها كانت تتخذ طريقها من البندقية إلى الاسكندرية مرتين في السنة، واحدة في الخريف والثانية في شهر يناير، وتتكون كل قافلة من ثماني إلى ثلاث عشرة سفينة. وكانت جالية البنادقة بالاسكندرية من أكبر الجاليات عدداً وأكثرها ثراء. وكان لهم حي خاص ينزلون به واشتمل هذا الحي على عدد من الخانات وهي عبارة عن مباني فخمة مربعة على شكل حصون، ولها فناء داخلي حوله الحوانيت في الدور الأرضي وأعلىها مساكن التجار.

أما عن التنظيم السياسي للبندقية، فقد كانت تأخذ بالنظام الجمهوري، وكان الاسم الرسمي لها هو "جمهورية سانت مارك" نسبة إلى القديس مرقس، والمعروف أن رفات هذا القديس كانت موجودة بكنيسة الاسكندرية، لكن اثنين من التجار البنادقة قاموا بسرقتها في سنة ٨٢٨م. ونقلوها إلى البندقية، وشيد دوقها آنذاك ويدعى جستنيان بارتشياكو Justinian Particiaco كنيسة فخمة أودع فيها رفات هذا القديس، وعرفت باسم كنيسة سانت مارك، وأصبحت مركزاً للحياة الدينية في البندقية.

وكان على رأس الجهاز الحكومي للبندقية الدوق Doge الذي يلي منصبه مدى الحياة، وهو رمزا للسلطة أكثر منه مصدرا لها. وكان إلى جانبه هيئات سياسية أخرى، مثل مجلس العشرة، والمجلس الكبير، ومجلس الشيوخ والمجمع، ومجلس الدولة، وكان لهذه المجالس سلطات كبيرة واختص كل منها باختصاصات معينة، حتى يتسنى تنفيذ الأمور في سرعة وحسم بعيداً عن التعقيدات الروتينية والروح البيروقراطية.

وقد تمتع شعب البندقية بحياة ثرية مترفة، ودأب على الاحتفال بمختلف الأعياد الدينية والقومية، وأقامت الحكومة للشعب مسرحاً عظيماً شغف به

للأهالي شغفا كبيرا، وشهدت البندقية الحفلات الفاخرة والولائم والمواكب والاستقبالات الرائعة التي كانت تبهر بها أوروبا بأسرها.

وكانت البندقية على درجة كبيرة من الحضارة وتميزت مبانيها بالفخامة وقد تأثرت في ذلك إلى حد كبير بالحضارة البيزنطية، حتى أن البندقية كانت أقرب البلدان الأوروبية للطابع البيزنطي، وقد تجلى ذلك بوضوح في كنيسة الشهيبة سانت مارك St. Mark التي كانت من نفس طراز كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية، وكذلك في غيرها من المنشآت والمباني. وقد تمتعت البندقية بمركز خاص في القسطنطينية نتيجة للامتيازات التجارية التي حصلت عليها هناك، ولهذا فكثيرا ما كانت تدين بالولاء للقسطنطينية أكثر مما تدين لروما.

على أنها بدأت تعاني من المشاكل مع القسطنطينية في السنوات الأخيرة، وذلك بسبب تغلب نفوذ منافستها جنوا وبيزا في العاصمة البيزنطية، وعلى الأخص في عصر الامبراطور مانويل كومنينوس، الذي شهد صراعا عنيفا بين الطرفين^(١).

على أن الامبراطور اسحاق انجيلوس عقد تحالف جديد مع البندقية في ١١٨٧ ومرة أخرى في ١١٨٩ أعاد لها امتيازاتها السابقة مع دفع تعويض مناسب مقابل أن تضع البندقية أسطولها تحت تصرف البيزنطيين في حالة نشوب الحرب بينهم وبين أعدائهم.

^(١) انظر تفاصيل هذا الصراع في المصدر التالي: -

Kinnamos (Y) : Deeds of John and Manuel Comnenus, Translated to english by Charles M. Brand, Colombia University Press, New York, 1976, Book VI, pp. 209-213

لكن البنادقة بدأوا يشعرون بأن البيازنة لقوا الحظوة على حسابهم وذلك في عهد الامبراطور اليكسيوس الثالث، وقد أرسل دوق البندقية خلال صيف ١٢٠٠ سفارة إلى الامبراطور البيزنطي يطلب دفع الأموال المتأخرة وتجديد الامتيازات التجارية، وبعد ستة أشهر أرسل سفارة ثانية لنفس الغرض وطالت المفاوضات بين الطرفين دون الوصول إلى اتفاق.

وقد بلغت كراهية البنادقة للقسطنطينية ذروتها عندما علموا أن الامبراطور اليكسيوس استقبل في مايو ١٢٠١ سفارة من جنوا وأنه يتفاوض مع زعيمها الذي يدعى Ottobone della Croce من أجل الامتيازات التجارية التي كانت البندقية تعتبرها مقتصرة عليها^(١).

في ذلك الوقت كان دوق البندقية هو انريكو داندولو Enerico Dandolo الذي كان من أشهر الرجال في عصره وكان رجلاً مسناً تخطى الستين من عمره لكنه كان ملئاً بالنشاط والحيوية، طموح إلى المجد، كرس نفسه من أجل العمل لمصلحة جمهوريته، ويقال أنه رغم فقدانه لبصره إلا أنه كان بإمكانه أن يقود جيشاً كبيراً بنفس الكفاءة التي يقود بها أسطولاً ضخماً^(٢).

وهكذا فقد أرسل الصليبيون رسلاًهم إلى البندقية للاتفاق على الاستعانة بأسطولها لنقلهم إلى مصر، وكان هؤلاء الرسل ستة أشخاص أحدهم هو

^(١) Diehl : Une Republique Patricienne, venise, different places; Choniates : Historia, p. 712.

Cessi ® : Venice to the Eve of The Fourth Crusade, in C.M.H. ed. Hussey, Cambridge, 1975, Vol. VI, Part 1, pp. 251-273.

Pears : The Fall of Constantinople, Being of the Fourth Crusade, pp. 231-233.

^(٢) Gibbon (E) The Decline and Fall of the Roman Empire, New York, 1976, Vol 6. pp. 149-150.

فيلهاردوين أما الخمسة الآخرون فكانوا:

Miles The Barbatn, Conon of Bethune,
Alard Maquereau, John of Friaise and
Walter of Gawdoniville.

ووصل هؤلاء الرسل إلى البندقيّة في الأسبوع الأول من فبراير ١٢٠١، وبعد أن قضى الرسل بالبندقيّة أربعة أيام حان موعد لقائهم بالدوق، الذي استقبلهم بقصره هو ومستشاريه وعرض عليهم الرسل طلبهم قائلين: "لقد جننا من طرف بارونات فرنسا الذين اتخذوا الصليب والذين يرغبون في خدمة المسيح واستعادة اورشليم - إذا أراد الله - ولأنهم يعلمون أنه لا يوجد من يمتلك قوة أكبر من قوتك وقوة رجالك لكي يساعدونهم في هذه المهمة، لذلك نستحلفك بالله أن تأخذك الشفقة على الأرض المقدسة، وعار المسيح، وتجب حاجة لورداتنا إلى سفن النقل والقتال"^(١).

وبعد مرور ثمانية أيام تشاور خلالها الدوق مع رجاله، عرض على الرسل شروطه وكانت تشتمل على أن تقدم البندقيّة سفناً لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فرس، وتسعة آلاف مقاتل، وسفناً أخرى لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وعشرون ألف من المشاة، وتعهدت البندقيّة كذلك بتقديم المؤن لرجال الحملة وخيولهم لمدة تسعة أشهر، كل ذلك مقابل أن يدفع لها الصليبيون ماركات عن كل رجل، وأربعة ماركات عن كل فرس وبذلك يصبح مجموع ما يؤديه الصليبيون للبندقيّة ٨٥ ألف مارك.

واستطرد الدوق قائلاً لرسلى الصليبيين: "وحباً في الله سنضيف إلى الأسطول خمسين غالياً Galleys حربية، بشرط أن نكون شركاء في كل

^(١) Villehardouin : op. cit., pp. 4 - 5.

المكاسب التي تحققها الحملة من فتوحات أو أموال في البر أو في البحر بحيث تأخذون النصف وتأخذ نحن النصف الآخر".

وبعد أن تشاور الرسل، أجابوا بأنهم قبلوا شروطه، وتم عقد الاتفاق بين الطرفين، وقد دفع الرسل مبلغ خمسة آلاف مارك فضة إلى الدوق للبدء في تنفيذ الاتفاق، وأرسلوا رسلاً إلى البابا اينوسنت الثالث في روما ليخبروه بهذا الاتفاق ثم عادوا لبلادهم^(١).

فى ذلك الوقت توفى تيبوت كونت شامبنى وقائد الحملة، وكان على الصليبيين أن يختاروا قائدا آخر يحل محله وقد وقع اختيارهم على الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات الذى كان قريبا لفيليب السوابى ملك المانيا، فقد كان وليم أوف مونتفرات والد بونيفيس متزوجا من صوفيا Sophia ابنة فردريك بربروسا وهى أخت (غير شقيقة) لفيليب السوابى وقد ساهمت عائلة مونتفرات بنصيب كبير فى الحروب الصليبية وكان لوليم أربعة أبناء، تركوا بصماتهم على تاريخ الحروب الصليبية، فأكبرهم وهو وليم واسم الشهرة له هو Longsword تزوج فى ١١٧٥ ابنة بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، وتسلم بآننة مدينتى يافا وعسقلان ولكنه توفى بعد شهرين من الزواج. أما الابن الثانى كونراد الذى أصبح ماركيز أوف مونتفرات عند موت وليم، فقد ذهب إلى الشرق وساعد الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس على مقاومة حصار القائد البيزنطى الثائر براناس للقسطنطينية عام ١١٨٦ وهزم باراناس وأرسل رأسه للامبراطور، وتزوج من ثيودورا شقيقة الامبراطور اسحاق، ثم ذهب إلى فلسطين فى ١١٨٧ حيث لعب دورا هاما خلال الأربع سنوات التالية، وقاوم حصار صلاح الدين والمسلمين لمدينة عكا، وبعد زواجه من ايزابيلا Isabella وريثه مملكة بيت المقدس وبعد مصادمات مع ريتشارد ملك

⁽¹⁾ Villehardouin : op. cit., pp. 6 - 8.

انجلترا، اتخذ لقب ملك بيت المقدس، ولكنه قتل في ١١٩٢ قتل أحد أفراد
فرقة الاسماعيلية.

أما رينيه وهو الابن الثالث، فقد تزوج من ماريا ابنة الامبراطور
البيزنطي مانويل كومنينوس، وتسلم كباتنه مدينة سالونيك وقد مات دون أن
ينجب.

وهكذا لم يتبقى من هؤلاء الابناء سوى الابن الاصغر وهو بونيفيس
الذي صار ماركيز اوف مونتفرات.

وقد ساهم بونيفيس كذلك في الحروب الصليبية ووقع أسيراً في يد
صلاح الدين، وأطلق سراحه أثناء تبادل الأسرى، وعرف عن بونيفيس دماثة
الأخلاق والشجاعة في القتال، وكان بلاطه في مونتفرات مزدهراً بالفنانين
وشعراء التروبادور.

وهكذا فقد أرسل اليه الصليبيون يطلبون منه الحضور إلى سواسون
Soisson للتشاور معه، فلبى طلبهم واستقبل في سواسون باحترام بالغ،
وتوسل إليه البارونات أن يشترك في الحملة الصليبية وأن يقبل تولى قيادة
الجيش الصليبي. وقد استجاب بونيفيس لرجائهم، وفي سبتمبر ١٢٠١ اتخذ
شارة الصليب في كنيسة نوتردام في سواسون، وتسلم قيادة الجيش، ثم عاد
إلى بلاده لتدبير بعض الأمور الخاصة به، وتم الاتفاق على أن يلحق بهم بعد
ذلك في البندقية^(١).

^(١) Villehardouin : op. cit., pp. 10 - 11.

Nicol : op. cit., pp. 277.

Pears : op. cit., pp. 27 - 273.

وفى ٢٢ يوليو ١٢٠٢ وصل إلى البندقية الكاردينال بطرس كابوانو
Peter Capuano نائبا عن البابا فى الحملة.

اجتمع الصليبيون فى جزيرة سانت نيقولا St Niolas (الليدو) التابعة
للبنديقية، وهناك طالبهم الدوق داندولو بدفع المبلغ الذى اتفق عليه، لقاء نقلهم
بالأسطول إلى الشرق فأخذ الصليبيون يحاولون جمع المبلغ، وفى النهاية لم
يتمكنوا من جمع أكثر من ٣٤ ألف مارك.

هنا غضب الدوق أشد الغضب، واتهمهم بالخداع وهددهم بأنه فى حالة
عدم دفعهم المبلغ كاملا فإنه سيتركهم فى هذه الجزيرة دون طعام أو شراب
حتى يهلكوا^(١).

عندئذ اجتمع البارونات وبذلوا جهدا كبيرا حتى استطاعوا جمع مبلغا
آخر دفعوه للدوق وتبقى لدى الصليبيين مبلغ ٣٦ ألف مارك يجب أن تدفع
للبنادقة.

وقد استغل الدوق هذا الموقف ليوجه الحملة الصليبية الوجهة التى تتفق
ومصالح جمهوريته. فعرض على الصليبيين أن يؤجل لهم دفع الدين، مقابل
أن يساعدوه فى الاستيلاء على مدينة زارا على البحر الادرياتيكي فى اقليم
سكلافونيا التى كانت تابعة للبنادقة ثم إنتزعها منهم ملك هنغاريا.

وقد علل لهم الدوق هذا العمل بقوله - كما يذكر روبرت كلارى - أنهم
فى فصل الشتاء، ولن يستطيعوا أن يذهبوا إلى الاراضى المقدسة، التى كان
المفروض أن يتخذوا طريقهم إليها قبل حلول هذا الفصل، وأن الصليبيين هم

^(١) Clari ® : Laconquete de constantinople, Editeepar lauer, paris, 1924. p.10

المسئولون عن هذا التعطيل، وأنه من الأفضل لهم أن يتعاونوا مع البنادقة في الاستيلاء على زارا التي ستمدهم بالكثير من المؤن ليتزودوا بها خلال رحلتهم بعد ذلك للأراضي المقدسة.

وقد وافق البارونات وكبار رجال الحملة على اقتراح الدوق^(١) والجدير بالذكر أن الماركيز بونيفيس أوف مونتقرات قائد الحملة لم يكن موجودا مع الصليبيين آنذاك ولم يشترك معهم في الهجوم على زارا^(٢)، وذلك لوجوده في المانيا للتباحث مع فيليب السوابي والامير البيزنطي اليكسيوس انجيلوس^(٣).

وقبل الذهاب إلى زارا أعلن الدوق عن رغبته في اتخاذ شارة الصليب والانضمام إلى الحملة الصليبية الازاهية لتحرير قبر المسيح، وخطب فيهم خطبة مؤثرة أوضح فيها أنه رغم عجزه وكبر سنه إلا أنه قرر أن يصحبهم إلى الأراضي المقدسة في فلسطين وأما أن يعيش معهم أو يموت بينهم، وفي كنيسة سانت مارك في البندقية احتفل باتخاذ شارة الصليب التي وضعت على قبعته البيضاء الكبيرة وحذا حذوه جمع غفير من البنادقة^(٤).

ومن المستغرب أن يكون أول عمل يقوم به الدوق بعد اتخاذ الصليب هو قتال مدينة زارا وأهاليها المسيحيين. وفي أكتوبر ١٢٠٢ اتخذت سفن البندقية المحملة بالصليبيين طريقها إلى زارا، التي وصلوا أمامها في ١٠ نوفمبر ١٢٠٢ وفي اليوم التالي مباشرة أي في ١١ نوفمبر ١٢٠٢ بدأ حصارهم لها. وقد كانت المدينة على جانب كبير من القوة والمناعة حتى لقد

^(١) Clari : op. cit., pp. 11 - 12.

^(٢) Villehardouin : op. cit., p. 19.

^(٣) Nicol : op. cit., p. 197

^(٤) Villehardouin : op. cit., pp. 16 - 17.

دهش الصليبيين من شدة حصانتها وقالوا بأنهم "لن يستطيعوا اقتحامها بالقوة إلا بمساعدة من الله ذاته".

أثناء حصار الصليبيين لزارا قام أحد الاخوة السيستر شيان^(١) Cestercians بتحذيرهم من قتال المدينة حيث أنها مسيحية وهم مسيحيون ومتخذون شارة الصليب أيضا مما يعرضهم لغضب بابا روما. لكن دوق البندقية غضب غضبا شديدا لدى سماعه لهذا التحذير، ولجأ إلى التهديد ليجبر الصليبيين على مساعدته بعد أن شعر بترددهم، فأوضح لهم بأنهم إذا تخلوا عنه فانه سيقوم بالاستيلاء على المدينة عن طريق الاتفاق مع أهلها وان الصليبيين سيكونون بطبيعة الحال خارج هذا الاتفاق وبالتالي فإنهم لن يحصلوا على أية مكاسب مادية. عندئذ وافق البارونات على مساعدته والاستمرار في المهمة حتى نهايتها. وفي اليوم التالي أخذوا في مهاجمة أسوار وأبراج المدينة، حتى أعلن أهلها الاستسلام للدوق مقابل الإبقاء على حياتهم. عندئذ ذهب الدوق إلى البارونات وقال لهم: "سادتي .. لقد تم استيلاؤنا على هذه المدينة بفضل الله، وبفضل مساعدتكم، ولن نستطيع الذهاب للشرق الآن، لأننا في فصل الشتاء، ولأننا لن نجد أية أسواق في أى مكان آخر تمدنا بما نحتاجه، وهذه المدينة على جانب كبير من الثراء،

^(١) الاخوة السيستر شيان هم جماعة من الرهبان التابعين لدير سيتو - في برجنديا - الذى تم تأسيسه فى سنة ١٠٩٨ بواسطة بعض الرهبان البندكتيين الذين رغبوا فى حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة آنذاك. وكان هذا النظام الجديد محاولة لاتخاذ طريق وسط بين الاستقلال المحلى الذى تمثل فى الديرية البندكتية، والمركزية المطلقة التى اتبعتها الديرية الكلونية، وقد أخذ هذا النظام ينمو فى سرعة فائقة وانتشر فى جميع أنحاء غرب أوروبا بفضل مميزات الواضحة من ناحية، وجهود القديس برنارد (١٠٩١ - ١١٥٣) من ناحية أخرى، للمزيد عن هذا النظام راجع:

Workman: The Evolution of the Monastic ideal, London, 1928, pp.239 - 244.

ومزودة بكل المؤن، دعونا نقسمها بالنصف، وسأخذ النصف، وأنتم النصف الآخر" (١).

وهكذا تم تقسيم مدينة زارا بين الطرفين، فأخذ البنادقة النصف الذى به الميناء، وأخذ الصليبيون نصف المدينة الآخر، ونصبوا معسكرهم هناك، على أن العداء لم يلبث أن تفجر بين البنادقة والصليبيين وهرع كل منهم إلى حمل السلاح واقتتلوا فى شوارع المدينة بمختلف أنواع الأسلحة التى معهم واستمر القتال أسبوعا، وألحق الصليبيون نظرا لتفوقهم فى العدد خسائر كبيرة بالبنادقة. وقد بذل دوق البندقية والبارونات الكثير من الجهد حتى نجحوا فى اقرار السلام بين الطرفين. وبعد أن قضى الصليبيون بزارا ما يقرب من الأسبوعين، وصل الماركيز بونيفيس اوف مونتفترات (٢).

فى ذلك الوقت كانت الاخبار قد وصلت إلى البابا اينوسنت الثالث فى روما بانحراف هذه الحملة عن هدفها الاساسى واتجاهها ضد مدينة زارا، وقتال أهاليها المسيحيين. فاستشاط البابا غضبا، وذلك لسببين، أولهما قتال مدينة مسيحية والحاق الاذى بأهاليها المسيحيين، والثانى لأن معنى ذلك أن السيطرة على الحملة لم تعد للبابا وانما آلت لأشخاص آخرين. لذلك أوقع البابا قرار الحرمان على الحملة الصليبية كلها (٣). وهنا اسقط فى يد الصليبيين، وأدركوا إلى أى مدى تورطوا فى هذا العمل.

وقد اجتمع البارونات للتشاور، وتم الاتفاق على ضرورة ارسال وفد يمثلهم إلى البابا فى روما ليلتمسوا منه العفو عنهم ورفع قرار الحرمان.

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 20 - 21.

(2) Villehardouin : op. cit., pp. 21 - 22.

(3) Nicol : The Fourth Crusade, p. 180.

Runciman: The History of the Crusades, Vol. 3. p. 115.

Gibbon: The Decline and Fall of the Roman Empire Vol. 6, p. 153.

واختاروا اثنين من الاكليركيين هما نيفلون Nevelon أسقف سواسون، ويوحنا أوف نويون John of Noyon الذى يتبع بلدوين كونت فلاندرز وهينولت، وصحبهما فارسان هما: Robert of Bones and John of Friaize على أن روبرت تركهم واتخذ طريقه إلى سوريا، وهكذا أصبح الوفد مكونا من ثلاثة أشخاص فقط، وحين قابلوا البابا قالوا له:

"ان البارونات يطلبون عفوك من أجل استيلائهم على زارا فقد كان هذا التصرف طائش وأثم، ولذلك فإنهم يقدمون أنفسهم لك بصفتك والدهم الطيب، وهم على أتم استعداد لتنفيذ جميع أوامرك".

فرد عليهم البابا موضحا بأنه يدرك تماما أن هذا الخطأ الذى ارتكبه الصليبيون هو خطأ الآخرين - يقصد البنادقة - وأنه يأسف أشد الأسف لما فعلوه. على أنه فى النهاية غفر لهم فعلتهم هذه، ورفع عنهم قرار الحرمان وقصره على البنادقة فقط، ثم زودهم بنصحه وتعليماته التى نصت على تماسكهم وتعاونهم من أجل خدمة الرب. وقد منح البابا كل السلطات لرجلى الدين نيفلون ويوحنا من أجل العمل على اتحاد جيش الصليبيين ، حتى يلحق بهم كاردينالا من طرفه^(١).

وهكذا تم للبنادقة التبرير بالحملة الصليبية الرابعة واستغلالها لتحقيق مصالحهم الخاصة، بدلا من توجيهها للشرق ومحاربة المسلمين، وكان هذا أول انحراف يحدث لهذه الحملة الصليبية.

^(١) Villehardouin : op. cit., p. 26.

Runciman : A History of the Crusades, Vol. 3, p. 115.

Nicol : The Fourth Crusade, p. 280.

أما الانحراف الثاني في خط سير هذه الحملة الغربية فكانت ضحيته
العاصمة البيزنطية القسطنطينية وذلك على النحو الذي سيتضح خلال عرضنا
التالي للأحداث.

استعرضنا فى الصفحات السابقة التفاصيل الخاصة بالحملة الصليبية الرابعة من حيث الدعوة لها والدور الذى لعبته البندقيّة فى العمل على الانحراف بالحملة عن هدفها الاساسى ومهاجمة مدينة زارا والاستيلاء عليها، واقتسامها مع الصليبيين وصدى ذلك عند البابا اينوسنت الثالث.

وفى أثناء ذلك كان الامير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس، قد أكمل رحلته ووصل إلى المانيا حيث قوبل بالترحاب من جانب شقيقته إيرين وزوجها فيليب السوابى، ولا شك أن اليكسيوس قد أخبر فيليب بالاتصالات التى تمت بينه وبين زعماء الحملة الصليبية أثناء مروره بشمال إيطاليا. وبما أن فيليب كان لا يستطيع أن يقدم المساعدة العسكرية لاليكسيوس نظرا لاشتعال الحرب الاهلية فى المانيا وقتذاك. وبما أن قائد الحملة الصليبية وهو الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات كان ابن أخت فيليب السوابى، وبالتالى يسهل التأثير عليه من جانب خاله فيليب، بالاضافة لما ذكره المؤرخ الفرنسى الكونت ريان عن الدوافع الخاصة لدى فيليب السوابى وأهمها ان يعيد العرش البيزنطى لحماية إسحاق أجيلوس، وأن يثبت للبابا دوره القيادى فى توجيه الحملة الصليبية مما يخدم نضالة ضد البابوية⁽¹⁾ لهذا كله فالمرجح أن فيليب قد وافق على الاستعانة بالحملة الصليبية من أجل استرداد العرش البيزنطى لوالد زوجته اسحاق انجيلوس.

وقد تباحث كل من فيليب واليكسيوس، واشترك معهما فى المباحثات الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات وذلك أثناء زيارته لألمانيا فى أوائل

(1) Riant : Innocent III ,Philipp de souabe et Boniface de Montferra , Reuve des questions historque , xvii , 1875 , pp. 331-366 , xviii 1876 , pp.69-72.

عام ١٢٠٢، حول الامتيازات التي سيقدمها اليكسيوس للجانب الصليبي مقابل المساعدة العسكرية التي سيحصل عليها من الحملة الصليبية^(١).

وفي ديسمبر ١٢٠٢ وبعد ما يقرب من الشهر بعد فتح الصليبيين لمدينة زار وصل إليها رسل الملك فيليب، وسلموا لزعماء الحملة رسالة الملك فيليب إليهم وبها الشروط المعروضة عليهم، وجاء المؤرخ فيلهاردوين بنص الرسالة وكانت كالتالي^(٢):

"سادتي، سأرسل لكم شقيق زوجتي، وأضعه بين يدي الله - الذي ربما حفظه من الموت - وبين أيديكم.

ولأنكم اتخذتم موقفا نزيها تجاه الله وتجاه الحق وتجاه العدالة، لذلك أرجو أن تتعاونوا - قدر استطاعتكم - من أجل استرداد ميراثه الذي سلب منه ظلما. وشقيق زوجتي سيقدم لكم أفضل الشروط، وسيمنحكم المساعدة الأكثر فعالية من أجل استرداد الأراضي المقدسة.

أولا - إذا الله هيا لكم استرداد ميراثه، فإنه سيخضع امبراطورية رومانيا (الامبراطورية البيزنطية) لسلطان البابوية التي انفصلت عنها طويلا.

وهو يعلم أنكم انفقتم ثرواتكم، وأنكم فقراء، لذلك فإنه سيمنحكم ٢٠٠,٠٠٠ مارك من الفضة، وسيقدم المون لكل من في الجيش، صغيرا أكان أم كبيرا.

^(١) Pears : The Fall of Constantiople, Being The Story of the Fourth Crusade, pp. 273 - 275.

Nicol : The Fourth Crusade, p. 278.

^(٢) Villehardouin : op. p. 22.

وهو بشخصه سوف يذهب معكم لأرض بابلليون (مصر) أو إذا رأيتم أفضل من ذلك، فانه سيرسل إلى هناك ١٠,٠٠٠ مقاتل على نفقته الخاصة. وطوال حياته، فانه سيضع على نفقته الخاصة أيضا خمسمائة فارس في الأراضي المقدسة لحراستها.

وقد أوضح الرسل انهم مزودون بكافة السلطات التي تتيح لهم ابرام الاتفاق مع الصليبيين، ثم أخذوا يوضحون أهمية هذه الامتيازات التي يقدمها لهم الامير البيزنطي وانهم اذا رفضوها برهنوا على أنهم ليسوا جديرين بالمجد والفتح.

وقد طلب البارونات والدوق داندولو منحهم مهلة حتى اليوم التالي للتفكير والتشاور في هذا الامر.

واتناء المشاورات التي جرت بين الصليبيين والبنادقة أوضح جماعة السيسترشيان رأيهم من أنهم لا يوافقون على هذا العرض، وأنهم لم يتركوا أوطانهم من أجل محاربة المسيحيين، وأكدوا على ضرورة التوجه مباشرة لقتال المسلمين في سوريا. فرد عليهم أحد الصليبيين موضحا بأنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا في سوريا وأنه عن طريق مصر أو الدولة البيزنطية فقط سيتمكنون من استعادة الاراضي المقدسة، وانهم إذا لم يوافقوا على هذه الشروط، فأنهم سوف يندمون كثيراً فيما بعد^(١).

وقد وافق قائد الحملة المركزي بونيفيس اوف مونتفرات على هذا العرض والمرجح أن الامر كان متفقاً عليه من قبل بينه وبين الملك فيليب.

^(١) Villehardouin : op. cit., p. 24.

والأمير إليكسيوس انجيلوس، وذلك أثناء الاتصالات التي تمت بين هذه الأطراف في أوائل عام ١٢٠٢، كما سبقت الإشارة.

كذلك وافق على العرض باقى البارونات، وابلغوا موافقتهم لدوق البندقية، فوافق هو الآخر، وتم إبرام الاتفاق بين الطرفين، وقد مثل الصليبيون اثنى عشرة شخصا كان من بينهم الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات والكونت بلدوين أوف فلاندرز وهينولت والكونت لويس أوف بلواو شارتر^(١).

وهكذا تم انحراف هذه الحملة الصليبية وللمرة الثانية ضد مدينة مسيحية، ولكن ما هو موقف البابا اينوسنت الثالث من هذا الانحراف الثانى للحملة؟

حين وصلت هذه الاخبار إلى روما، علم البابا بأن فيليب السوابي واليكسيوس نجحا فى التأثير على الصليبيين وتحويل اتجاه الحملة وبذلك خرج أمرها من يده، وقد أوضح البابا لرسل الحملة الذين كانوا فى روما أن الصليبيين لا يملكون الحق فى التدخل فى الاحداث الداخلية الخاصة بالبيزنطيين.

"Vos nullam in greacos jurisdictionem habentes"⁽²⁾

وحذرهم أكثر من مرة من مهاجمة الدولة البيزنطية Romania بحجة أن الضرورة تقتضى ذلك، وقد أرسل البابا اينوسنت خطابات إلى الصليبيين عاد بها رسلهم، أوضح فى أحد هذه الخطابات أن الصليبيين أمروا بأن يقسموا على الطاعة، وقد اشتمل هذا القسم على وعد بعدم مهاجمة البيزنطيين

^(١) Villehardouin : op. cit., p. 24.

⁽²⁾ Innocent III Epistolae. VIII.

وحذرهم البابا بأنهم إذا لم يقسموا على ذلك ويمتثلوا لأوامره فإن العفو الممنوح لهم نتيجة هجومهم على زارا سوف يصبح De Facto أى باطلا^(١).

وقد أعفى الكاردينال بطرس كابواتو من منصبه كنائب عن البابا في الحملة وحل محله اثنين آخرين هما:

John de Friaise and Mohon Faicete.

وقد أمر أحدهما بأن يذيع قرار الحرمان الخاص بالبنادقة.

أما فيما يتعلق بالقسم، فإن بونيفيس أوف مونتفرات استغل نفوذه كقائد للحملة، وتلاعب في هذا الموضوع بأن أخفى عن الصليبيين أوامر البابا الخاصة بالقسم، وأخبر قلة قليلة من الزعماء فقط، وأرسل قسمهم بالوعد بعدم مهاجمة البيزنطيين إلى روما^(٢).

وفي بداية إبريل ١٢٠٣، أرسل البابا رسلا من طرفه ومعهم خطاب منه إلى الصليبيين في زارا، وقد احتوى خطاب البابا على أمرين، الأول: تأكيد بالعفو الممنوح لهم، والثاني: أمر رسمي من البابا ألا يهاجم الصليبيين البيزنطيين إلا في حالة واحدة فقط هي رفضهم امداد الحملة بالمؤن والزيادة^(٣).

وقد أذيع الجزء الأول من الخطاب على الصليبيين، أما الجزء الثاني فقد تدخل بونيفيس أوف مونتفرات ومنع اذاعته على الجيش الصليبي^(٤).

^(١) Pears : op. cit., p. 288.

^(٢) Pears : op. cit., p. 288.

^(٣) Innocent III : Epistolae, VI, P. 102.

^(٤) Pears : op. cit., pp. 289 - 290 .

وهكذا أصبح غالبية الصليبيين لا يعلمون شيئا عن موقف البابا اينوسنت الثالث وتحذيره من هجومهم المنتظر على العاصمة البيزنطية. وفي ٧ ابريل ١٢٠٣ رحل الجيش الصليبي عن زارا بعد أن قاموا بتخريب أسوارها وابراجها، بينما تخلف في زارا الماركيز يونيفيس والدوق داندولو في انتظار وصول الامير البيزنطي اليكسيوس انجيلوس الذي سيصاحبهم في حملتهم ضد القسطنطينية.

وفي ٢٥ ابريل ١٢٠٣ وصل اليكسيوس إلى زارا فاستقبله الماركيز والدوق بترحيب كبير وفي ٤ مايو لحقوا بالجيش عند كورفو.

ويصف فيلهاردوين فرحة الصليبيين جميعا حينما علموا بوجود الامير البيزنطي بينهم في المعسكر وقدموا إليه يحيونه ويرحبون به ونصبوا خيمته في وسط المعسكر بجوار خيمة قائد الحملة الماركيز يونيفيس الذي أوكل إليه الملك فيليب السوابي مهمة حماية اليكسيوس والاهتمام بأمره^(١).

عسكر الجيش الصليبي في كورفو لمدة ثلاثة أسابيع، ثم غادروها في ٤ مايو ١٢٠٣، واتجهوا إلى جزيرة اندروس فاستقبلهم أهاليها بالترحيب وأعلنوا خضوعهم للامير اليكسيوس فتركها الصليبيون واتخذوا طريقهم إلى ابيدوس فسلمها إليهم الاهالي ووضعوا بها حامية، وفي ٢٣ يونيو ١٢٠٣ وصلوا إلى سانت ستيفان St. Stephin على بعد ثلاثة فراسخ من القسطنطينية.

اجتمع اللوردات البارونات من أجل التشاور فيما ينبغي عمله، فأقترح عليهم دوق البندقية أن يذهبوا إلى جزيرة خليقدونية Chalcedon لمواجهة للقسطنطينية على الضفة الاسيوية للبسفور، ليتزودوا بالمؤن ثم بعد ذلك

^(١) Villehardouin : op. cit., p.27.

يذهبوا لحصار العاصمة، وبناء على نصيحته توجهوا إلى خليدونية و...
حصلوا على كل ما يحتاجونه من مؤن أبحروا في اليوم الثالث إلى سكرتري،
Scutari على مضيق البوسفور، وبدأوا في فرض الحصار البحري على مدينة
القسطنطينية^(١).

والواقع أن معظم الصليبيين المصاحبين للحملة كانوا يرون هذه المدينة
لأول مرة، ومن ثمة فقد أصيبوا بالدهشة الممزوجة بالاعجاب لهذه المدينة
ذات الاسوار العالية والابراج التي تحيط بها من كل جانب، وقصورها البالغة
الثراء وكنائسها الشامخة واتساع المدينة الذي فاق - كما يقول فيلهاردوين -
اتساع أية مدينة أخرى^(٢). فان قاعدة المثلث الذي تقوم عليه المدينة كانت
تقارب الخمسة أميال، وكانت القسطنطينية تستطيع أن تفاخر كروما بتلالها
السبع، وكانت تلك التلال تنهض كالجدار على البوسفور والقرن الذهبي.

وعند بداية القرن الثالث عشر الميلادي، كانت القسطنطينية هي المدينة
الرئيسية في العالم الغربي، وقد منحها هذا المركز كثير من المميزات، منها
موقعها الجغرافي، فهي تقع عند نقطة التقاء قارتي أوروبا وآسيا، وتحيط المياه
بالمدينة من جانبيها، وكان مضيق البوسفور والدردنيل يمثلان ممران طبيعيين
للتجارة، مما جعل القسطنطينية مركزاً تجارياً فريداً نتيجة لسيطرتها على
طرق التجارة بين غرب أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأسود وشواطئ
بحر مرمرة.

وكان القرن الذهبي وهو الميناء الطبيعي للعاصمة محمياً من أية
تيارات عنيفة، كما كان نصفه عميقاً لدرجة تسمح لأية سفينة كبيرة من
الوصول إلى الشاطئ بسلام ونصفه الآخر كان ضحلاً وفسيحاً لدرجة تكفل

^(١) Villehardouin : op. cit., pp. 29 - 33.

^(٢) Villehardouin : op. cit., p. 31.

دخول المراكب الصغيرة. ولما كانت المياه تتدفق فى مضيق البوسفور نحو الشمال ونحو الجنوب، فقد منح ذلك المدينة الجو الصحى الممتاز نتيجة لاستمرار تجدد الهواء.

وقد امتازت القسطنطينية بمجموعة ضخمة من المباني الرائعة، ومن أهمها الكنائس الفخمة بقبابها المرتفعة، وقيل بأنه بلغ من كثرة الكنائس بها أنه وجدت كنيسة على ناصية كل شارع، ومنها على سبيل المثال كنيسة أيا صوفيا وكنيسة الرسل، وكنيسة القديسة ايرين، وكنيسة القديسة ماري، والقديس سرجيوس، والقديس توماس وغيرها. وكانت قباب هذه الكنائس مغطاة بالذهب، كما كان بعضها يضم أعمدة من الذهب والفضة وثريات لا تعد من نفس هذه المعادن الثمينة.

أما مجموعة الآثار المقدسة التى حوتها هذه الكنائس فكانت على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للمسيحيين فى كل مكان، ويقول فيلهاردوين أن مجموعة الآثار الدينية الموجودة بالقسطنطينية تعادل فى كثرتها الآثار المقدسة الموجودة فى باقى أنحاء العالم المسيحى وكله مجتمع.

والواقع أن الدافع وراء غنى القسطنطينية بهذه الآثار هو محاولة تخليصها من (العقدة) التى عانت منها بسبب افتقارها إلى مثل هذه الآثار، لأن أحدا من الرسل لم يشرفها بالذهاب إلى موضعها أو الاستشهاد بالقرب منها، أو تأسيس كنيسة بها، فأين هى من بيت المقدس، ذلك المركز الدينى الهام الذى لا يمكن أن تتناول إليه أية مدينة مسيحية أخرى. وأين هى من انطاكية، مدينة البطارقة العظام والمجامع الدينية العديدة، وهى المدينة التى أطلق على الحواريين فيها لأول مرة اسم المسيحيين، وأين هى من روما التى شرفها القديس بطرس أمير الحواريين ببناء كنيسته بها وهى الكنيسة التى أصبحت

فيما بعد تضم رفاتة؟ ان القسطنطينية ذاتها لم تؤسس إلا في فترة «...» نسبياً في القرن الرابع الميلادي.

ورغبة من الاباطرة البيزنطيين في تخليص عاصمتهم من هذه العقدة، فإنهم كانوا حريصين على جمع الآثار الدينية من مختلف البلاد، وحفظها بالقسطنطينية حتى يكسبها ذلك التشریف الديني الذي تفتقر إليه. ويروى التاريخ مواقف عديدة توضح مدى اهتمام الاباطرة بهذا الأمر.

ففي عصر الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩) نازلت الجيوش البيزنطية مدينة الرها في عام ٩٤٤، ويذكر المؤرخ يحيى الانطاكي "ان البيزنطيين التمسوا من أهلها ايقونة المنديل الذي كان سيدنا يسوع المسيح مسح به وجهه وصارت صورته فيه، وبذل لهم الروم أنهم إذا سلموهم هذا المنديل اطلقوا من الاسارى المسلمين الذين بيدهم عددا ذكروه لهم". ثم أوضح هذا المؤرخ أن أهل الرها وافقوا على طلب البيزنطيين بعد الرجوع إلى أولى الأمر في بغداد، وكيف أن البيزنطيين حملوا هذا المنديل في موكب كبير إلى العاصمة البيزنطية حيث استقبله الامبراطور والبطريرك والشعب استقبالا حافلا، وحمل هذا المنديل إلى كنيسة آيا صوفيا، ثم إلى كنيسة العذراء الملحقة بالقصر الامبراطوري الكبير Vierge Du-Phare ليحفظ بها^(١).

ويروى نفس المؤرخ حادثة أخرى، وهي حرص الامبراطور نقفور فوقاس على أخذ القرميدة التي تحمل آثار وجه السيد المسيح من مدينة منبج في عام ٩٦٦م، وحين أخرجها إليه أهلها لم يعرض لهم بمكروه^(٢).

(١) يحيى الانطاكي : التاريخ، ص ٩٨ - ٩٩.

Walter (g) : La Ruine de Byzance, ed. Albin Michel Paris, 1958, p. 143.

(٢) يحيى الانطاكي : التاريخ، ص ١٢٧.

أما الامبراطور يوحنا تريمسكس (٩٦٩ - ٩٧٦) فقد أعلن بكل فخر واعتزاز حصوله على عدد من الآثار المقدسة الهامة أثناء غزوته لبلاد الشام عام ٩٧٥م، فقال في خطابه الى آشوط الثالث ملك أرمينيا المسيحي: " .. أننا عثرنا في جبله على النعلين المقدسين اللذين سار بهما المسيح حينما ظهر على الأرض، كما وجدنا ايقونة المخلص - المسيح - تلك التي كان قد طعنها اليهود فسال منها في التو دم وماء. ولكننا لم نلاحظ في هذه الايقونة طعنة الحربة. ووجدنا كذلك في المدينة شعر القديس يوحنا المعمدان الرسول وهو شئ نفيس. وبعد أن جمعنا هذه المخلفات، حملناها معنا لنحتفظ بها في مدينتنا - القسطنطينية - التي يكلاها الرب برعايته^(١) ."

هذا وقد أوضح الراهب انتوان Antoine الذي أصبح فيما بعد رئيس اساقفة نوفجورود Novgorod والذي زار القسطنطينية في أوائل القرن الثالث عشر وقبل فتح الصليبيين لها بثلاث سنوات، قيمة واماكن الآثار الدينية الموجودة بالعاصمة البيزنطية بمنتهى الدقة. وعلى سبيل المثال، فان آثار المسيح منذ مولده موجودة بصفة خاصة في كنيسة أيا صوفيا ففيها يوجد لفائف (أقمطة) المسيح وهو طفل، وأواني الذهب المملوءة بالهدايا التي احضرها الأهالي للطفل يسوع. وقميصه ووشاحه وحزامه وعصاه ونعليه، وقطعة من الخشب كان المسيح يعلقها في عنقه، وحوض غسل بداخله اقدام تلاميذه (الحواريون). والمنضدة التي تعشى عليها في خميس الاسرار، وخشب الصليب والمنشار والمسامير، وتاج الشوك والحربة والدم المقدس، وبلاطة من القبر المقدس^(٢) .

^(١) أنظر نص الرسالة في المرجع التالي:

عمر كمال توفيق: يوحنا تريمسكس وسياسته الشرقية، الملحق رقم (١). ص ١٧٠ - ١٧١.

^(٢) Walter : La Ruine de Byzance, p. 144.

وهناك مجموعات أخرى من الآثار المقدسة ضمتها بعض الكنائس^(١)، ولم يكن ينقضى قرن من الزمان حتى تضاف مجموعات جديدة، كما حرص البيزنطيون على نقل رفات القديسين إلى عاصمتهم، فاحضرت هيلين والدة الامبراطور قسطنطين الاكبر، رفات القديس دانيال، ووصلت للعاصمة رفات القديسين تيموثي واندراوس ولوقا في عهد الامبراطور فنسطانز (٣٣٧ - ٣٥٠)، واحضرت رفات القديس صموئيل في عهد الامبراطور اركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨)، واشعيا في أيام ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠)، والقديسة آن في أثناء حكم جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥)، ومريم المجدلية في عهد ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢)^(٢).

والى جانب الكنائس كانت هناك القصور، الفخمة منها القصر الامبراطوري الكبير الذي يسمى البوكوليون Bucoleon نسبة إلى مرفأ القصر المسمى بذلك الأسم، وكان هذا القصر عبارة عن مجموعة كبيرة من المباني وقاعات الاجتماعات والمحاضرات والحمامات وأجنحة السكن التي شادها اباطرة مختلفون، فقد بنى به الامبراطور ثيوفيل قاعة الاستقبال الشهيرة Triconch واضاف إليه باسيل الأول اضافات عديدة، على حين انشأ به نقفور فوقاس جناحا عند شاطئ البحر.

أما القصر الجديد المسمى Blachernae الذي بناه الامبراطور مانويل كومنينوس فكانت حيطانه وأعمدته مغطاه بالذهب الخالص، وكان العرش في هذا القصر من الذهب ومحلى بالاحجار الكريمة، أما التاج الامبراطوري المعلق عليه فكان من الذهب ومرصع بالجواهر التي لا تقدر بثمن.

^(١) بخصوص المزيد من التفاصيل عن هذه الآثار وأماكن تواجدها أنظر المرجع التالي:

Walter : op. cit., pp. 144 - 145

^(٢) Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 215 - 216.

وكان الميدان الامبراطورى أو .. Augusteom يضم كنيسة آيا صوفيا والقصر الامبراطورى الكبير ومحاط بصفيين من الأعمدة، وفى مواجهة الكنيسة يقوم فوق قاعدة من البرنز تمثال للامبراطور هرقل بحجم ضخم، ويده اليمنى ممدودة بحركة تهديد نحو الشرق، بينما يده اليسرى تقبض على كره رمزا للسيادة العالمية.

وبالقرب من الكنيسة والقصر الكبير كان يقع الهيودروم أو ميدان السباق، وهو مبنى ضخم فسيح يتسع لجلوس ما يقرب من الأربعين ألف شخص وكان فى الامكان الوصول من القصر مباشرة إلى المقصورة الامبراطورية بهذا الملعب، وكان الهيودروم هو مركز الحياة الاجتماعية والسياسية فى العاصمة وكانت أعظم تسلية للأهالى هى مشاهدة الالعاب بهذا الملعب والصراع مع الحيوانات وسباق العربات، وكانت مشاهدة العاب السيرك مجانية تتكلفتها الحكومة.

وكان فى الهيودروم عمود قسطنطين وهو عمود من الحجارة اقامه الامبراطور قسطنطين، وكذلك مسلة فرعونية قائمة على قاعدة من الجرانيت تمثل فن النحت البيزنطى. وما زالت بعض آثار الهيودروم باقية حتى اليوم^(١).

وكان أجمل احياء الحوانيت يقع داخل المدينة، فعلى امتداد الراية الرئيسية وابتداء من مدخل القصر الكبير وميدان السباق إلى امتداد ميلين كان يمتد نحو الغرب الشارع المسمى بالشارع الأوسط Mese وهو شارع واسع تحف به من جانبيه العقود (البواكى)، ويمر من خلال سوقين Forums احدهما

^(١) رأيت هذه الآثار بمدينة اسطنبول أثناء زيارتى لها فى اغسطس ١٩٧٧، والتقط لها بعض الصور نشرتها فى كتابى : الحملة الصليبية الرابعة ومشولية اغرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢.

سوق قسطنطين الملاصق للقصر، والآخر سوق ثيودوسيوس الأكثر منه اتساعاً. وفي النهاية يتفرع إلى شارعين رئيسيين أحدهما يسير مخترقاً سوق النور واركاديوس إلى الاستودوم والبوابة الذهبية، بينما يمر الآخر امام كنيسة الرسل المقدسين إلى قصر بلاكرناى والبوابة الخريسيائية.

وكانت تقوم على جانبي بواكى شارع الوسط أهم حوانيت المدينة مرتبة فى مجاميع تبعا لما تباع من سلع، فصاغة الذهب أولا يليهم صاغة الفضة ثم بائعو الثياب والأقمشة وصناع الأثاث وهكذا. وكانت أغنى هذه الحوانيت تقع بالقرب من القصر الكبير عند حمامات زيو كسيبوس .. Zuexipus حيث كان المركز التجارى لسوق الحرير الضخم المعروف باسم دار الاتوار لأن نوافذه كانت تضاء ليلا.

ويقول المؤرخ الاسبانى بنيامين اوف تودىلا الذى زار القسطنطينية فى ١١٦١ أنه وجدها تعج بالتجار الذين أتوا إليها من البر والبحر من مصر والعراق وفلسطين وروسيا وهنغاريا ولومبارديا واسبانيا ومن كل الاقطار فى العالم.

وقد تمتع معظم أهل القسطنطينية بالثراء، وكانوا يرتدون الملابس الموشاة بالذهب والاحجار الكريمة، ويمتطون خيولهم ويبدون فى مظهرهم هذا كالأمرأء. وكان اثرياء العاصمة يمتلكون الفيلات على شواطئ البوسفور وبحر مرمره. حيث يقضون بها فصل الصيف.

وكما كانت القسطنطينية مدينة الأعمال، فأنها كانت كذلك مدينة اللهو والمسرات، كانت أشبه ما تكون فى عصرنا الحاضر بباريس ولندن، حيث كان يذهب إليها الاثرياء من باقى البلاد لينعموا فيها بقسط من الراحة

والترفيهية ومختلفة. أنواع المتع الحسية والفنية. ووجدت بها جميع أنواع البضائع إلى جانب تمتعها بالجو النظيف والمناظر الطبيعية الخلابة^(١).

وهكذا فرض الصليبيون الحصار على هذه المدينة العظيمة من أجل استعادة عرشها لحليفهم ووالده الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس. وحين رأى الامبراطور اليكسيوس حصار الصليبيين للمدينة أرسل إليهم رسولا من طرفه، وهو أحد اللومبارديين ويدعى نيقولا روكس Nicholas Ronx الذى خاطب الصليبيين قائلا: "سادتى، ان الامبراطور اليكسيوس يود أن يوضح لكم انه يعلم جيدا أنكم أحسن العناصر، وجنتم من أحسن الاقطار على وجه الأرض، وهو يعجب كثيرا ويتساءل، لماذا، ولأى غرض اقتحمتم أرضه ومملكته؟ فهو مسيحي وانتم مسيحيون. وهو يعلم جيدا انكم فى طريقكم لتحرير الاراضى المقدسة والصليب المقدس وأورشليم. إذا كنتم فقراء ومحتاجون، فإنه يرغب حقا فى أن يمنحكم المال والزراد بشرط أن تغادروا أراضيه فورا. وهو لا يريد أن تقوموا بأى عمل تخريبى، لأنه صاحب القوة المطلقة هنا، ترون ذلك لو أن عددكم اضعاف ما أنتم عليه عشرون مرة. وإذا أراد الحاق الأذى بكم، فلن تستطيعوا الفرار بدون الهزيمة الكاملة"^(٢).

وقد اختار البارونات ودوق البندقية أحد الفرسان ويدعى Canon of Bethune لما تؤسموه فيه من عقل راجح وحكمة لكى يتولى الرد على هذا

^(١) فيما يتعلق بالقسطنطينية ومميزاتها أنظر المراجع التالية:

Miller (D) : Imperial Constantiople, U S A, 1969, pp. 1 - 197,

Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 179 - 222.

Brehier (L) : La civilisation Byzantine, Edition Albin Michel, Paris, 1970. pp. 73 - 99.

Toynbee (A) ; Constontine Porphyrogenetus and his world, London, 1773, pp. 201 - 223.

Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, Paris, 1928, pp. 104 - 120.

^(٢) Villehardouin : op. cit., p. 35.

الرسول، فقال موضحاً وجهه نظر الصليبيين: "سیدی، لقد قلت لنا ان مولاك يعجب كثيرا لماذا سادتنا والبارونات دخلوا إلى أرضه ومملكته، انهم لم يدخلوا أرضه هو، لأنه اغتصب هذه الأرض ظلما وعدوانا، وضد الله وضد الحق، انها تخص ابن شقيقه - الامبراطور اسحاق - الذى يجلس بيننا على العرش. اذا رغب سيدك فى أن يرد لابن شقيقه تاجه وامبراطوريته، ويلقى بنفسه تحت رحمته، عندئذ سنتوسل لابن شقيقه لكى يصفح عنه وأن ينعم عليه بالقدر الذى يمكنه من العيش ميسور الحال، واذا أنت لم تجبنا على هذه الرسالة، فلا تجرؤ على العودة إلى هنا ثانية"^(١).

استقر رأى البارونات على أن يظهروا الأمير اليكسيوس إلى أهالى القسطنطينية طمعا فى أن ينضموا إلى جانبه ضد عمه الامبراطور، وبالفعل اعتلى الأمير ظهر احدى السفن الحربية ومعه الماركيز بونيفيس ودوق البندقية واقتربوا كثيرا من أسوار العاصمة، غير أن ظنهم قد خاب، فبدافع من الخوف من الامبراطور لم يجرؤ أحد من الاهالى على رؤيته، فعاد الأمير ومن معه إلى الجيش مرة أخرى. ولم يجد الصليبيون بدا من اقتحام العاصمة، فقسموا الجيش إلى سبع فرق، وكانت أكبر الفرق تحت قيادة الماركيز بونيفيس، وبعد جهود مضنية تمكنوا من قطع السلاسل الحديدية الضخمة التى تغلق ميناء القسطنطينية وأصبحوا داخل الميناء حيث هاجموا المدينة برا وبحرا، وتعرض للهجوم قصر بلاكرناى Blachernae وهو أحد القصور الامبراطورية.

وفى صباح ١٧ يوليو ١٢٠٣ بدأت معركة رهيبة بين الطرفين استولى خلالها الصليبيون على ٢٥ برج من ابراج العاصمة والتحموا مع المدافعين عنها فى قتال عنيف، وكان الامبراطور اليكسيوس ذاته يقود

^(١) Villehardouin : op. cit., p. 25.

المعركة، وتلى ذلك معارك أخرى^(١)، وقد أدرك الامبراطور تفوق الجانب الصليبي وعدم جدوى الدفاع، فجمع كل ما استطاع من مجوهرات وأموال وفر ليلاً مع عدد من أتباعه، وحين علم الأهالي بفراره ذهبوا إلى الامبراطور السابق اسحاق في سجنه، واخرجوه منه وحملوه إلى قصر بلاكرناى، حيث أجلسوه على العرش، وبمجرد عودته إلى عرشه أرسل إلى جيش الصليبيين يخبرهم بذلك.

اجتمع الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات مع البارونات واخبرهم بذلك ثم ابلغوا الأمير اليكسيوس فقرح فرحاً عظيماً، وقد استقر رأى الصليبيين على عدم السماح للأمير بالعودة إلى والده إلا بعد أخذ موافقة الامبراطور اسحاق على كل ما تعهد به ابنه للصليبيين مقابل استرداد العرش البيزنطى، فأرسلوا بأربعة رسل اثنين من البنادقة واثنين من الصليبيين كان احدهما هو جيوفرى فيلهاردوين، وفتحت لهم بوابة القسطنطينية ووصلوا إلى قصر بلاكرناى حيث قابلوا الامبراطور اسحاق، واخبروه بتفاصيل الاتفاق السابق مع ولده اليكسيوس وطلبوا منه المصادقة عليه. وبعد أن أوضح الامبراطور رأيه فى هذا الاتفاق وشروطه القاسية، شكر الصليبيين على هذه الخدمة التى قدموها له ولأبنه وصادق على الاتفاق.

وهكذا اطمأن الصليبيون بالتزام الامبراطور اسحاق بتنفيذ شروط الاتفاق وسمحوا للأمير بدخول عاصمته، فقادته البارونات حتى وصلوا إلى بوابة العاصمة حيث استقبله والده بفرحة عارمة بعد أن طال فراقهما. وفى اليوم التالى خرج الامبراطور اسحاق وأبنه اليكسيوس إلى الجيش الصليبي خارج البوابة وقابلوهما، وسمحوا للصليبيين بدخول العاصمة لمشاهدتها، ولكن فى مجموعات صغيرة.

^(١) يوجد وصف تفصيلي لهذه المعارك فى المصدر التالى :-

Villehardouin : op. cit., pp. 35 - 45.

وفى أول اغسطس ١٢٠٣ توج الأمير اليكسيوس امبراطورا مشاركاً فى العرش مع والده اسحاق. وبعد تتويجه ذهب الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى الجيش الصليبي حيث أوضح للبارونات عجزه فى الوقت الحالى عن دفع ما اتفقوا عليه وطلب منهم أن يمهلوه حتى شهر مارس من عام ١٢٠٤، وتعهد بأنه سيتحمل نفقاتهم طوال هذه المدة. وبذلك نجح فى اقناع البارونات ودوق البندقية برأيه فوافقوا على الانتظار^(١).

قرر الامبراطور اليكسيوس الرابع القيام بجولة فى بعض ولايات الامبراطورية فى آسيا الصغرى لتفقدتها وقرار سلطته عليها. وقد رافقه فى هذه الجولة الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وعدد من البارونات فى حين بقى عدد آخر منهم مع الجيش الصليبي لحراسة المعسكر. وأثناء غياب الامبراطور اشتعل العراك داخل العاصمة بين اللاتين المقيمين بها والبيزنطيين الذين ساءهم تدخل هذا العنصر البيغيز فى أمورهم، واشعل بعض الاشخاص المجهولين النار فى المدينة وسرعان ما انتشرت بشكل مخيف حتى أصبح من العسير اطفائها، وقد استمرت على هذا النحو يومين وليلتين التهمت خلال هذه المدة الكثير من الكنائس والقصور والمتاجر وامتدت حتى شاطئ البحر، وقد احترق فيها عدد كبير من النساء والرجال والأطفال والشيوخ، وبعد أن خمدت النيران لم يجرؤ اللاتين المقيمين بالقسطنطينية على البقاء بها خوفاً من تعرضهم لأنتقام البيزنطيين، فحملوا زوجاتهم وأطفالهم وما تبقى من ممتلكاتهم وغادروا العاصمة وانضموا إلى جيش الصليبيين.

عاد الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى العاصمة، وعلم بالحريق الذى اشتعل بها أثناء غيابه والخسائر التى اسفرت عن هذا الحريق، كما أنه كان

^(١) Villehardouin : op. cit., pp. 54 - 50.

يعلم بمدى كراهية رعاياه لهؤلاء اللاتين، لذلك وفي محاولة لكسب شعور البيزنطيين بدأت معاملته للاتين تتغير وأصبح (يتعالى) عليهم على حد تعبير فيلهاردوين، فلم يعد يزور معسكرهم كما كان يفعل سابقا، وظلت المبالغ التي يدفعها لهم تتضاءل وتتقص حتى انقطعت في النهاية. وقد دهش اللاتين لهذه المعاملة بعد كل الخدمات التي قدموها له، وذهب إليه قائد الجيش الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وأوضح له وجهة نظر الصليبيين ودهشتهم من تصرفاته هذه، وأخيرا تأكد الصليبيون أنه يضرهم الشر وأنه لن ينفذ ما اتفقوا عليه، عند ذلك أرسلوا إليه رسالهم، وكانوا ستة أشخاص من بينهم فيلهاردوين ليوضحوا له أنه إذا لم يلتزم بتنفيذ الاتفاق فإنهم لن يعاملوه كصديق بعد ذلك وإنما سيحصلوا على حقهم بالقوة. وقد دهش الامبراطور اليكسيوس وحاشيته لهذه الجرأة إذ لم يحدث من قبل أن تم تهديد الامبراطور البيزنطي داخل بلاطه⁽¹⁾.

وكمحاولة أخيرة أرسل دوق البندقية انريكو داندولو في استدعاء الامبراطور اليكسيوس ودارت بينهما محادثة أوردها روبرت كلاري وكانت كالتالي:

"Alexe, que Cuides tu faire? "Fist Lidux" freng warde gue nous t'avons gete de grant caitivete, si t'avons fait seigneur et corone a empereur: ne nous tenras tu mie" fist li dux," "nos convenenches, ne si n'en feras plus? -Naie fist liempereres"jen'en ferai plus que fait enai I - Non? "dist li dux, "garchons malvais nous t'avons" List li dux, "gete de le merde et merde te remeterons, et je te desfi et bien saches saches tu que je te pouiwacacherai mal a men pooir de ches pas enavant."⁽²⁾

⁽¹⁾ Villehardouin : op. cit., pp. 50 - 53.

Clari : op. cit., pp. 56 - 58.

⁽²⁾ Clari: la conquete de constantinople. p. 59.

والترجمة العربية لهذه المحادثة هي:

قال الدوق "يا إليكسيوس ما الذى تعنيه بما قلت؟ هل فكرت كيف انقذناك من الشقاء العظيم، وكيف جعلناك سيدا، وتوجناك امبراطورا، فهل رعيت عهدك معنا، وهل اعترمت بتنفيذ شئ أكثر مما فعلت؟" فقال الامبراطور لا، أنتى لن أفعل شيئا أكثر مما فعلت". فقال له الدوق "اتقول لا أيها الغلام السىء، لقد كنا نحن الذين رفعناك من هاوية القذارة وسنعيدك اليها مرة أخرى، وأنتى لمتحديك ومنذرك لتعلم علم اليقين أنتى منذ هذه اللحظة فصاعد سألحق بك من الأذى كل ما استطيع".

ظهر العداء سافرا بين الصليبيين والبيزنطيين، وبدأت المناوشات بينهما، وقد اشعل البيزنطيون النار فى بعض السفن الرأسية بالميناء وانتشرت النيران حتى بدا (وكان العالم كله يحترق) وأصيب الصليبيون بالذعر خوفا على مراكبهم، ولكن بعد أن نجحوا فى إخماد النيران أتضح ان السفن المحترقة هى سفن تجارية بيزية كانت رأسية بالميناء، ولم يصب أسطول الصليبيين بضرر كبير^(١).

فى تلك الأثناء أصبح البيزنطيون مقتنعين بضرورة التخلص من هذا الامبراطور الذى كان السبب فى استدعاء اللاتين وإتاحة الفرصة لهم للتدخل فى شئونهم الداخلية وكل ما ترتب على ذلك من متاعب، فالتفوا حول أحدهم ويدعى مورزوفلوس Mourzu Phlus وكان محبوبا من الأهالى، وفى إحدى الليالى قبض مورزوفلوس على الامبراطور اليكسيوس وسجنه، وأعلن مورزوفلوس امبراطورا فى كنيسة آيا صوفيا، وحين علم الامبراطور اسحاق بأن ابنه قد أبعد عن العرش وأودع السجن، مرض ولم يلبث إلا قليلا حتى

(١) Villehardouin : op. cit., p. 54.

Clari, op. cit., pp. 59 - 60.

توفي. أما اليكسيوس فقد لقي حتفه بعد أن دس له موزوفلوس السم في الطعام
رباعته. مورزفوس نعرش البيزنطى لم يعد هناك أى أمل للصليبيين فى
الحصول على حقهم أو تنفيذ أى شروط التزم بها قبلهم الامبراطور السابق
اليكسيوس الرابع، لذلك لم يعد هناك مفر من الإلتجاء للقوة، فعقدوا فى آخر
مارس ١٢٠٤م. اتفاقا بينهم وبين البنادقة ونص هذا الاتفاق على أنه فى حالة
سقوط المدينة يقتسموا بالنصف كل ما يحصلون عليه منها من الغنائم
والاسلاب وأن يختاروا ستة أشخاص من الصليبيين، وستة أشخاص من
البنادقة، ويقسم هؤلاء جميعا على الآثار المقدسة أن ينتخبوا من بينهم الرجل
الأصلح ليتوج امبراطورا ويتولى حكم الامبراطورية البيزنطية، ويحصل هذا
الامبراطور على ربع ما يتم فتحه داخل العاصمة وخارجها، ويمتلك كذلك
القصرين الامبراطوريين Bucoleon و Blachernae أما الثلاثة أرباع
الأخرى فتقسم بالتساوى بين الصليبيين والبنادقة. وأن يتم اختيار اثنى عشر
شخصا من الصليبيين ومثلهم من البنادقة وهؤلاء الأربعة وعشرون شخصا
يقومون بتوزيع الاقطاعات ومناصب الشرف، ويرتبون من يقوم على خدمة
الامبراطور^(١).

وبناء على ذلك، بدأ حصار الصليبيين للقسطنطينية فى ٨ أبريل ١٢٠٤
ونقالتوا مع المدافعين عن ابراج المدينة وتمكنوا من الاستيلاء على بعض هذه
الابراج وعن طريقها تدفقوا إلى داخل العاصمة، وحين رآهم الامبراطور
مورزوفلوس فر هاربا عن طريق البوابة الذهبية فاستولى على خيمته
الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وسقطت القسطنطينية فى يد الصليبيين
والبنادقة فى يوم الاثنين ١٢ أبريل ١٢٠٤^(٢).

(١) Villehardouin : op. cit., pp. 58 - 59;

Clari; op. cit., p. 68

(٢) Ibid: pp. 61 - 62.

دخل الصليبيون إلى العاصمة البيزنطية كالجراد المنتشر، حيث أشعل بعضهم النيران فيها، وكان هذا ثالث حريق تتعرض له العاصمة البانسة، منذ أن جاء إليها اللاتين مع الأمير اليكسيوس انجيلوس، وقد أتت النيران على الكثير من المنازل، وقدر المؤرخ فيلهاردوين عدد المنازل التي احترقت في هذا الحريق وحده، بأنها تماثل عدد المنازل التي تحتويها ثلاث مدن كبيرة من مملكة فرنسا^(١) آنذاك. ثم انطلقوا يقتلون كل من صادفهم من البيزنطيين حتى أصبح من العسير حصر عدد القتلى. ثم جاء دور النهب الذي لم يقف عند أى حد، حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من النهب والسلب، وكفى للتدليل على ذلك ما فعله الصليبيون بكنيسة آيا صوفيا، فقد اقتحموها وهم سكارى فمزقوا الستائر والبسط والمفروشات وداسوا الكتب المقدسة بأقدامهم وحطموا الأيقونات الفنية النادرة، وإذا كان هذا شأنهم مع الكنائس، فلم يكن غريبا أن يحرقوا الجامع الذي كان للمسلمين بالقسطنطينية وهو الجامع القديم الذي بنى في عصر الامبراطور ليو الثالث (٧١٧-٧٤١).

ولعل ما جاء في خطاب البابا اينوسنت الثالث^(٢) إلى الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات يعطى صورة أكبر للفظائع التي ارتكبتها الصليبيون ضد العاصمة البيزنطية وأهاليها.

ويوضح لنا شاهد عيان هو روبرت كلارى ما حدث بعد ذلك فيقول: "صدر الأمر بعدئذ بجمع كل الغنائم في كنيسة معينة من كنائس المدينة فجئ بها إليها واختاروا عشرة فرسان من كبار الحجاج وعشرة من البنادقة ممن

^(١) Villehardouin : op. cit., p. 64.

^(٢) راجع الترجمة الحرفية لهذا الخطاب في المرجع التالى:

إسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة ومستولية إغرافها ضد القسطنطينية، ص ص. ١١٢-١١٣

توسموا فيهم الأمانة وأقاموهم حراسا على هذه الثروة، وهكذا جاءوا بالغنائم وكانت عظيمة جدا فكان بها كثير من الأوعية الذهبية والفضية الغالية الثمن، والملابس المطرزة بالذهب وكثير من المجوهرات الثمينة، فكان ما جمع هناك منظرا رائعا عجيبا ولم يحدث قط - منذ بداية العالم - أن رأت العين أو غنم قوم مثل هذه الغنيمة الغالية العظيمة، بل لم يحدث ذلك زمن الاسكندر أو شرلمان ولا قبلهما ولا بعدهما، ولا أظن أنا شخصا، أنه توفر في أغنى مدن العالم الأربعين من الثروة ما توفر بالقسطنطينية وما عثروا عليه بها، إذ يقول اليونان أن ثلثي كنوز العالم موجودة في القسطنطينية، أما الثلث الباقي فموزع في بقية الدنيا، حتى أن نفس الأشخاص الذين عهد إليهم بالحراسة أخذوا كل ما طمعوا فيه من الحلى الذهبية وامتدت يدهم بالسرقة إلى هذه الثروة وإلى كل ما وجدوه، وأخذ كل رجل غنى ما طمع فيه من الحلى الذهبية أو الأقمشة الحريرية والمذهبة وسواها وانطلق به، وبهذه الطريقة شرع الكبار في سرقة الغنائم حتى لم يبق شئ يتقاسمونه مع عامة الجيش من الحجاج أو الفرسان الفقراء أو العسكر الذين عاونوا في كسب هذه الغنائم.

أقول لم يبق شئ لمقاسمته مع هؤلاء سوى الفضة المجردة كالأوعية الفضية التي اعتادت نساء المدينة حملها معهن إلى الحمامات.

أما الأسلاب الأخرى التي بقيت فقد اختفت بطرق شريرة كما أخبرتك لكن أخذ البنادقة - على أية حال - النصف المقرر لهم، أما الأحجار الكريمة والثروة الكبيرة التي بقيت لتقسم فقد نهبت بأساليب أخرى كما سأقص عليك فيما بعد⁽¹⁾.

⁽¹⁾ Clari : La Conquete de constantinople pp. 80 - 81.

أما شاهد العيان الآخر وهو جيوفري فيلهاردوين، فقد قال أن المعسكر
التي أخذها الصليبيون بعد فتحهم القسطنطينية كانت من الكثرة لدرجة يمكن
معه القول أنه ليس لها نهاية، من ذهب وفضة وأحجار كريمة وحرير وعصا،
ويشهد فيلهاردوين على أنه منذ الأخيعة لم تؤخذ غنائم من مدينة قط مثلما أخذ
من القسطنطينية فشبّع من الصليبيين من كان جائعاً، واغتنى منهم من كان
فقيراً^(١).

وهكذا لم يقع بصر الصليبيين على تحفة أو ثروة إلا نهبوا ولم يتركوا
أثراً فنياً أو أدبياً إلا أفسدوه ودمروه. وقد بات الصليبيون وهم في فرح
وسرور وشكروا الله الذي منحهم النصر وهم حوالي ٢٠ ألف رجل، على
٤٠٠ ألف رجل بيزنطي "والأكثر من ذلك على المدينة العظيمة الشديدة
التحصين"^(٢).

أما الجانب الآخر المهزوم، المغلوب على أمره، وأعنى به البيزنطيين،
فأنهم باتوا ينوحون ويرثون مدينتهم الحبيبة، مثلما رثاها مؤرخهم المعاصر
نقيتاس خونيائيس بقوله^(٣):

Ourbs, urbs, urbium omnium ocule, Per orbem Terrarum
celebris mater, Princeps religionis, rectae sententiae dux, eruditionis
alumna, Omnis Pulchritudinis diversorium, itahe ex mahu domini
calicem puroris bibisti. Itahe pars extitisti ignis multo Vehementiores
eo quo olim pentapolis divinitus conflagravit.

^(١) Villehardouin : op. cit., p. 65.

^(٢) Villehardouin : op. cit., p. 65.

^(٣) Choniates Historia. ed. Bonn. p 763.

"أيّها المدينة، المدينة، يا خير المدائن، يا حديث العالم، يا منار الأرض، يا حامية الكنائس، يا سيدة الايمان، يا قلعة العلم، يا ملاذ كل الخير، لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس غضب الله، ولقد حل بك اتون ابشع من ذاك الذي انصب لظاه قديما على المدائن الخمس".

وقد تمنى خونيائيس، لو أن مدينتهم كانت قد وقعت في يد المسلمين "الذين كانوا لطفاء ورحماء" حين فتحوا بيت المقدس، ولم يفعلوا بها مثلما فعله هؤلاء المخلوقات "الذين يحملون صليب المسيح على اكتافهم"^(١).

بعد أن انتهت موجة النهب والسلب التي اجتاحت القسطنطينية كان على الجميع مهمة اختيار امبراطور لاتيني يحكم الامبراطورية البيزنطية، وهنا عاد الفاتحون إلى الاتفاق السابق بينهم، فكونوا لجنة من اثني عشرة شخصا، ستة من الصليبيين وستة من البنادقة لاختيار أحدهم، وكانت المنافسة شديدة بين الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات، وبين الكونت بلدوين اوف فلاندرز وهينولت.

وبلدوين هذا يعد واحدا من أكبر السادة الاقطاعيين الفرنسيين، ولد في عام ١١٧٢، ووالده هو بلدوين الخامس كونت هينولت، الذي تزوج في عام ١١٦٩ من مارجريت شقيقة فيليب الالزاسي كونت فلاندرز. وقد توفي فيليب في مدينة عكا عام ١١٩١ دون أن ينجب وريثا، فأل أقليم الفلاندرز إلى شقيقته مارجريت، التي توفيت هي الأخرى في ١١٩٤، وبذلك ورث ابنها بلدوين أقليم فلاندرز. وحين توفي والده بلدوين الخامس في ديسمبر ١١٩٥ آل إليه أقليم هينولت أيضا، وبذلك جمع بلدوين الابن بين حكم أقليمي

^(١) Choniates : Hqtoria, ed. Bonn, pp. 761 - 762.

الفلاندرز وهينولت. وكان الكونت التاسع على الأقليم الأول، والكونت السادس على الأقليم الثانى.

وقد ساهم بلدوين بنصيب كبير فى الصراع الذى اشتعل فى الغرب الأوروبى بين ملوك فرنسا وانجلترا والمانيا حتى اشتراكه فى الحملة الصليبية الرابعة^(١).

وهكذا اشتعلت المنافسة على منصب (الامبراطور) بين كل من يونيفيس اوف مونتفرات، وبلدوين اوف فلاندرز وهينولت، وكان الأول يتفوق على الثانى بما له من قوة الشخصية وقيادة الجيش الصليبي وصلات عائلته ببيزنطة.

ومن ثم فقد أخذ بونيفيس يهيئ نفسه لهذا المنصب، فاستولى على القصر الامبراطورى الكبير Boukoleon وتزوج من مارجريت (ماريا) الهنغارية أرملة الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس، وقد اعتبره البيزنطيون حاكمهم الجديد وحين كانوا يقابلون اللاتين فى الطريق كانوا يصيحون الماركيز هو الامبراطور المقدس Aios Phasileos Marchio لكن بونيفيس أدرك أنه لن يستطيع السيطرة على لجنة الانتخاب لأن ثلاثة فقط من الصليبيين الستة كانوا يؤيدونه، فى حين أن الثلاثة الآخرين مضافا إليهم الستة من البنادقة كانوا يؤيدون منافسه بلدوين. فقد كان الدوق داندولو يخشى من قوة شخصية بونيفيس وكان يفضل ان يكون الامبراطور الجديد أضعف شخصية وأقل أهمية حتى يسهل السيطرة عليه، أضف لذلك أن بونيفيس كان حليفا قديما لجنوا، وهذا وحده سببا كافيا لكى يعمل الدوق بكل قواه ونفوذه على ابعاد بونيفيس عن هذا المنصب.

^(١) Wolf . Studies in The Latin Empire of Constantinople, London 1976 Book IV, pp. 281 - 288.

وفى منتصف ليلة ٩ مايو ١٢٠٤ أعلن نيفلون اسقف سواسون الذى كان عضوا فى لجنة الانتخاب، اختيار بلدوين كونت فلاندرز وهينولت امبراطورا وفى ١٦ مايو تم تتويجه فى احتفال مهيب فى كنيسة آيا صوفيا واتخذ لقب:

Porphirogenitus Semper Augustus⁽¹⁾

أما بالنسبة لمنصب بطريرك كنيسة القسطنطينية، فقد كان أحد الشروط الهامة للطرفين فى اتفاقهم قبل اسقاط العاصمة البيزنطية ينص على التالى: -

"الجانب الذى لم يختار منه الامبراطور، يكون لديه السلطة لى ينصب رجل دين على كنيسة آيا صوفيا، ويختار بطريركا من أجل خدمة الرب والكنيسة الرومانية المقدسة للامبراطورية"^(٢).

وبعد اختيار لجنة الانتخاب لبلدوين اوف فلاندرز من الجانب الصليبي امبراطورا، أصبح اختيار بطريرك كنيسة القسطنطينية من نصيب البنادقة فأجتمع رجال الدين منهم فى كنيسة آيا صوفيا، واختاروا توماس موريوسيني Thomas Mauroceni لهذا المنصب.

وكان توماس ينتمى إلى عائلة نبيلة هى عائلة موريوسيني التى يرجع أصلها إلى مانتوا Mantua ولم يكن موجودا بالقسطنطينية وقت انتخابه.

⁽¹⁾ Villehardouin : op. cit., pp. 67 - 68;

Clari : op. cit., pp. 93 - 94.

Wolf @ : Studies in the Latin Empire of Constantinople, pp. 188 - 190.

Nicol : The Fourth Crusade and The Greek and Latin Empires, 1204 - 1261, C. M. H. ed. Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, part. 1, p. 286.

Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6, p. 179.

Walter : La Ruin de Byzance, pp. 150 - 151.

⁽²⁾ Wolf : Studies in the Latin Empire of Constantiople, Book IX, p. 227.

والوصف الوحيد الذى جاء عن توماس كان لنقيتاس خونيئاتيس المؤرخ البيزنطى الذى رآه بالقسطنطينية فى نهاية صيف عام ١٢٠٥م. والذى يعكس لنا وجهة نظر البيزنطيين فى أول رجل كاثوليكي يتولى رئاسة كنيستهم الارثوذكسية.

قال نقيتاس : ان توماس كان فى منتصف العمر، سمينا (مستديرا مثل الكرة، ضخما مثل خنزير معلوف)، أجرد، يضع خاتما فى أصبعه، وفى بعض الأحيان يرتدى قفازا من الجلد فى كفيه. أما لباسه فهو ضيقا للغاية، حتى يبدو وكأنه محاكا على جسده مباشرة، ومن الصدر يميل هذا اللباس إلى السعة^(١).

وقد ظل البابا اينوسنت الثالث لعدة شهور، وهو لا يعلم بأمر اختيار توماس موريوسينى بطريركا للقسطنطينية وفى ٢١ يناير ١٢٠٥، علم البابا بذلك، وأعلن اعتراضه على هذا الاختيار، ولم يكن اعتراض البابا على شخص موريوسينى نفسه، فهو على حد قوله: "نعلم نحن وأخواننا ان الشخص الذى اختير، نبيل المولد، شريف، فطن، ومتقفا بالقدر الكاف". ولكن اعتراض البابا كان على الطريقة التى تم بها انتخابه، لأن اختيار بطريرك القسطنطينية من صميم اختصاص البابا أو نائبه، لذلك فقد شعر البابا اينوسنت الثالث (بالألم) لأن انتخاب موريوسينى تم فى مجمع عام^(٢).

على أن البابا لم يلبث أن وافق على هذا الاختيار، وفى ٥ مارس ١٢٠٥ تم ترقية البابا لتوماس من شماس مساعد إلى شماس، وفى ٢٦ مارس

(١) Choniates : Historia, ed. Bonn, pp. 854 - 855.

(٢) Wolf : Studies in the Latin Empire of Constantiople, Blook IX, p. 228.

Walter : La Ruine de Byzance, p. 154.

Runciman : The Byzantine Theocracy, Cambridge University Press, 1977 pp. 138 - 139.

عينه قسا وفي ٢٧ مارس جعله اسقفا، وفي ٣٠ مارس أنعم عليه البابا بالعباءة Pallium الخاصة بمنصب رئيس الاساقفة، مع التوصية بارتدائها في احتفال مقدس، كما أنعم عليه بعدة امتيازات منها، منحه الحق في أن يحمل الصليب أمامه حيثما ذهب، فيما عدا روما أو أية مدينة أخرى يكون بها نائب بابوي^(١).

وحسب الاتفاق السابق بين الطرفين، كان نصيب الامبراطور بلدوين، ربع الاراضى التى تم الاستيلاء عليها، فمنح حكم القسطنطينية ذاتها ما عدا حى البنادقة، ومعظم تراقيا بما فيه ادرنه، والجزر الواقعة فى الجنوب الشرقى من بحر ايجة، وهى جزر ساموتريس وكوس ولسبوس وساموس، وخيوس.

وكان نصيب بونيفيس اوف مونتفرات حكم بعض الاراضى فى آسيا الصغرى، لكنه رفض وطلب منحه مملكة سالونيك التى كان يحكمها شقيقه من قبل، وحتى تكون مملكته متاخمة لأمالك ملك هنغاريا شقيق زوجته الجديدة مارجريت.

ولما رفض الامبراطور بلدوين طلبه دخل الاثنان فى صراع، وانتهى الأمر بتأييد دوق البندقية لبونيفيس وموافقة على منحه سالونيك، مقابل قبول الماركيز بيع جزيرة كريت للبنادقة بدلا من الجنوبية الذين كانوا قد طلبوا شرائها منه^(٢).

^(١) Wolf : op. cit., Book IX, pp. 230 - 231.
Walter : op. cit., p. 155.

والجدير بالذكر أن مورسينى لم يستمر طويلا فى منصبه إذ توفى فى عام ١٢١١، انظر:

Nicol : op. cit., p. 303.
^(٢) Wolf : op. cit. Book 1, p. 195.

وبذلك نجح بونيفيس اوف مونتفرات فى تأسيس مملكة خاصة به تضم مقاطعة سالونيك وبعض الاراضى المجاورة لها مثل مقدونيا وتساليا^(١).

أما البندقية فقد فازت بنصيب الأسد من تلك الغنيمة، إذ أخذ البنادقة حيا كبيرا فى القسطنطينية يباشرون فيه نشاطهم التجارى، واستولوا كذلك على معظم الجزر القريبة من الشاطئ بما فيها جزيرة ايوبيا، هذا زيادة على بعض المراكز الساحلية فى شبه جزيرة المورة، ورقعة واسعة من الأرض شمال خليج كورنثة، كذلك ضم البنادقة إلى هذه الممتلكات جزيرة كريت التى اشتروها من بونيفيس اوف مونتفرات. وقد كانت مجموعة الثنائى التى حصل عليها البنادقة من الضخامة لدرجة اتاحت لدوق البندقية ان يطلق على نفسه لقب "حاكم ربع ونصف اراضى الامبراطورية البيزنطية".

وهكذا توسعت البندقية، وأصبحت ممتلكاتها فى غرب وشرق أوروبا معا، كما أصبح لها السيطرة كذلك على الطريق البحرى الممتد من البندقية حتى القسطنطينية، وكان لها حق الاشراف على المضائق والممرات البحرية المؤدية للعاصمة، فضلا عن الحى الخاص بها فى القسطنطينية وحق الاشراف على كنيسة آيا صوفيا^(٢).

(١) Villehardouin : op. cit., p. 69.

Wolf : op. cit., p. 190.

(٢) Wolf : op. cit., pp. 190 - 192.

Nicol : op. cit., 287 - 189.

Ostrogorsky : op. cit., pp. 423 - 424.

هذا ، ولم ينعم دوق البندقية داندولو بهذا كله لمدة طويلة فلم يلبث أن مرض وتوفى فى مايو عام ١٢٠٥،

ودفن فى احتفال مهيب فى كنيسة آيا صوفيا، انظر:

Villehardouin : op. cit., p. 102.

Wolf : op. cit., Book 1p. 203.

على أن الحال لم يكن كذلك بالنسبة للصليبيين إذ أن نصيبهم من الغنيمة البيزنطية، قد وزع بين عدد كبير من أمرائهم الذين أقاموا امارات خاصة صغيرة، وهكذا استأثر كبار رجال الحملة الصليبية بالغنيمة وحدهم مما ترك صغار الصليبيين في حالة شديدة من الحنق وخيبة الأمل.

هذا بالإضافة إلى روح العداة التي استحكمت بين مختلف العناصر، والجنسيات التي تألفت منها الحملة، كما ظهر ذلك في المنازعات بين الألمان والبرجنديين، وبين اللمبارديين والفلمنكيين، وبين جميع هؤلاء والبنادقة.

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين اللاتين والبيزنطيين، فقد ظل التباعد سائدا بين الطرفين، فقد كان الغزاه الغربيين على درجة من الجمود والكبرياء بحيث أنهم لم يحاولوا تفهم الحضارة البيزنطية على حقيقتها، في حين احتقر البيزنطيون هؤلاء (البرابرة) الغربيين الاجلاف^(١).

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة على هذا النحو، وبعد هذا العرض لأحداث هذه الحملة يمكن القول انها تعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية، ولعل المؤرخ رينيه جروسيه لم يخالف الصواب حين قال: (ان الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيرا بفشل الحركة الصليبية بأكملها)^(٢).

فقد كان المفروض ان تدعم هذه الحملة مركز الصليبيين في الشام وتعينهم على مقاومة الضغط الاسلامي الواقع عليهم، لكن الذي حدث هو أنها أدت إلى اضعاف مركزهم بطريق مباشر أو غير مباشر، ذلك أن قيام مملكة لاتينية صليبية بالقسطنطينية وبلاد البلقان، عمل على جذب اعداد كبيرة من

(١) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 379.

(٢) Grousset : History des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1946, Tome III, p. 175

الفرسان الصليبيين بالشام الذين فكروا فى التسلل سرا وعلانية إليها لينعموا بقسط من الحياة الهادئة بعيدا عن تهديد المسلمين ومتاعبهم. وكذلك الحال بالنسبة للفرسان الغربيين الذين لجأوا هم الآخرون إلى القسطنطينية، بدلا من التوجه إلى الصليبيين فى الشام ومساعدتهم ضد المسلمين.

كما أدى فرار العائلات الارستقراطية البيزنطية وتأسيسها لممالك فى إبيروس ونيقية وطرابيزون والعداء الذى اشتعل بينها وبين المملكة اللاتينية فى القسطنطينية ادى كل ذلك إلى ان أصبح الطريق البرى إلى الشام أصعب منالاً وأشد خطورة على الصليبيين عن ذى قبل.

وقد أثبتت هذه الحملة ان العامل الاقتصادى والمصالح المادية اصبحا يحتلان المكان الأول فى تفكير المعاصرين، فاذا سلمنا بان الصليبيين كانت لديهم دوافع متعددة ضد الدولة البيزنطية، فما هى دوافعهم ضد مدينة زارا المسيحية التى هاجموها واستباحوها قبل هجومهم على القسطنطينية، اللهم إلا دافع الجشع والمصالح المادية البحتة.

الفصل السابع

الأيوبيون والحملة الصليبية الخامسة

تد أدرك الصليبيون منذ أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين حقيقة هامة لا جدال فيها، وهى أن الأيوبيين لم يستطيعوا أن يحرزوا انتصاراتهم على الصليبيين ويسترجعوا بيت المقدس من أيديهم إلا بعد سيطرتهم على مصر التى أصبحت على عهد الأيوبيين معقل الاسلام وحصنه المنيع، ومصدر الامداد الوفير من الرجال والمال والميره والسلاح، وقد انحصر هدف الصليبيين منذ ذلك الحين فى ازالة قوة مصر والقضاء عليها حتى يمكنهم عن طريقها الوصول إلى بيت المقدس، وبمعنى آخر آمنوا ايماناً عميقاً بأن مفاتيح بيت المقدس موجودة بالقاهرة وان عليهم الاستيلاء على مصر بوصفها الطريق الطبيعى الذى لا طريق بعده للوصول إلى بيت المقدس. وقد اخذوا يشبهون مصر تشبيهات توضح بجلاء ايمانهم هذا، فهم حيناً يشبهونها برأس الأفعى، وانه اذا تم لهم القضاء على هذا الرأس، فان الجسد كله سيهوى بين أيديهم، ومرة أخرى بالقلب فى الجسد، واذا توقف القلب انتهى أمر الجسد، إلى غير ذلك من التشبيهات العديدة التى امتلأت بها كتب دعاة الحروب الصليبية. أما المؤرخون المسلمون فقد ادركوا هم الآخرون هذه الحقيقة وفسروا فى ضوءها اتجاه الحملات الصليبية ضد مصر منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى. فيقول المؤرخ ابن واصل أن الصليبيين تشاوروا بخصوص اتجاه الحملة الصليبية الخامسة وان ذوى الرأى منهم قد اشاروا بقصد مصر أولاً وقالوا: "ان الملك الناصر صلاح الدين انما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها، فالمصلحة ان نقصد أولاً مصر ونملكها وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد".

وقد أثبتت لهم تجاربهم السابقة والتى تمثلت فى الحملة الصليبية الثالثة عدم جدوى محاولة استرداد بيت المقدس عن طريق الشام لذلك فقد ارادوا وبصفة عملية ان يستردوا بيت المقدس عن طريق مصر، وكان ذلك هدف الحملة الصليبية الرابعة، ولكن هذه الحملة لاسباب معينة انحرفت واتجهت

ضد القسطنطينية في عام ١٢٠٤ م . واسقطت الحكم البيزنطي واقامت مملكة لاتينية كما سبق أن اوضحنا في الفصل السابق. وهكذا اصيب البابا اينوسنت الثالث بخيبة امل كبيرة بعد أن خرج من تجربة الحملة الصليبية الرابعة بحقيقة هامة هي ان الصليبيين بدأت تحركهم عوامل أخرى غير العامل الديني وان السيطرة على الحركة الصليبية آلت إلى اشخاص آخرين غير البابوية.

وقد دعا البابا اينوسنت الثالث إلى هذه الحملة الصليبية الجديدة في المؤتمر الديني الذي عقد في كنيسة لاتيران في روما في ١١ نوفمبر ١٢١٥، وقد بدأ المؤتمر بالخطبة التي ألقاها البابا اينوسنت الثالث والتي عبر فيها عما تقاسيه مدينة بيت المقدس من انتهاكات للاماكن المسيحية المقدسة من جانب المسلمين، وأشار إلى انه قد آن الأوان للقضاء على المسلمين وطالب الحاضرين - وكان المؤتمر يضم أعدادا كبيرة من رجال الدين فضلا عن مندوبين لملوك المانيا وانجلترا وفرنسا واسبانيا وهنغاريا والمملكة اللاتينية في القسطنطينية - طالب جميع هؤلاء ببذل المساعدة للبابوية لتتمكن من القيام بهذا العمل المقدس.

ولقد سمح لمندوب مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية والتي كان على رأسها في ذلك الوقت حنا دي برين بالكلام في المؤتمر، فأخذ يفيض في وصف الحالة السيئة التي وصل إليها الصليبيون في الشرق، وتمت مناقشة عدة مشروعات لاستعادة بيت المقدس، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن تكون مصر هي وجهة الحملة الصليبية الجديدة.

وقد تحدد يوم أول يونيو عام ١٢١٧ موعدا لاجبار الحملة على أن يكون الاجبار من أى مكان يقع على خليج مسينا.

وكان عدد البوابات التي حملتها باس قدم ثلاثين ألف جنيه بالاضافة
الى ثلاثة آلاف مارك فضة. وقد طالب الباب باس يدفع رجال الدين
خطاياهم. ام العلمانيون الذين لم يحملوا الصليب ولم يشتركوا في الحملة فعليهم
ان يمدوا اخوانهم الصليبيين في الحملة بالمصاريف الضرورية لمدة ثلاث
سنوات.

وقد بذل البابا اينوسنت امتيازات روحية هامة للمشاركين في هذه
الحملة الصليبية الجديدة، فقد منح البابا الغفران التام من الخطايا لكل من
يقدمون سفنهم لحمل الصليبيين المشاركين في هذه الحملة، وكذلك لكل من
يعملون في بناء هذه السفن أو يساهمون في نفقات الحملة. ام الذين
سيشتركون في الحملة فقد تقرر اعفاؤهم من دفع الضرائب المقررة عليهم
بمجرد حملهم الصليب، ووضع املاكهم تحت حماية الكنيسة لحين عودتهم
وتأجيل دفع ما عليهم من ديون، وهذه الامتيازات تشبه إلى حد كبير
الامتيازات التي منحها البابا ايربان الثاني للمشاركين في الحملة الأولى.

هذا إلى جانب القرارات الأخرى التي اتخذت بخصوص هذه الحملة من
منع الاتجار مع المسلمين وتهديد من يحالف ذلك بمصادرة تجارته، وقد
اعطى الحق لمن يقبض على أي تاجر لاتيني يتعامل مع المسلمين ان يعامله
معاملة الاسرى.

والمقصود من ذلك بطبيعة الحال منع تزويد المسلمين بالأخشاب
والحديد اللازمة لهم والتي كان المسلمون يحتاجون إليها لبناء السفن. وكثيرا
ما نادى البابوات بمثل هذا التحريم، خاصة على المدن البحرية الإيطالية مثل
جنوا وبيزا والبندقية، ولكن جهود البابوات ذهبت ادراج الرياح لأن هذه
المدن كانت لا تهتم بالصالح الصليبي قدر اهتمامها بمصالحها التجارية
البحرية، وإذا تعارضت مصالحها المادية مع الصالح الصليبي، قذفت بالصالح

الصلبيى عرض الحائط، وليذهب هذا الصالح الصليبي إلى الجحيم، أما هي فلا تخسر تجارتها، ويكفى أن نوضح في هذا المجال أن شعار البنادقة كان "نحن أولا بنادقة، وبعد ذلك مسيحيون".

وقد انتشر الدعاة للحملة الصليبية في انحاء الغرب الاوروبى، من أجل العمل على حشد أكبر عدد من النبلاء والفرسان والعامّة، للانخراط في سلك هذه الحملة الصليبية.

على أن الأجل لم يمتد بالبابا اينوسنت الثالث ليرى نتيجة جهوده في الحملة الصليبية الخامسة، فقد توفي في بروجيا في شمال ايطاليا في عام ١٢١٦. وقد خلفه الكاردينال سنسيوس تحت اسم البابا هونوريوس الثالث، الذي أخذ على عاتقه أكمل العمل الصليبي الذي دعا اليه سلفه السابق البابا اينوسنت الثالث.

وقد خرجت الحملة الصليبية إلى بلاد الشام بعضها عن طريق البحر بمساعدة سفن البندقية. وقد قبض البنادقة ثمن نقل الصليبيين بسفنهم، وكان هذا الثمن هو تنازل ملك هنغاريا عن مدينة زارا على ساحل دالماشيا نهائيا للبنادقة واطلاق حرية التجارة بين هنغاريا والبندقية. كذلك تم الاتفاق على أن يدفع الصليبيون مبلغا من المال مقابل كل سفينة تمدهم بها البندقية.

أما الجزء الآخر فقد اتخذ طريق البر، واجتمع الجميع في عكا وكانت القوات الصليبية تحت قيادة ملك هنغاريا ويدعى اندرو الثاني (١٢٠٥ - ١٢٣٥).

وفي اثناء ذلك بلغت الاتباء الملك العادل بنزول الصليبيين بالشام واستعدادهم لغزو بلاد المسلمين. فغادر مصر إلى الشام، وبعد عدة اشتباكات

القوات الإسلامية والصليبية في الشام لم تسفر عن تحقيق مكاسب هامة للصليبيين أعلن الملك اندرو عزمه على العودة لبلاده وقد هدد بطريك مملكة بيت المقدس الاسمية بتوقيع قرار الحرمان عليه اذا تخلى عن الصليبيين في هذا الوقت الحرج وقبل قيامهم بغزو مصر، ولكن اندرو لم يعبا بهذه التهديدات واتخذ طريقه من عكا إلى ارمينيا وعاد إلى بلاده في أوائل عام ١٢٢٨.

وهكذا عاد قائد الحملة الملك الهنغاري إلى بلاده ومعه عدد كبير من جنوده الهنغارين دون ان يشترك مع الصليبيين في عمل حاسم ضد المسلمين سواء في الشام أو في هجومهم المرتقب ضد مصر.

على أن الصليبيين بالشام لم يلبثوا ان عوضوا عن النقص الذي حدث في قوات الحملة عن طريق وصول أعداد كبيرة من المحاربين القادمين من أوروبا، فقد وصلت اليهم قوات من الجنود الاسكندنافيين في أوائل مايو ١٢١٨ وصل عددهم إلى حوالي ثلاثين ألف مقاتل، كما وصلتهم قوات أخرى تحت قيادة هنري كونت هولندا. وهكذا تجمع بالشام أعداد كبيرة من القوات الصليبية المحاربة بالاضافة إلى قوات الامارات الصليبية بالشام وعلى رأسها الفرسان الداوية والاسبتارية.

وقد عقد ملك بيت المقدس حنا دي برين مجلساً لبحث الأمور الخاصة بالهجوم على مصر، ومكان نزول القوات الصليبية المهاجمة وكيفية تزويدها بالموءن، واعداد سفن النقل وغيرها من الأمور اللازمة لهذا العمل. وقد تقرر أن تكون مدينة دمياط هي المكان الذي ستبدأ الحملة بغزوه والاستيلاء عليه، وقد تم اختيار مدينة دمياط بالذات لعدة أمور، أولاً لقربها من مراكز الصليبيين في الشام وخاصة عكا، كما أنها على حد تعبيرهم كانت قفل الديار المصرية وأنه يمكن عن طريقها الوصول إلى القاهرة العاصمة، كما أنها

أحدى ثلاث مدن هامة بمصر والمدينتان الاخرتان هما الاسكندرية والقاهرة، وأن سقوط أى مدينة من هذه المدن الثلاث يعنى سقوط مصر كلها.

وكانت مدينة دمياط آنذاك تقع إلى الشمال من دمياط الحالية، وتبعد عن البحر الأبيض المتوسط بحوالى ميلين، أما بالنسبة لنهر النيل فقد كانت تقع على الضفة الشرقية لفرع دمياط. وهكذا أصبحت المدينة كشبه جزيرة يحدها البحر المتوسط شمالاً ونهر النيل غرباً وبحيرة تيس شرقاً. ونظراً لأن المياه تحيط بدمياط من ثلاث جهات فقد كان ذلك مما يخدم الحملة عن طريق انتفاعها بالأسماك التى يمكن اصطيلها من مياه النيل أو البحيرة أو البحر المتوسط فى امداد الحملة بالغذاء اللازم لها. وكذلك الاراضى الزراعية القريبة من دمياط كان مما يوفر للحملة الامداد من الخضروات والفاكهة. هذا إلى جانب ان دمياط كانت ميناء بحرياً هاماً وكانت السفن التجارية القادمة من الهند تمر على ميناء دمياط وهى فى طريقها إلى سواحل الشام أو أوروبا وتدفع ضرائب المرور. ونظراً لأهمية موقع دمياط بالنسبة لباقي البلاد المصرية، وتعرضها نتيجة لذلك للهجوم المستمر من جانب البيزنطيين والصليبيين، لهذا كله فقد لقيت دمياط العناية من جانب الأيوبيين وعملوا على تحصينها، وتقوية سورها وحفر خندق يحيط بالمدينة. كما تم العمل على اعاقه أى سفن للعدو تحاول الدخول عن طريق النيل إلى داخل البلاد المصرية، وذلك عن طريق مد سلاسل من الحديد عظيمة القدر تمتد بعرض مجرى النيل. هذا بالإضافة إلى برج السلسلة وهو حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أى عدوان يقع عليها، وكان يحرس هذا البرج رجال أشداء مزودون بالسلاح، وكان البرج يتكون من عدة طوابق ويعتبر الطابق الذى فى الوسط الطابق الرئيسى لهذا البرج، ويعلو البرج قبة ذات ثلاثة أقواس صغيرة.

وفى يوم ٢٤ مايو ١٢١٨ تحركت سفن الحملة الصليبية فى طريقها إلى دمياط على أن يلحق بها ملك بيت المقدس وهو حنا دى برين وقد وصلت هذه السفن إلى دمياط فى ٢٧ مايو ١٢١٨ وقد تمكن الصليبيون من النزول على الضفة الاخرى للنيل المقابلة لمدينة دمياط وكانت تعرف باسم جيزة دمياط وقد نزلوا على هذا البر دون أن يجدوا أمامهم أية عوائق تعوقهم، نظراً لأن الملك العادل الايوبى لم يكن يعتقد أن تكون دمياط هى هدف الحملة الصليبية الجديدة وبالتالي لم يتخذ أية اجراءات دفاعية ضد الصليبيين فى هذه المنطقة. ولم يلبث الملك حنا دى برين ان لحق بالحملة التى عسكرت فى منطقة جيزة دمياط، وقد سارت الحملة سفنها فى النيل وفرسانها على الشاطئ حتى وصلوا إلى السلسلة التى وقفت حائلاً أمام تقدم سفنهم فى النيل وبالتالي الوصول إلى دمياط سواء من ناحية النيل أو من ناحية البر. لذلك كان عليهم أولاً وقبل كل شئ مهمة عسيرة هى تحطيم تلك السلسلة والاستيلاء على برج السلسلة.

نترك الصليبيين يحاولون التخلص من هذه العوائق، وننتقل إلى الجانب الاسلامى ممثلاً فى أهالى دمياط وفى الايوبيين المسيطرين على مصر.

فيما يتعلق بأهالى دمياط فقد أخذوا يعدون أنفسهم لحصار طويل الأمد مما يدل على أنهم عزموا على الدفاع عن مدينتهم وعدم تسليمها للقوات الصليبية المهاجمة. فقام الاهالى بتخزين المؤن اللازمة، كما أرسلوا إلى الملك الكامل الموجود بالقاهرة نائباً عن والده الملك العادل واخبروه بنزول الصليبيين فى جيزة دمياط، وقد غادر الكامل على الفور القاهرة واتخذ طريقه إلى دمياط على رأس جيشه وما انضم اليه من العربان، وعسكر فى جنوبى دمياط فى مكان يعرف بالعادلية، كما اتخذ الاسطول طريقه كذلك فى مياه النيل إلى دمياط واستقر فى شارمساح (وهى قرية كبيرة بينها وبين دمياط حوالى ٣٨ كيلو متر). وقد كان هدف الكامل فى ذلك الوقت العمل على عدم

تمكين الصليبيين من الاستيلاء على برج السلسلة وقطع السلسلة التي تمتد بعرض النيل.

أما بالنسبة للملك العادل الذي كان موجوداً آنذاك بالشام فقد أخذ يغير بالاستعانة بابنائه المعظم والاشرف موسى على املاك الصليبيين في الشام عله ينجح في شغل الصليبيين عن مصر.

وقد حدثت بعض الاشتباكات بين الصليبيين والمسلمين في مصر ولكنها لم تسفر عن نتائج فعالة، وقام الصليبيون كذلك بالعديد من المحاولات لقطع السلسلة والاستيلاء على البرج ولكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع وانزلت بهم خسائر جسيمة في الارواح نتيجة لاستبسال المدافعين المسلمين في حماية البرج والدفاع عن السلسلة.

وأخيراً وفي ٢٤ أغسطس ١٢١٨ نجح الصليبيون في اقتحام البرج وقتل من فيه والاستيلاء عله وذلك بعد قتال دام حوالي الاربعة أشهر. وعن طريق استيلائهم على هذا البرج تمكنوا من تحطيم السلسلة وتسيير سفنهم في مجرى النيل.

وقد كان إستيلاء الصليبيين على البرج وقطع السلسلة بمثابة صدمة عنيفة اصابت الأهالي والايوبيين لدرجة أن الملك العادل حين علم بذلك دق بيده على صدره في حسرة وألم ومرض من ساعته ولم يلبث أن توفي في ٢١ أغسطس ١٢١٨، ودفن في دمشق.

وقد استقر كل واحد من ابنائه في المملكة التي منحه أياها والده قبل وفاته، فكان الكامل في مصر، والمعظم عيسى في دمشق، والاشرف موسى في حران، والواحد في ميفارقين.

وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على صمودهم في وجه الصليبيين، لأنه لم تقم بينهم الخلافات التقليدية التي تحدث عادة بين الأبناء على الميراث، فاتفقوا واتحدوا معاً في مواجهة العدو الجاثم على قلب مصر وقتذاك.

وهكذا وقع على الملك الكامل بعد أن صارت مصر ملكاً خالصاً له بعد وفاة والده، عبء مواجهة الصليبيين وابعادهم عن بلاده. وقد بذل كل جهده في محاولة عرقلة الصليبيين عن الوصول إلى القاهرة عن طريق النيل، فبنى جسراً عظيماً بعرض مجرى النيل وذلك عوضاً عن السلسلة التي حطمها الصليبيون، ولكنهم نجحوا أيضاً في تحطيم الجسر، عند ذلك لجأ إلى حيلة أخرى وهي أن أغرق بعض السفن عمداً وأيضاً بعرض مجرى النيل حتى تعوق تقدم سفن الصليبيين، وقد نجحت هذه الحيلة في تحقيق الهدف منها وعاقت سفن الصليبيين عن مواصلة السير في النيل في اتجاه القاهرة، وكان ذلك مما أعطى للمسلمين فرصة السيطرة على مجرى النيل.

وإذا كان الكثير من الصليبيين قد اعتقدوا بعد سقوط برج السلسلة في أيديهم وتحطيمهم للسلسلة أنهم قد وفوا بقسمهم وقاموا بمهمتهم خير قيام وأن البلاد المصرية لن تلبث أن تسقط في أيدي الصليبيين، فإن أحلامهم هذه لم تتحقق وإنما كان سقوط برج السلسلة في أيديهم بداية الكوارث التي حاقت بالحملة الصليبية الخامسة، لأن كثيراً من الصليبيين قد غادروا الأراضي المصرية إلى غرب أوروبا وتركوا أخوانهم أمام دمياط، اعتقاداً منهم أن الأمر صار هيناً بسيطاً وأن مصر ستسقط بأسرها في أيدي أخوانهم وأنه لا ضرورة إذن لتواجدهم. وقد كان ذلك مما عرقل نشاط باقى قوات الحملة الصليبية الخامسة وظلت قواتها في حالة جمود وركود في انتظار وصول إمدادات جديدة تصلهم من الغرب الأوروبي. وقد أعطت فترة الركود هذه الفرصة للايوبيين لتنظيم قواتهم والتقاط أنفاسهم بعد كارثة سقوط برج السلسلة في أيدي الصليبيين. على أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، ذلك أن الإمدادات

العسكرية الصليبية لم تلبث أن وصلت إلى جزيرة دمياط بأعداد كبيرة وكان على رأسها الكاردينال بلاجيوس وهو نائب البابا في الحملة. والواقع أن هذا الشخص سيسبب للحملة الكثير من المتاعب وسيكون من أهم أسباب فشلها.

ذلك أنه بعد وصول بلاجيوس أصبح هناك صراعاً على السلطة بينه وبين قائد الحملة حنا دي برين، وكان ذلك الصراع بسبب ما اتصف به بلاجيوس من التعصب والغطرسة والتعالى، وقد أخذ يحقر من شأن حنا دي برين وأعلن أن الصليبيين هم في المقام الأول جنود الكنيسة ولذلك يجب عليهم ألا يخضعوا لأي قائد علماني، بل أن يخضعوا له فقط باعتباره ممثلاً للبابا ونائباً عنه في الحملة. وقد كسب بلاجيوس تأييد رجال الدين على حين انضم القادة العسكريين إلى جانب حنا دي برين، وهكذا لم يكد بلاجيوس يصل إلى جزيرة دمياط حتى بدأ يثير المشاكل ويبذر بذور الانقسام في المعسكر الصليبي، وكان هذا الانقسام في صالح المسلمين بطبيعة الحال.

وقد جرت بعض الاشتباكات بين القوات الأيوبية بقيادة الملك الكامل الذي كان لا يزال معسكراً عند العادلية، وبين الصليبيين تراوحت بين النصر والهزيمة لكلا الطرفين.

على أن المعسكر الإسلامي لم يلبث هو الآخر أن تعرض لبعض الاضطرابات، ذلك أن الكامل تعرض لمؤامرة من بعض كبار أمرائه وعلى رأسهم عماد الدين بن المشطوب، الذي أراد خلع الملك الكامل وتثبيت شقيقه الفائز بدلاً منه، ولا شك في أن ابن المشطوب قد رغب في التخلص من الكامل واستبداله بشقيقه الفائز لصغر سن الفائز، وعدم خبرته بالأمور مما يتيح لابن المشطوب السيطرة على الحكم في ظل الفائز الضعيف.

المهم أن اخبر هذه المؤامرة قد وصلت، إلى الكامل الذي تأكد منها حين دخل على المتآمرين فوجدهم مجتمعين وهم يقسمون على مصحف معهم لأخيه الفائز، ولم يستطع الكامل أن يفعل شيئاً تجاه هؤلاء المتآمرين لخرج مركزه، فهم من ناحية من كبار امرائه ولهم اتباعهم، ومن السهل أن جاهرهم بانعلاء أن يسبوا له الكثير من المتاعب. ومن جهة أخرى أمامه الصليبيون متحفزون للهجوم على معسكره بالعادية. لذلك أصبح الكامل في موقف صعب. وقد دفع خوف الكامل على حياته من هؤلاء المتآمرين ضده، إلى رحيله ليلاً من معسكر العادية وسار إلى قرية أشموم طناح (أشمون)، وعندما أصبح الجند ولم يجدوا الكامل في خيمته بينهم، ساد الذعر بينهم وتركوا أسلحتهم وامتعتهم بمعسكر العادية وولوا هاربين في أثر الكامل، وهكذا خلت العادية من المسلمين وكان ذلك في ٥ فبراير ١٢١٩.

ولم يخفى اخلاء معسكر المسلمين في العادية على الصليبيين وقد ظنوا في بادئ الأمر انها خدعة لاستدراجهم إلى كمين، ولكنهم تأكدوا من حقيقة فرار المسلمين وتركهم المعسكر فاستولوا عليه، وكان استيلائهم على معسكر العادية خطوة هامة في صالحهم لانه اتيح لهم النزول إلى الضفة الشرقية للنيل وبذلك تمكنوا من فرض الحصار على مدينة دمياط. وبذلك وقعت دمياط تحت وطأة الحصار البحري نتيجة لحصار سفن الصليبيين لها من ناحيتها الغربية المواجهة للنيل، في حين حاصرتها قواتهم البرية من جهاتها الاخرى.

وقد ازداد الأمر سوءاً بالنسبة للملك الكامل الايوبي، نتيجة للكسب الذي احرزه الصليبيون من ناحية ولعدم استطاعته القضاء على ابن المشطوب وجماعته من ناحية أخرى لدرجة أنه أى الكامل فكر في مغادرة مصر وتركها للصليبيين والذهاب إلى ابنه الملك المسعود الذي يحكم بلاد اليمن. ولكن الله سبحانه وتعالى لطف بالمسلمين ذلك أن الملك المعظم عيسى وصل إلى أخيه الكامل عند أشموم طناح. وبعد أن علم بقصة المتآمرين تعهد لشقيقه

الكامل لتخليصه من زعيمهم ابن المشطوب، وعن طريق الحيلة، نجح فعلاً في القبض عليه وارساله إلى الشام، ثم ارسلا اخيهما الفائز إلى الموصل، وتم لهم بذلك القضاء على هذه المؤامرة التي هددت المعسكر الاسلامى. وبدأ الكامل يستعد من جديد لمواجهة الصليبيين فانتقل من اشموم طنّاح إلى فارسكور وفي نفس الوقت أخذ يطلب النجدة من العالم الاسلامى، وقد وصلته بالفعل بعض المساعدات العسكرية، وقد استغل الكامل المساعدات التي وصلته وشن عدة غارات على المعسكر الصليبي المحاصر لدمياط، لكنه لم يستطع زحزحتها عن مكانها امام دمياط. وهنا حدث تحول في سياسة الكامل تجاه الصليبيين ففتح باب المفاوضات بينه وبينهم لعلها تنجح في تحقيق ما عجزت القوة العسكرية عن تحقيقه ويتم جلاءهم عن الاراضى المصرية.

ولعل الاسباب التي دفعت الكامل لتحوّله هذا، تتعلق بادراك الكامل لحقيقة قوة الصليبيين وكثرة اعدادهم، خاصة ان الاخبار قد جاءت تؤكد ان الامبراطور الالماني فردريك الثانى هو هشتافن يستعد للحاق بالصليبيين امام دمياط، كذلك ادرك الكامل حقيقة قوته العسكرية وانها باى حال لن تستطيع القضاء على الصليبيين خاصة وان حركة ابن المشطوب قد احدثت بلبلة بين صفوف قواته وكذلك اضطراب وفوضى. إلى جانب الهجمات التي كان يشنها الاعراب على المعسكر الاسلامى فى فارسكور حتى ان المؤرخ ابن الاثير يقول بأن هؤلاء الاعراب كانوا أشد على المسلمين من الصليبيين أنفسهم، بعد أن نهبوا وأفسدوا وبالغوا فى الفساد فى البلاد المجاورة لدمياط. هذا كله بالإضافة إلى انتشار الاخبار عن عزم التتار على فتح المشرق الاسلامى وكان مما لا يخفى على أحد أعمال العنف الهمجية التي تتصف بها غارات التتار.

لذلك كله فقد فضل الملك الكامل ان يتفاوض مع الصليبيين عليه ينجح فى ابعادهم عن بلاده سلمياً. وقد عرض الكامل على الصليبيين عرضاً سخياً

للمغاية مضمونه ان يتنازل لهم عن جميع الاراضى التى كانت تابعة لهم قبل معركة حطين فى ١١٨٧ وما تلاها من فتوحات قام بها صلاح الدين فيما عدا قلعتى الشوبك والكرك، وعقد هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاثين سنة وذلك مقابل الجلاء عن دمياط.

وقد تشاور الصليبيون بخصوص هذا العرض وقبله حنا دى برين وأيده الفريق العسكرى فى الحملة، ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفض ذلك العرض واتخذ جانبه فى هذا الرفض شيعته من رجال الدين وفرسان الداوية والاسبتارية، وقد طالب الفريق الاخير بكافة ممتلكات مملكة بيت المقدس الصليبية بما فيها الكرك والشوبك. فرفض الكامل تحقيق ذلك.

وقد قام الصليبيون بهجوم على معسكر الكامل فى فارسكور، ووقعوا فى كمين أعده الملك الكامل، وكانت النتيجة أن ألحق المسلمون بالصليبيين هزيمة كبيرة وقتلوا منهم ما يقرب من أربعة آلاف جندي. وعقب هذا الانتصار الذى احرزه المسلمون عاود الملك الكامل عرض الصلح مرة أخرى على الصليبيين ولكنهم رفضوه، فعاود العرض للمرة الثالثة وابدى استعداداه لتعويضهم مالياً عن قلعتى الكرك والشوبك، واعادة صليب الصلبوت وكذلك اطلاق سراح جميع الاسرى الصليبيين، وقد تكرر ما سبق فوافق الملك حنا دى برين على هذا العرض، فى حين رفض المندوب البابوى بلاجيوس وشيعته، واعلنوا ان انسحابهم من امام دمياط سيصبح عاراً على كل صليبي وانه لا بد من استعادة مملكة بيت المقدس بحد السيف.

وقد زادت نتيجة لذلك حدة الخلاف بين الملك حنا دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس، خاصة بعد ان تمادى بلاجيوس فى تجاهل سلطة حنا دى برين وادعى لنفسه الحق كل الحق فى تصريف شئون الحملة الصليبية وحده،

وكان لذلك آثاره السيئة على الجانب الصليبي كما سنرى من خلال عرضنا
المقبل للأحداث.

اشتد حصار الصليبيين مدينة دمياط، وكان من الطبيعي أن تحدث
مجاعة داخل البلد بعد أن تعسر وصول الامدادات اليها، ولم يترك الكامل
وسيلة أو حيلة للاتصال بأهالي دمياط وتهريب المؤن اليهم إلا واستعملها،
ولكن وباء الطاعون انتشر بين أهاليها وافنى الكثيرين منهم، لدرجة ان عدد
سكانها عند بداية الحصار كان ستون ألف نسمة، ولم يتبق منهم عند سقوطها
في يد الصليبيين سوى ثلاثة آلاف نسمة.

وقد استغل الصليبيون هذه الظروف داخل المدينة وقاموا بهجوم مكثف
عليها استعملوا فيه السلام المتحركة والكتل الخشبية ليعبروا الخندق المقام
حولها، ووصلوا إلى السور واعتلوه فاصيب الاهالى بالذعر ولم يستطيعوا
المقاومة لقلة عددهم ومعاناتهم من طول الحصار. ويقال ان سقوط المدينة
كان على مرأى من الملك الكامل الذى لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئا سوى
أن يبكى بشدة هو وشقيقه المعظم، وكان استيلاء الصليبيين على دمياط الباسلة
يوم الثلاثاء الموافق ٥ نوفمبر ١٢١٩ أى بعد حصار استمر تسعة أشهر.

وقد كان حال الاهالى بالداخل يرثى له فمعظمهم قد لقى حتفه بعد أن
تفشى مرض الطاعون بينهم ولم تكن جثث الموتى تملأ الشوارع فقط بل
كانت فى كل مكان بالمنازل وفوق الأسرّة، وقد وجد الصليبيون الاطفال
الجوع داخل المدينة وهم يبكون ويطلبون الطعام من ابائهم وأمهاتهم الاموات.
ورغم هذا فلم ترق لهم قلوب هؤلاء الطغاة وانما أعملوا القتل والأسر فى كل
من صادفوه من البقية الباقية من أهالى هذه المدينة الباسلة، كما حولوا جامعها
إلى كنيسة.

تقدم القوات الصليبية نحو القاهرة وهزيمة الحملة:

اشتد النزاع بين الصليبيين حول ملكية مدينة دمياط، فان ملك بيت المقدس حنا دى برين كان يرى أن دمياط قد أصبحت جزء من مملكة بيت المقدس الصليبية، فى حين كان رأى بلاجيوس ان المدينة يجب أن تخضع للكنيسة، وباعتباره ممثلاً للكنيسة ونائباً عن البابا فى الحملة، لذلك يجب أن تخضع المدينة لسلطته. أما الخلاف الثانى فكان حول تقسيم الغنائم على القوات الصليبية لأن الجنود الايطاليين لم يقتنعوا بما منحوه لهم من غنائم وطالبوا بالمزيد وشهروا سيوفهم فى وجه باقى العناصر المشتركة فى الحملة وعلى الاخص الجنود الفرنسيين. أما المشكلة الثالثة التى واجهت الصليبيين فكانت خاصة بتقديمهم نحو القاهرة، لأن المندوب البابوى بلاجيوس صمم على ضرورة الزحف مباشرة ومطاردة الايوبيين فى حين رأى حنا دى برين انه من الواجب زيادة تحصينات مدينة دمياط ومنح الصليبيين قسطاً من الراحة بعد كل ما عانوه فى الشهور الماضية وقبل سقوط دمياط فى أيديهم، وهكذا اشتد الخلاف بين الصليبيين. أما بالنسبة للمشكلة الاولى فتم حلها حين تم عرضها على البابا هونوريوس الثالث وجاء رده بأن تكون دمياط جزءاً من مملكة بيت المقدس وبالتالي تسليمها لحنا دى برين. وأما المشكلة الثانية فتم حلها أيضاً عن طريق اعادة تقسيم الغنائم واعطاء الايطاليون المزيد منها وبذلك عاد الونام بين عناصر الحملة. أما المشكلة الثالثة فقد كسبها حنا دى برين أيضاً حين تغلب على رأى بلاجيوس. وبطبيعة الحال لم يغفر بلاجيوس لحنا دى برين كل ذلك وانما ظل يتحين الفرص للحط من ارائه وادعاء سلطات لم يخولها له البابا وحال باستمرار الجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية فى الحملة. وقد استاء الملك حنا دى برين من ذلك وانتحل بعض الاعذار وأهمها هجوم المسلمين على الممتلكات الصليبية فى الشام وضرورة تواجده هناك، وغادر دمياط عائداً إلى عكا فى أواخر مارس ١٢٢٠.

وهكذا خلا الجو لبلاجيوس، فأخذ يتصرف فى شئون الحملة بمفرده، وأصدر أوامر مشددة للحد من النشاط البحرى للصليبيين بين دمياط وعكا، وقد اعطى ذلك الفرصة لسيطرة المسلمين على مياه البحر بين دمياط وعكا وقطع الطريق على السفن الصليبية.

وقد وصلت بعض القوات الصليبية على رأسها دوق بافاريا فتشجع بلاجيوس وقرر فى أواخر يونيو ١٢٢١ الزحف على القاهرة، وأرسل إلى الملك حنا دى برين فى عكا يطلب منه الحضور للمشاركة فى هذا العمل العسكرى. وقد رفض الملك فى بادئ الأمر العودة إلى دمياط، ولكنه خشى تعرضه لغضب البابا والصليبيين عامة واتهامه بعرقلة جهودهم العسكرية ضد المسلمين، ولذلك عاد من جديد إلى دمياط فى الوقت الذى كان الصليبيون قد بدأوا يتقدمون فعلاً بحذاء النيل نحو القاهرة.

أما عن الملك الكامل، فكان قد نقل معسكره من فارسكور إلى المنطقة المقابلة لطلخا وأقام معسكره هناك وأطلق عليها أسم (المنصورة). وقد جاءت إليه الامدادات العسكرية من كل مكان كما وصل إليه أخويه المعظم والأشرف، وهكذا اجتمع الأخوة الثلاثة الكامل والمعظم والأشرف فى المعسكر فى المنصورة لوضع الخطط لمواجهة الصليبيين. وقد عرض الكامل على الصليبيين للمرة الأخيرة الصلح على الشروط التى سبق أن عرضها عليهم، ولكنهم أبوا وتكبروا وأصرروا على تسليم الكرك والشوبك مع دفع غرامة قدرها خمسمائة ألف دينار ليعمروا بها ما خربه المسلمون من بلادهم. وقد تقدم الفرنج على الشاطئ الشرقى للنيل وبجوارهم سفنهم تسير فى النيل، وكان وقت تقدمهم فى أوائل اغسطس ١٢٢١، والمعروف أن ذلك هو الوقت الذى يكون فيه فيضان النيل فى أعلى مستوى له وذلك يدل على جهل تام من جانب الصليبيين بطبيعة أرض مصر وأمر نيلها.

وقد أرسل الكامل بعض السفن عن طريق فرع رشيد ودخلت إلى فرع دمياط عن طريق البحر واصبحت خلف سفن الصليبيين وبذلك حالت بينهم وبين الاتصال بقاعدتهم في دمياط عن طريق النيل. كما أنزل الكامل عند شارمساح (شمال شربين) ألفى فارس مع الآف من العربان ليحولوا بين الصليبيين وبين اتصالهم بدمياط عن طريق البر.

وعندما وصل الصليبيون إلى المنطقة المعروفة باسم رأس الجزيرة وهي نقطة تفرع البحر الصغير (بحر اشموم) من فرع دمياط وهي عبارة عن مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات فرع دمياط من جهة والبحر الصغير من جهة وبحيرة المنزلة من جهة ثالثة. عند وصولهم إلى هذا المكان أمر الكامل بقطع السدود وفتح الترع عليهم من جميع الجهات، فلم يدرى الصليبيون إلا والمياه تحيط بهم من كل جانب وقد غرقوا في الطين حتى بلغ ركبهم. ولم يعد امامهم إلا شريط ضيق جداً يستطيعون العودة عن طريقه إلى دمياط. ولكن الكامل كان قد أنزل به الاعراب والفرسان كما سبقت الإشارة، ليحول بينهم وبين العودة إلى دمياط.

وهكذا أصبح الموقف عسير جداً على الصليبيين، بعد أن أصبحوا محصورين في هذه المنطقة فلا هم يستطيعون التقدم خطوة واحدة نحو القاهرة، ولا هم يستطيعون العودة إلى دمياط، ولا هم بإمكانهم القتال في هذا المكان الموحل، ولا شك أن ذلك كله يرجع إلى الخطة التي وضعها الايوبيون وعلى رأسهم الملك الكامل واستغلالهم لفيضانات النيل ودرائتهم التامة بطبيعة أرض مصر واختيارهم المكان المناسب لحصر الصليبيين وفتح السدود والقنوات عليهم واغراقهم في المياه على هذا النحو، وبذلك أثبتوا تفوقهم الفكري والعسكري على الصليبيين الغربيين.

وقد أدرك الصليبيون أنهم هالكون لا محالة، وفي محاولة لانقاذ أنفسهم أرسلوا على وجه السرعة إلى الملك الكامل الايوبي يعرضون عليه الصلح واستعدادهم للجلاء عن دمياط وتسليمها له والخروج كلية من مصر، وبدون أي مقابل سوى انقاذهم من هذا الموقف الذي اصبحوا فيه.

وقد أراد المعظم والاشرف ان يستغلا هذه الورطة التي وقع فيها الصليبيون للقضاء عليهم، ولكن الكامل رفض ذلك وقبل العرض الذي عرضه عليه الصليبيون. واشترط الكامل على الصليبيين ان يرسلوا اليه رهائن من ملوكهم وأكبر الشخصيات لديهم، فوافقوا وارسلوا إليه الملك حنا دي برين شخصياً والمندوب البابوي بلاجيوس. ومجموعة من كبار امرائهم بلغوا العشرين. وقد أكرمهم الكامل كعادة المسلمين دائماً وبقوا لديه حتى تم تسليم الصليبيين لدمياط في ٧ سبتمبر ١٢٢١. وقد دخلها الملك الكامل في اليوم التالي مباشرة، وابرم اتفاقية مع الصليبيين مدتها ثمان سنوات ١٢٢١ - ١٢٢٩ نصت على اطلاق كل فريق ما عنده من الاسرى. وقد ابحر الصليبيون الغربيون إلى اوروبا أما الملك حنا دي برين فقد عاد هو ورجاله إلى الشام يجرون أذيال الخيبة والفشل، وقد شبههم أحد المؤرخين المسلمين بالنعامة التي خرجت تبغى أن تطيل ذيلها، فعادت بلا ذيل على الاطلاق.

وهكذا تم للايوبيين القضاء على الحملة الصليبية الخامسة نتيجة لتعاونهم وخطتهم المحكمة، في حين أضاع الصليبيون جهودهم كلها والانتصارات المبدئية الى احزوها نتيجة لخلافاتهم المستمرة وعلى وجه الخصوص الخلاف بين بلاجيوس مندوب البابا والملك حنا دي برين. ومن أسباب الهزيمة كذلك جهل الصليبيين التام بطبيعة البلاد المصرية وميعاد فيضان النيل وهذا ما سيحاول تداركه لويس التاسع في حملته الصليبية المعروفة بالحملة الصليبية السابعة، ولكن ورغم ذلك ستفشل هي الاخرى لاسباب يتم شرحها فيما بعد وعند تناولنا لهذه الحملة.

الفصل الثامن

بيت المقدس

بين السلطان الكامل

والإمبراطور فريدريك الثانى

لقد كان الارتباط الذي تم بين أبناء الملك العادل عقب وفاته أحد الأسباب الهامة في القضاء على الحملة الصليبية الخامسة على مصر، على أن هذا الارتباط لم يلبث أن انفصمت عراه في نهاية سنة ١٢٢٣ وبداية سنة ١٢٢٤، واشتعل الصراع بين الأخوة الثلاثة الكامل والمعظم عيسى والأشرف موسى.

ذلك أن المعظم عيسى قد طمع في أملاك ابن عمه ويدعى الناصر صلاح الدين قليج ارسلان الذي كانت له حماه واعمالها، فهاجم المعظم حماه واستولى على بعض اعمالها مثل المعرة وسلمية.

على أن الملك الكامل وأخيه الأشرف موسى لم يوافقا أخيهما على تصرفاته تلك، وكان ذلك مما أثار الخلاف بين الأشقاء الثلاثة الكامل والأشرف من ناحية والمعظم عيسى من ناحية أخرى، خاصة بعد أن أرسل شقيقه الكامل يأمره برد ما استولى عليه من ابن عمهما، وقد نفذ المعظم رغبة أخيه الكامل وانصرف عن حماه وهو حائق ومتذمر.

على أن الظروف لم تلبث أن اضطرت الأشرف إلى أن يلجأ لأخيه المعظم عيسى طالباً منه المساعدة العسكرية من أجل مواجهة خطر الخوارزمية الذين أخذوا يهددون أراضيه في الجزيرة وخلاط. ذلك أن ملك التتار جنكيز خان كان قد دمر دولة الاتراك الخوارزمية في ١٢٢٠ - ١٢٢٢، وقد فر ملك الخوارزمية جلال الدين منكبرتي إلى الهند، وحين علم بعودة جنكيز خان إلى بلاده في جوف آسيا، عاد جلال الدين منكبرتي إلى فارس وألّف حوله الاتراك الخوارزمية من جديد، ونجح في أحياء دولته مرة أخرى واتخذ من أصفهان عاصمة له. وبدلاً من أن يعمل جلال الدين منكبرتي على توحيد جهود العالم الإسلامي والوقوف في وجه التتار الوثنيين، أخذ في مهاجمة والاعتداء على أراضى الخليفة العباسي وطارد جيوشه حتى

قرب بغداد سنة ١٢٢٥. ثم أخذ جلال الدين يهاجم أقليم جورجيا القريب من أملاك الأشرف موسى في أعالي الجزيرة، مما دفع الأشرف إلى أن يلتمس المعونة العسكرية من جانب أخيه المعظم عيسى.

وقد انتهز المعظم عيسى هذه الفرصة وقبض على أخيه الأشرف موسى، واجبره على أن يقسم له أن يتعاوناً معاً في الاستيلاء على حمّاه وحمص، ثم مهاجمة شقيقهما الكامل في مصر.

على أنه ما كاد الأشرف موسى يفلت من يد شقيقه المعظم عيسى حتى رجع عن جميع ما تعهد له به، متذرعاً بأنه أكره على القسم، وقد أخبر الملك الكامل بكل ما حدث وأكد له أطماع أخيه المعظم عيسى في ملكه بمصر.

على أن خطورة هذا الصراع كانت تكمن في التجاء كل من الطرفين المتنازعين إلى الاستعانة بالقوى الخارجية، فلجأ المعظم عيسى إلى جلال الدين منكبرتي واتفق معه ضد شقيقه الأشرف والكامل.

أما الملك الكامل فقد راسل الامبراطور الالماني فردريك الثاني هوهنشتاوفن، وأرسل له مبعوثاً من طرفه هو الامير فخر الدين يوسف، وتعهّد الكامل للامبراطور فردريك بأنه اذا بذل له المساعدة العسكرية ضد أخيه المعظم عيسى، فان الكامل سيعطيه بيت المقدس وجميع فتوحات صلاح الدين الايوبى بالساحل الشامى.

وقد استجاب السلطان جلال الدين منكبرتي لنداء المعظم عيسى وارسل له خلعاً، لبسها وسار بها في شوارع دمشق وقطع الخطبة لأخيه الكامل، ولم يسكت الكامل عن هذا فأخذ يستعد للخروج إلى الشام لتأديب شقيقه المعظم عيسى.

أما عن الامبراطور فردريك هوهنشتاوفن، فقد رحب هو الآخر برسول الكامل وتشجع فردريك على الخروج إلى الشام، ورد على سفارة الكامل إليه، بسفارة مماثلة وارسل للكامل تحفاً وهدايا غريبة، وقد استقبل الكامل رسول الامبراطور بالحفاوة البالغة وأكرمه كرماً زائداً، وحمله هدايا نفيسة إلى الامبراطور فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم على حد تعبير المؤرخ المقریزی.

وهكذا هيا هذا الخلاف والصراع الذي اشتعل بين الاخوة ابناء العادل الفرصة للامبراطور فردريك الثانى لتحقيق رغبة البابوية والخروج إلى المشرق الاسلامى فى حملة صليبية جديدة هى الحملة التى عرفت باسم الحملة الصليبية السادسة.

الحملة الصليبية السادسة

لقد كانت هذه الحملة من أغرب الاحداث فى تاريخ الحروب الصليبية ذلك ان الامبراطور الالماني فردريك الثانى هوهنشتاوفن الذى خرج على رأس تلك الحملة قد تعرض لمواقف صعبة خلقتها له البابوية، فى محاولات دائمة ومستمرة من جانبها لحثه على القيام بهذه الحملة الصليبية ضد المسلمين. وقد استطاع الامبراطور فردريك الثانى أن يسترد مدينة بيت المقدس دون أن يريق دماء جندياً واحداً من جنوده، وكان استعادة تلك المدينة هى حلم البابوية منذ أن استردها صلاح الدين عقب معركة حطين فى ١١٨٧، وكان استرداد هذه المدينة من يد المسلمين هو هدف الحملة الصليبية الثالثة التى خرج على رأسها أكبر ملوك فى الغرب الاوروبى، ورغم ما سأل من دماء المسيحيين والمسلمين خلال تلك الحملة ورغم مفاوضات ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا مع صلاح الدين من أجل الحصول على بيت المقدس،

إلا أن هذه الجهود كلها العسكرية والسلمية فشلت فى استعادة هذه المدينة من يد المسلمين. ورغم أن فردريك الثانى قد نجح فى استعادتها إلا أن جهوده هذه لم تقابل بالاستحسان أو الثناء لا من جانب البابا ولا من جانب المسيحيين عامة. ولنتناول الموضوع مستعرضين أحداث الحملة الصليبية السادسة من البداية.

لقد كانت هذه الحملة الصليبية السادسة، فريدة من نوعها، فهى من دون الحملات الصليبية التى لم تباركها البابوية، بل صبت عليها لعنتها، وهى الوحيدة من بين الحملات الصليبية التى جرى توجيهها دون أن تقوم بأى عمل عدائى ضد المسلمين. والواقع أن ذلك كله يرجع إلى شخصية فردريك الثانى هوهنشتاوفن الذى كان شيئاً فريداً من نوعه، بل لقد اطلق عليه معاصروه اسم (اعجوبة الدنيا).

فقد ولد فردريك من أب ألمانى هو هنرى السادس ملك ألمانيا وأم نصف ايطالية ونشأ وتربى فى صقلية على مقربة من المؤثرات الاسلامية والبيزنطية، فنشأ فيلسوفاً محباً للجدل والرياضيات، وأجاد ست لغات من بينها اللغة العربية، ونظم الشعر، وأغدق من ماله وعنايته لتشجيع العمارة والنحت والتعليم وهو إلى جانب ذلك جندي بارع وسياسى لبق إلى أقصى درجات اللباقة، مع الجرأة التى لا يخشى شيئاً والبراعة الفكرية الجانحة إلى ميادين الفلسفة والفلك والهندسة والجبر والطب والتاريخ. وألف فردريك فى البيزرة (علم تربية الطيور الجوارح وتدريبها على الصيد والقنص) كتاباً يعتبر أصلاً من أصول العلوم التجريبية فى غرب أوروبا. واصطحب فى أسفاره مجموعة من الفيلة والهجائن وعجائب المناطق الاستوائية الحارة من أنواع الحيوان. ولم تكن التقاليد المسيحية التى التزمها الناس فى ذلك العصر مما يابه له فردريك الثانى. وفى الوقت الذى كان للبابا فى الغرب الاوروبى المكانة الرفيعة السامية باعتباره خليفة القديس بطرس، نجد فردريك ينعتّه بالدجال،

نيز وي أن الامبراطور فردريك قد سأل أحد المسلمين عن الخليفة وما هية الخلافة، فأجابه بأن الخليفة ينحدر من نسل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأنه ورث عنه حقوقه في حكم المسلمين. وعندئذ رد عليه فردريك قائلاً ان ذلك هو المنطق السليم، لا مثل البابا الدجال الذي لا تربطه صلة قرى بالمسيح ومع ذلك يدعى الحق المطلق في حكم المسيحيين.

وقد عرف عن فردريك الثاني حبه للمسلمين الذين نشأ بينهم في صقلية، وقد دفع ذلك بعض الكتاب إلى اتهام فردريك بمحاباة الاسلام على حساب المسيحية، في حين ذهب البعض الآخر مثل فولتير ومونتسكيو، إلى القول بان كراهية فردريك الثاني للبابوية والكنيسة الغربية هي التي دفعته إلى حب الاسلام والمسلمين.

وعلى الرغم من أن فردريك الثاني قد بدأ حياته السياسية بتحالفه مع البابوية وهو التحالف الذي أفاده إلى حد كبير ضد خصومه ومنافسيه في ألمانيا، إلا أن الامور لم تلبث أن تعقدت بين الطرفين، بعد أن تأكدت البابوية ان فردريك غير قانع بصقلية وجنوب ايطاليا، وانما أخذ يعمل على توطيد نفوذه في شمال ايطاليا، أي في إقليم لمبارديا، وأنه اتخذ ايطاليا وصقلية مسرحاً أساسياً لجهوده والتمكين لنفسه، حقيقة ان فردريك قد حرص آنذاك على احترام مركز البابوية في ايطاليا، ولكن سيطرته على جنوب ايطاليا وشمالها كان نذيراً بوقوع الاملاك البابوية في وسط ايطاليا بين فكي الكماشة، مما جعل البابا يرتاب في سياسة فردريك وينظر إليها بعين ملؤها الشك والخوف.

وفي سنة ١٢١٥ اقسم فردريك للبابا اينوسنت الثالث ان يقوم بحملة صليبية ضد المسلمين، ولما كان فردريك الثاني يميل للمسلمين ويعطيهم حقهم من الاحترام والتقدير، لذلك لم يجد الدافع الذي يدفعه للخروج من بلاده على

رأس حملة صليبية ضدهم، ومن ثمة فقد أخذ يعتذر للبابا مرة بعد مرة، والبابا يقبل عذره، وبعدها أصاب الحملة الصليبية الخامسة من الفشل، حاول البابا هونوريوس الثالث ان يوجد الدافع لدى فردريك للخروج فى حملة صليبية ضد المسلمين، وان يزيد فى توطيد صلة فردريك بالاراضى المقدسة فى فلسطين، فرتب البابا زواج فردريك من يولاتد ابنة حنا دى برين، ووريثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، واشترط البابا أن يتم الزواج فى الشام، وقد نفذ فردريك رغبة البابا وتم زواجه من يولاتد، ولكن بدلا من أن يذهب فردريك إلى الشام ويتم الزواج هناك، استدعى عروسه إلى صقلية. وعقب هذا الزواج اتخذ فردريك لقب ملك بيت المقدس باعتباره من حقوق زوجته.

وعلى الرغم من أن البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) كان طاعنا فى السن، الا انه امتاز بإرادة حديدية لا تقل فلم يقبل الاعذار التى دأب فردريك الثانى على ابتكارها من أجل تأجيل حملته الصليبية، واصر على ضرورة رحيل الامبراطور إلى الشرق فوراً، وإلا تعرض لعقوبة الحرمان. ولم يجد الامبراطور فردريك الثانى مفرأ من الخروج فى خريف سنة ١٢٢٧ قاصداً بلاد الشام، خصوصاً بعد ان اتصل به الملك الكامل الايوبى وارسل له سفارة على النحو الذى سبق توضيحه، ووعده بتسليمه مدينة بيت المقدس مقابل بذل المساعدة العسكرية له ضد شقيقه المعظم عيسى. وبذلك أوجد للامبراطور الدافع الذى يخرج من أجل تحقيقه وفى نفس الوقت لا يتعارض مع ما يشعر به من محبة وود نحو المسلمين فهو لا يخرج عدوا لهم، وانما كصديق وحليف للسلطان الملك الكامل الايوبى.

على أن الامبراطور ما كاد يبحر من برنديزى، حتى خر مريضاً، نتيجة الحمى التى تفشت فترة من الزمن فى صفوف جيشه أثناء انتظارهم عبور البحر إلى بلاد الشام. وكان من نتيجة ذلك أن عاد فردريك إلى اوترانتو حتى يستعيد صحته. لكن البابا جريجورى التاسع اعتقد ان فردريك

عاد من جديد إلى التسوية والتأجيل، واعتبر مرضه تمارضاً وصادر ضده قرار الحرمان بالفعل.

ورغم ذلك فإن فردريك قد خرج على رأس حملته الصليبية في صيف عام ١٢٢٨، فعرض بذلك على أوروبا التي استبدت بها الدهشة، صورة محارب قطعت الكنيسة، خلف وراءه أملاكه التي تعرضت لغزو جند البابا الذين أعلن البابا جريجورى التاسع اعتبارهم محاربين صليبيين يقاتلون ملكاً غير مسيحي، ومن أجل ذلك جبي ضريبة العشر من سائر كنائس أوروبا. والواقع أن ما اشتهرت به حملة فردريك من التناقض كان موضع الدهشة، إذ أننا ازاء محارب صليبي، تقرر اعلان الحرب الصليبية على أملاكه. ومهما يكن فحين وصول الامبراطور فردريك الثانى إلى عكا فى سبتمبر ١٢٢٨، كان الموقف بين أفراد البيت الايوبى قد تغير. ذلك أن معظم عيسى كان قد توفى فى نوفمبر ١٢٢٧، وخلفه ابنه الناصر داود، وهو شاب صغير السن فى العشرين من عمره ليست له خبرة ولا قوة ولم يلبث ان اشتغل باللهو وأعرض عن مصالح الدولة، وبذلك زال الخطر عن الملك الكامل ولم يعد فى حاجة إلى مساعدة الامبراطور فردريك الثانى، بعد ان اقتسم الكامل والاشرف موسى أملاك شقيقهما المعظم عيسى، وقد احتل الكامل بيت المقدس ونابلس فى صيف عام ١٢٥٨.

وهكذا أصبح الموقف حرجاً، لأن الملك الكامل هو الذى استدعى الامبراطور فردريك إلى الشام لمساعدته، حقيقة ان هناك عوامل خاصة بالغرب الاوروبى والبابوية التى دأبت على حث فردريك على الخروج فى حملة صليبية ضد المسلمين، ولكن لا نستطيع اغفال استدعاء الكامل للامبراطور ووعده بتسليم بيت المقدس له وهو ما شجع الامبراطور على الخروج إلى الشرق على رأس خمسمائة فارس فقط معتمداً على وعد الكامل بتسليمه بيت المقدس سلمياً. لذلك فقد شعر الملك الكامل بالحرج ويصور

المقریزی الموقف أصدق تصوير حين يقول: "تحرير الملك الكامل، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته لما كان تقدم بينهما من الاتفاق، فراسله ولاطفه".

أما عن موقف الامبراطور فردريك الثاني فلم يقل حرجاً عن موقف الكامل، لأنه خرج من بلاده وهو محروم من رحمة الكنيسة ومغضوباً عليه من البابوية، معتمداً على وعد الكامل له ولو كان فردريك يعلم أن الكامل سينكث بوعده لاستعد استعداداً طيباً واحضر معه جيشاً كبيراً يساعده على حماية مصالح الصليبيين بالاراضى الشامية، خاصة وأنه لا يمكنه الاعتماد على تعاون الصليبيين بالشام معه لأن أى مسيحي مخلص يرفض التعاون مع شخص محروم من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس.

ولو عاد فردريك إلى الغرب الاوروبى دون أن يحصل على بيت المقدس، ازدادت الامور سوءاً بالنسبة له، وسيكون ذلك سلاحاً جديداً فى يد البابوية تحاربه وتشنع عليه. فالموضوع بالنسبة لفردريك كان موضوع مستقبل عرشه فى الغرب ومصير المعركة بينه وبين البابا، وليس موضوع استرداد بيت المقدس من يد المسلمين فى حد ذاته. والدليل على ذلك ما قاله فردريك للملك الكامل من أنه "ماله غرض فى القدس ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج" وكان البابا يدرك كل ذلك جيداً، لذلك فقد أخذ يرسل الملك الكامل ويحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور فردريك، لأنه لو قدر له استرداد بيت المقدس فإن ذلك سيكون انتصاراً له على البابوية وسيعتبره المعاصرون حكم الله العادل لصالح الامبراطور فردريك. ومن ذلك يتضح تناقض موقف البابوية التى ملأت العالم الغربى صراخاً وعويلًا على ضياع بيت المقدس ودعت للحملة تلو الحملة لاسترجاعها من يد المسلمين، وها هى الآن تحت الملك الكامل وتحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور فردريك وهذا يوضح ان البابوية لم يكن يهمها استرجاع المسيحيين لبيت المقدس بقدر ما يهمها مصالحها الخاصة

في حربها ضد الامبراطور فردريك ورغبتها في عدم احرازه لأي نصر يعزز موقفه أمام العالم الغربي المسيحي.

على أية حال، فبمجرد وصول الامبراطور فردريك إلى عكا ارسل سفارة إلى الملك الكامل الايوبي تحمل له الهدايا النفيسة من المنسوجات الحريرية والوانى الذهبية والفضية وتلتمس منه تحقيق وعده وتسليم الامبراطور بيت المقدس.

لكن الملك الكامل اعتذر عن عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور مما دفع الامبراطور لفتح باب المفاوضات بعد أن علم أن البابا اصدر ضده قرار الحرمان للمرة الثانية وانه أباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته، كما أخذ البابا في نشر الاشاعات ضد الامبراطور وكان آخرها أن الامبراطور قد مات وادعى البابا لنفسه حق الوصاية على الامبراطورية.

وقد أثرت هذه الأخبار تأثيراً سلباً على نفسية الامبراطور، وقد دفعه كل ذلك إلى ارسال رسالة للملك الكامل أوضح فيها موقفه توضيحاً تاماً فقال: "أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج وأنت تعلم اني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى، فان رجعت خائياً انكسرت حرمتى بينهم .. وهذا القدس فهى أهل اعتقادهم وضجرهم والمسلمون قد اخربوها فليس لها دخل طائل، فان رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر" وقد تأثر الملك الكامل تأثراً بالغاً بنغمة الاستعطاف هذه التى سار عليها الامبراطور، بالإضافة إلى ما سبق توضيحه من انه خشى ان رفض تسليم القدس واتفق الامبراطور مع الصليبيين بالشام ضد الكامل فان موقفه سيكون سلباً للغاية. أضف لذلك ان الملك الكامل بطبيعته كان متسامحاً أكثر من اللازم ولعل ذلك يبدو واضحاً في عرضه على الصليبيين - أثناء الحملة الصليبية الخامسة على

مصر أكثر من مرة تسليمهم بيت المقدس - وكذلك ارساله السفارة إلى الامبراطور فردريك في الغرب الاوروبى ووعده بتسليمه بيت القدس، وهذا يدل على تسامح بل واستهتار من جانب الكامل فى حق هذه المدينة المقدسة التى عانى عمه صلاح الدين أشد المعاناة وأقصاها حتى تم له استردادها من يد الصليبيين. على أية حال انتهت المفاوضات بين الطرفين بعقد اتفاقية يافا فى ١٨ فبراير ١٢٢٩، التى نصت على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرية وتبنين وصيدا. واشترط أن تظل بيت المقدس على ما هى عليه من الخراب ولا يحدد سورها وان يكون للمسلمين سائر قرى القدس، وكذلك يكون للمسلمين المسجد الاقصى يقيمون فيه شعائر الاسلام من الأذان والصلاة ولا يدخله الصليبيون إلا للزيارة فقط. كذلك نص على أن تكون مدة الهدنة بين الطرفين عشر سنين. وقد كان لهذه الاتفاقية صدى عميق عند كلا الطرفين المسلمين والصليبيين، أما بالنسبة للمسلمين فقد ألهم كثيرا ان يفرط الملك الكامل بهذه السهولة فى تلك المدينة المقدسة ويصور المؤرخ المقرئى صدى ذلك عند المسلمين بقوله: "فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعيول، وحضر الائمة والمؤذنون من القدس، إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان.. فعظم على أهل الاسلام هذا البلاء، واشتد الانكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار".

والغريب أن الصليبيين أيضاً لم يعجبهم استرداد الامبراطور فردريك الثانى لمدينة بيت المقدس وأخذوا يعبرون عن غضبهم بشتى الصور، فقال البعض منهم ان كرامة المسيحية كانت تحتم ان تؤخذ بيت المقدس بحد السيف وليس بطريق الاستجداء والبكاء كما فعل فردريك الثانى. أما البعض الآخر فأخذ يوضح ان لا أهمية لبيت المقدس بدون حصنى الكرك والشوبك وهذا ما جعل الصليبيين يرفضون عرض الملك الكامل عليهم بتسليمهم القدس أثناء الحملة الصليبية الخامسة على مصر. أما البعض الثالث فقال بانه لا قيمة لأى كسب أو انتصار يحققه امبراطور محروم من الكنيسة ومن رعاية القديس

بطرس. وقد أوقع بطريرك مملكة بيت المقدس قرار الحرمان على مدينة بيت المقدس نفسها وعلى كل من فيها من المسيحيين اذا استقبلوا الامبراطور فردريك الثانى فى مدينتهم.

وقد سارع الامبراطور فردريك بالتوجه إلى بيت المقدس عقب ابرام اتفاقية يافا، ودخلها يوم السبت ١٧ مارس ١٢٢٩ وتسلمها من يد القاضى شمس الدين قاضى نابلس الذى خصصه الكامل لخدمة الامبراطور. وقد دخل فردريك كنيسة القيامة وتوج نفسه بيده، وقد فسر المؤرخون تصرفه هذا عدة تفسيرات، فمن قائل انه فعل ذلك بعد أن رفض رجال الدين تنويع امبراطور محروم من الكنيسة، وقال البعض بانه فعل ذلك عن قصد حتى يثبت للبابا ولرجال الدين انه تسلم التاج فى هذا المكان البالغ الاهمية وهو كنيسة القيامة، من الله مباشرة دون حاجة لرجال الدين أو للبابا، وهو الذى ملأ الدنيا صياحاً بأن التاج الامبراطورى ما هو إلا منحة من البابا للامبراطور، أو اقطاع يمنحه للامبراطور، وعلى الامبراطور أن يكون فصلاً تابعاً للبابا يؤدي له ما للفصل من واجبات نحو سيده.

وقد قام الامبراطور وهو فى بيت المقدس بزيارة المسجد الاقصى وكان الملك الكامل قد منع اقامة الأذان به طيلة وجود الامبراطور بالمدينة اعظاما واحتراما له، ولكن فردريك غضب لذلك التصرف من جانب الكامل واوضح بأنه كان يود أن يسمع أذان المسلمين وتسييحهم فى الليل. وقد دعى ذلك بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن فردريك كان مسلماً ويتلاعب بالنصرانية على حد تعبير المؤرخ العينى.

وأثناء وجود الامبراطور داخل بيت المقدس وصلها بطرس اسقف قيسارية ليوقع قرار الحرمان على المدينة، وقد استاء الامبراطور لذلك واعتبرها اهانة كبيرة لحقت بشخصه، وغادر القدس إلى يافا، ثم إلى عكا

فوصلها يوم ٢٣ مارس ١٢٢٩، وقد غادرها في أول مايو ١٢٢٩ بحراً إلى قبرص حيث قضى بها عدة أيام ثم تركها إلى إيطاليا فوصلها يوم ١٠ يونيو ١٢٢٩.

وهكذا انتهت هذه الحملة التي اتسمت بالغرابة من بدايتها حتى نهايتها. ويعقب المؤرخ أرنست باركر على هذه الحملة بقوله:
"لم تتخذ الحملة السادسة صفة الحرب المقدسة، إنما الذي حدث فعلاً، هو نوع من المساومة الحقيرة، مثلما يجرى عادة في أى سوق من أسواق الشرق، بين ملك صقلية المشهور بحريته الفكرية وميله نحو الشرق، وبين سلطان مصر. والواقع أن فردريك إنما تصرف بروح ملك صقلية لا بروح ملك بيت المقدس، وهذا ما كان لابد أن يقوم به. فمن أسلافه الصقليين، الذين عقدوا معاهدات تجارية مع مصر، تعلم فردريك أن يجعل من الحرب، وإن كانت صليبية، مسألة معاهدة، فعلى الرغم من أن الفرع النورمانى الذى انحدر منه ملوك صقلية كاد يختفى، فإن سياسته بقيت من بعدهم، عند من خلفهم من ملوك أسرة هوهنشتاوفن، تلك السياسة التى أسهمت فى تحول الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية هدف النورمان من قديم الزمن، والتى أمعنت فى أن تجعل للحملة السادسة مظهرها الدنيوى والدبلوماسى، المجرد من الدين".

أما المؤرخ فيشر فانه يختلف فى نظريته للحملة الصليبية السادسة عن نظرة باركر، حين يقول:
"عقد فردريك البعيد النظر مع صديقه السلطان الكامل ابن العادل الايوبى معاهدة تبيح للحجاج المسيحيين زيارة الأماكن المقدسة مدة عشر سنوات، وذلك دون أن يضيع وقتاً، أو ينفق مالا أو يهدر دماً. تلك هى ثمار المهارة السياسية، حين تحل الانسانية والادراك السليم محل الحقد الاعمى الذى ينجم عن التعصب الدينى والكراهية بين اجناس البشر".

ومهما كان حكم المؤرخين على الحملة الصليبية السادسة وما حققته من استعادة بيت المقدس دون اراقة دماء. فالذى لا شك فيه ان الملك الكامل الايوبى قد فرط تفريطاً كبيراً بالتنازل عن بيت المقدس هكذا وببساطة. وكان الواجب يقتضى منه أن يحارب الصليبيين ويدافع دفاع المستميت عن هذه المدينة المقدسة، وكان من الخير له وللمسلمين ان تقع بيت المقدس فى يد الصليبيين بعد حرب وقتال، لا أن يسلمها لهم دون اراقة دماء. لذلك فقد استحق الملك الكامل غضب المسلمين وثورتهم عليه، أو كما قال المؤرخون المسلمون : "قامت القيامة فى جميع بلاد الاسلام، واشتدت العظائم، بحيث ان اقيمت المآتم". وقد كان من نتيجة ذلك ان ادرك الكامل مدى الورطة التى وقع فيها وندم على تسليم بيت المقدس ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان.

الفصل التاسع

مصر

والحملة الصليبية السابعة

كيف تنازل الملك الكامل عن بيت المقدس إلى الامبراطور
فردريك الثانى هوهنشتاوفن وصدى ذلك عند كل من المسلمين والصليبيين،
على أن هذه المدينة لم تلبث أن خرجت من يد الصليبيين وإلى الأبد هذه
المرّة.

وتتلخص ظروف ذلك فى أنه بعد وفاة الكامل فى أوائل مارس ١٢٣٨،
خلفه ابنه العادل الثانى، الذى صارت له السلطنة والسلطة العليا فى الدولة
الأيوبية، على أن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، استولى على دمشق
سنة ١٢٣٩، مما أوقعه فى نزاع مع شقيقه العادل، وقد استعان كل من
الشقيقتين بأنصار من أبناء البيت الايوبى نفسه، فضلاً عن استعانتهما بجموع
الخوارزمية الذين تفرقوا فى بلاد الشام وآسيا الصغرى بعد مقتل سلطانهم
جلال الدين منكبرتى.

على أن كبار الامراء بالدولة الايوبية بمصر قد استاءوا من الملك
العادل الثانى لانشغاله باللهو عن تدبير مصالح الدولة فقبضوا عليه فى نهاية
مايو ١٢٤٠ وعزلوه واستدعوا شقيقه الملك الصالح نجم الدين أيوب، فدخل
القاهرة فى ١٩ يونيو ١٢٤٠ واصبح سلطان مصر (١٢٤٠ - ١٢٤٩). على
أن الخلاف الذى كان بين الصالح نجم الدين وبين عمه الصالح اسماعيل،
الذى سبق له طرد نجم الدين أيوب من دمشق واستولى عليها، لم يلبث هذا
النزاع ان أشتد وتطور بصورة خطيرة بعد أن استعان الصالح اسماعيل
بالصليبيين واتفق معهم على غزو مصر، ولم يجد الصالح نجم الدين أيوب
عندئذ بدا من الاستعانة بالخوارزمية، الذين لم تكف تصلهم دعوتّه حتى اندفع
عشرة آلاف منهم فى فرحة كبرى نحو بلاد الشام فأغاروا على المدن والقلاع
الصليبية حتى وصلوا إلى بيت المقدس، التى كانت بدون ملك أو قائد يحميها
ويدافع عنها، فاستجد الصليبيون الموجودون بها بأمر انطاكية وملك ملك

قبرص وحلفائهم من الحكام المسلمين أمثال ملكا دمشق وحمص، ولكن أحدا منهم لم ينجدهم لاتشغالهم بمشاكلهم الخاصة.

وهكذا اندفع الخوارزمية واقتحموا بيت المقدس فى ١١ يوليو ١٢٤٤ واستولوا عليها فى سهولة، وقد اعملوا السلب والنهب والتدمير فى المدينة وخاصة ضد اهاليها من الصليبيين، وعلى هذا النحو عادت بيت المقدس إلى قبضة المسلمين ولم يقدر لجيش مسيحي ان يقترب منها بعد ذلك حتى الحرب العالمية الاولى.

وبعد ان قام الخوارزمية بعمليات نهب واسعة النطاق فى بيت المقدس وضواحيها، اتجهوا صوب غزة للاجتماع بالجيش الذى أرسله السلطان نجم الدين أيوب فى اكتوبر ١٢٤٤ وكان هذا الجيش بقيادة المملوك ركن الدين بيبرس وفى ذلك الوقت كانت قوات الحلف الشامى - الصليبي قد اتجهت هى الاخرى إلى غزة فى طريقها إلى مصر للاستيلاء عليها واخراج الصالح نجم الدين أيوب منها، وقد التقى الطرفان الجيش المصرى والخوارزمية من جهة وجيش الصليبيين وجيوش حمص ودمشق والاردن من جهة أخرى. وفى ١٧ اكتوبر ١٢٤٤ اشتعل القتال بين الطرفين فى موقعة غزة، وفيها حلت الهزيمة الساحقة بجيوش الصليبيين وحلفائهم حتى قدر عدد قتلاهم بأكثر من ثلاثين ألفا، غير الأسرى الذين سيقوا إلى مصر وكان عددهم يقارب الألف.

وقد كانت هذه المعركة أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين ١١٨٧، حتى اطلق المؤرخون المسلمون على معركة غزة هذه اسم (حطين الثانية).

وقد أدت كل هذه الظروف التى احاطت بالصليبيين فى الشام وفلسطين وما ترتب عليها من ضياع بيت المقدس من جهة والكارثة التى حاقت بهم فى معركة غزة من جهة أخرى إلى قلق الغرب الاوروبى وخوفه من ضياع

البقية الباقية من الممتلكات الصليبية في الشام وبالتالى التفكير في ارسال حملة صليبية كبيرة لتتار مما نزل بالصليبيين وتستعيد بيت المقدس لقبضتهم مرة أخرى. وكان أكثر الذين تأثروا بأوضاع الصليبيين في الشام ملك فرنسا لويس التاسع الذى عرف باسم القديس لويس.

وكان عرش فرنسا قد آل إليه في ٢٩ نوفمبر ١٢٢٦ بعد وفاة والده لويس الثامن، وكانت والدته هي الملكة بلانش ابنة الفونس التاسع ملك قشتالة، التى عرفت بالتقوى والتفانى في خدمة الكنيسة المسيحية، والتي عنيت بتنشئة ابنها نشأة دينية صارمة.

وقد دعا الملك لويس التاسع إلى حملة صليبية ضد مصر^(١) من أجل الاستيلاء عليها ثم عن طريقها يمكنه استخلاص بيت المقدس. وكانت دعوته تلك اثر مرض خطير ألم به في أواخر عام ١٢٤٤، أشرف فيه على الموت كما يذكر مؤرخ حياة القديس لويس وهو جوانفيل، ويستطرد جوانفيل قائلاً ان إحدى السيدات اللاتي كن يمرضنه ظنت ذات مرة انه قد قضى عليه فارادت تغطية وجهه بغطاء، فعارضتها سيدة أخرى كانت تقوم على الجانب الآخر من الفراش، لم تحتمل رؤية هذا المنظر فقالت انه لايزال حياً.

وبينما هاتان السيدتان في جدلهما حول فراشه، اسبغ عليه الله عز وجل الصحة وانطقه بعد سكوت، وبث فيه القدرة على الكلام، فطلب اليهما أن تأتياه بالصليب ففعلتا ما طلب.

^(١) هذه الحملة هي المعروفة بالحملة الصليبية السابعة، ومن أحسن الكتب التى تناولتها كتاب الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف، وهو دراسة قيمة مفيدة قائمة على اساس الدراسة التحليلية المتعمقة المتميزة بالاصالة العلمية، انظر جوزيف نسيم يوسف: العلوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور، الطبعة الاولى، ١٩٦٩.

وقد تعهد لويس منذ ذلك الحين ان يحمل الصليب ويذهب إلى الاراضى المقدسة ويستعيد بيت المقدس ليد الصليبيين من جديد، ايماناً منه ان الله من عليه بالشفاء من مرضه لكى يقوم بهذه المهمة التى كرس حياته من أجلها.

اذن فهذه الحملة الجديدة كان ملك فرنسا هو أول من دعا إليها ولم يلبث الباب اينوسنت الرابع ان دعا مضطراً لهذه الحملة بعد أن ارسل بطريرك بيت المقدس إلى الغرب الاوروبى سفاره على رأسها واليران اسقف بيروت، وقد عقد البابا اينوسنت الرابع مجمع دينى فى مدينة ليون فى الفترة من ٢٨ يونيو وحتى ١٧ يوليو ١٢٤٥. وبعد ان اتخذت قرارات هامة فى هذا المجمع سمح لواليران بالتحدث فأخذ يفيض فى وصف الحالة السيئة التى اضحى فيها الصليبيون بالشام وكيف فقدوا بيت المقدس، وكيف سقطت زهرة فرسانهم فى معركة غزة، كما أفاض أيضاً فى وصف الفظائع التى ارتكبها ضدهم الخوارزمية. وقد تأثر الحاضرون أياً تأثر، ولم يجد البابا اينوسنت الرابع بداً من الاشتراك فى الدعوة للحرب الصليبية وبذل الامتيازات الروحية للمشاركين فيها، وهو ما جرت عليه عادة البابوات فوجد كل من يشترك فى هذه الحملة الجديدة بالغفران التام عن خطاياهم وذنوبهم بمجرد اتخاذهم شارة الصليب ومن الاهمية بمكان ان نشير هنا إلى ان البابا اينوسنت الرابع قد اضطر للدعوة لهذه الحملة على عكس البابوات الذين سبقوه ونادوا بالحروب الصليبية ضد المسلمين، أما هذا البابا فقد كان الخلاف بينه وبين الامبراطور فردريك الثانى هو هشتافن مشتعل على أشده فى الغرب الاوروبى وذلك فى حلقة من حلقات الصراع المرير الذى قام بين البابوات من ناحية والباطرة الالمان من ناحية أخرى حول المبدأ الذى ينادى بسمو البابوية وسيادتها على الباطرة والملوك وكافة الحكام العلمانيين والذى استمر لمدة قرنين من الزمان. وكان البابا اينوسنت لا يهتم ارسال حملة صليبية ضد المسلمين ولا استرداد بيت المقدس بقدر ما يهتم انتصاره على الامبراطور فردريك الثانى، وقد عقد البابا مجمع ليون من أجل توقيع قرار الحرمان على الامبراطور

فردريك الثانى أولا وقبل كل شىء. وقد حاول مندوب الامبراطور فردريك الثانى فى مجمع ليون ان يوفق بين البابا والامبراطور ووعد البابا ان الامبراطور سوف يساهم بجهوده فى توحيد الكنيستين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية وهو الحلم الذى ظل يراود البابوية، وكذلك استعداد الامبراطور لم اربة الخوارزمية والمسلمين واعادة الاستقرار والأمن إلى ربوع الممتلكات الصليبية فى الاراضى المقدسة، ولكن البابا رفض ذلك كله. وقد توسط القديس لويس ملك فرنسا بين الطرفين أكثر من مرة والتمس من البابا رفع قرار الحرمان عن الامبراطور فردريك، ولكن جهوده باءت بالفشل ورفض البابا رفضاً باتاً التماس لويس.

ولذلك كله فان البابا اينوسنت الرابع لم يترك وسيلة إلا واستخدمها من أجل احباط مشروع الحملة الصليبية أو على الأقل العمل على تعطيلها وتأخير قيامها حتى يتسنى له استخدام القوات الصليبية ضد عدوه اللدود فردريك الثانى الذى كرس البابا جهوده كلها من أجل القضاء عليه ولم يترك سلاحاً دينياً كان أم دنيوياً إلا واستعمله لخدمة هدفه هذا.

وهكذا يمكن القول بأن البابا اينوسنت الرابع اضطر للدعوة للحملة الصليبية الجديدة حتى لا يثير ضده شعور المسيحيين فى الغرب الأوروبى بعد أن أوضح واليران مدى حاجة الصليبيين فى الاراضى المقدسة إلى نجدة عاجلة. وإن كان البابا فى قراره نفسه لا يريد قيام هذه الحملة.

وقد أخذ لويس التاسع ملك فرنسا يحث البابا اينوسنت على ارسال مندوبين عنه للتبشير بالحملة فى ربوع اوروبا، فأرسل البابا مندوبا عنه يدعى ادون دى شارتر للتبشير بالحملة فى فرنسا، كذلك انتشر بعض الدعاة للحملة فى مختلف انحاء اوروبا داعين لها. وقد كانت الاستجابة فى فرنسا أكثر من أى بلد أوروبى آخر. خاصة وأن ملكها لويس أخذ يدعو بنفسه لهذه الحملة،

وكان أول من أدرج اسمه فى سجل الحرب الصليبية الجديدة. وحذا حذوه أشقائه الثلاثة وهم روبرت كونت أرتوا والفونس كونت بواتييه، وشارل كونت أنجو وكذلك اشترك فى هذه الحملة جون لورد جوانفيل الذى أرخ لهذه الحملة وكان أحد فرسانها.

ويقال أن الملك لويس قد لجأ إلى حيلة طريفة من أجل أن يكسب فى هذه الحملة أكبر عدد ممكن من نبلاء وبارونات مملكته. فقد كان من عادة لويس أن يقدم الهدايا إلى كبار رجال دولته فى عيد الميلاد من كل عام. وفى ليلة عيد الميلاد لسنة ١٢٤٥ دعاهم كعادته فى كل عام واهدى كلا منهم وشاحا كان قد أمر أن يحاك عليه علامة الصليب، وحين ارتدوا هذه الاوشحة شاهد كل منهم علامة الصليب على كتف زميله، فغمرهم السرور ولم يجدوا بدا من تنفيذ رغبة مليكهم وانخرطوا جميعا فى سلك الحملة الصليبية الجديدة.

وقد اخذ لويس فى توفير احتياجات الحملة من السفن البحرية، ولما كان لا يملك شيئا منها فقد استعان فى ذلك بسفن جنوا ومرسيليا التى تم استئجارها منها، اما البندقية فقد رفضت ان تمده بأية سفن نظرا لعلاقتها الطيبة بمصر. كذلك ارسل لويس قبل خروجه على رأس الحملة بحوالى عامين جماعة من رجاله إلى قبرص لشراء واعداد ما يحتاجه جيشه من المؤن والنيبذ وغيرها مما يحتاجون إليه، وكانت قبرص قد اتخذت كنقطة تجمع للصليبيين المتوجهين إلى مصر.

أما عن توفير المال اللازم للانفاق على الحملة فقد تم جمعه من الضرائب التى فرضت على الاكليركيين والعلمانيين الذين لم يشتركوا بشخصهم فى الحملة.

وبعد أن نظم لويس أمور الحملة من حيث النفقات اللازمة لها ومن حيث المؤن، قام بتنظيم شئون مملكته وأتاب عنه والدته الملكة بلانش صاحبة قشتالة لتدير شئون المملكة أثناء فترة غيابه، كما أقسم له كبار رجال مملكته يمين الولاء ومراعاة حقوقه والاخلص له ولابنائه الصغار وعدم القيام بمحاولات لاغتصاب ملكة أثناء تغييه في مهمته المقدسة في الشرق.

وبعد ثلاث سنوات منذ الدعوة لهذه الحملة في عام ١٢٤٥، وبعد أن تم اعداد كل شئ، غادر لويس باريس في ١٢ يونيو ١٢٤٨ وكان بصحبته زوجته مرجريت وشقيقه شارل وروبرت، أما شقيقة الثالث الفونس فقد ظل بفرنسا يقوم بجمع جموع أخرى ووعد باللاحاق بالحملة فيما بعد على رأس هذه الجموع.

وقد مر لويس بمدينة ليون حيث كان البابا اينوسنت الرابع موجودا بها، فافضى اليه لويس باعترافه وحصل منه على صك الغفران التام من خطاياه، ولم ينس لويس ان يتوسل إلى البابا من أجل الصفح عن فردريك الثاني هوهنشتاوفن ولكن البابا رفض. ومن ليون اتخذ لويس طريقه إلى ميناء أجمورت في جنوب فرنسا، ومنه ركب السفن ومن معه في ٢٥ أغسطس ١٢٤٨ متخذين طريقهم إلى قبرص. وفي ١٧ سبتمبر ١٢٤٨ وصلوا إلى ميناء ليماسول في قبرص حيث نزل الملك لويس ومن معه إلى أرض الجزيرة التي اتخذت نقطة تجمع للجيش الصليبية المشتركة في هذه الحملة كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وكان الرجال الذين ارسلهم لويس إلى قبرص قبل وصوله إليها بعامين قد نجحوا في تكديس المؤن التي سوف تحتاج إليها الحملة. ويصف جوانفيل ذلك فيقول "حين وصلنا قبرص الفينا الملك بها، ووجدنا كميات ضخمة من الذخيرة الرائعة، وأعنى بها ما نحتاجه من المثونة والطعام والمخازن، وكانت

حوائج الملك موضوعة وسط الحقول وعلى ساحل البحر، حيث كدس رجاله براميل كبيرة من الخمر دأبوا على شرائها مدة عامين قبل وصول الملك، وكانت البراميل تعلو الواحدة الأخرى، فإذا ما نظرت إليها من بعد خيل إليك انها بيوت كبيرة. وكدسوا أكرام القمح والشعير وسط الحقول، فإذا نظرت إليها خيل إليك أنك ترى جبالا، ذلك لأن الامطار التى طال سقوطها عليها جعلتها تتفتح فتبدو جوانبها لمطالعيها كأنها الحشائش الخضراء، فلما عمدوا إلى أخذ ما يحتاجونه منها فى مصر، قطعوا الطبقة العليا المعشوشبه، ووجدوا الحنطة والشعير جديدين، كما لو كان قد جمع منذ أمد قريب".

وكانت جزيرة قبرص تخضع وقتئذ لأسرة لوز جنان منذ ان باعها الملك ريتشارد ملك انجلترا إلى جاي لوز جنان، كما سبقت الإشارة إلى ذلك وفى ذلك الوقت كان حاكمها يدعى هنرى الأول، لوزجنان الذى تلقى لويس وحملته بالترحاب فى عاصمته نيقوسيا، وقد امضت الحملة فى قبرص مدة ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨ - مايو ١٢٤٩) والواقع أن هذه الشهور الثمانية التى قضتها الحملة فى قبرص قد اساءت إليها أكثر مما أفادتها، ذلك ان الصليبيين قد استهلكوا معظم المؤن التى تم جمعها لتزويد الحملة أثناء هجومها على مصر، لذلك استدعى الأمر تدبير مؤن جديدة لامدادها بها، كذلك فان الصليبيين أخذوا فى انفاق الأموال التى كانوا قد تزودوا بها من أجل الاتفاق على فرسانهم أثناء الحرب مع المسلمين، وقد أخذ الفرسان يهددونهم بالعودة إلى الغرب الأوروبى إذا لم يستمروا فى دفع رواتبهم، وكان أن اضطر الملك لويس إلى تزويد بعضهم بالمال اللازم للاتفاق على فرسانهم. أضف إلى ذلك أن اخبار الحملة وصلت إلى سلطان مصر واعطت فترة الثمانية أشهر التى قضاها الصليبيون فى قبرص الفرصة له لمواجهة الحملة الصليبية وتحصين مدينة دمياط وتزويدها بالمقاتلة والمؤن نظرا لتوقعه أن تكون دمياط هى المدينة التى سيبدأ الصليبيون بالهجوم عليها.

وكان يجلس على عرش مصر فى تلك الفترة الملك نجم الدين أيوب، الذى كان سياسياً محنكاً، وامتاز بإشرافه الدقيق على جميع شئون الدولة والبت بنفسه فى جميع أمورها وقد تهيأ لمصر خلال حكمه الأمن والاستقرار الداخلى.

وساعد ذلك على ازدهار التجارة، التى امتدت خزينة السلطان بمورد لا ينضب من المال، أنفق معظمه على البحرية والجيش وبناء الاستحكامات والقلاع مما كان له أبعد الأثر فى دفع عدوان الصليبيين عن ارض مصر.

ويوضح لنا بعض المؤرخين المسلمين أن أخبار حملة لويس التاسع كانت تصل إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب عن طريق الامبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن، الذى ظل على علاقات الود والصداقة مع الصالح نجم الدين أيوب كما كان من قبل مع والده الكامل. وكما يذكر المقرئى والعينى ارسل الامبراطور فردريك إلى الصالح نجم الدين برسول متكرر فى زى تاجر يخبره أن لويس التاسع عازم على السير بجحافل إلى ارض مصر لامتلاكها. وكان الصالح نجم الدين أيوب موجوداً بدمشق، فأمر بالعودة إلى مصر، ونزل باشموم طنّاح فى ١٨ مايو ١٢٤٩. وأخذ فى العمل على تحصين مدينة دميّاط لعلمه إنها كانت هدف الصليبيين فى حملتهم السابقة (الحملة الخامسة) وخوفه من أن يجرى عليها مثل ما جرى أيام والده الملك الكامل وقد زود دميّاط بالمؤن والذخيرة وآلات الحرب، كما عهد إلى طائفة من عرب بنى كنانة وهم قوم مشهورون بالشجاعة والاقدام، بحماية المدينة من الداخل والدفاع عنها ضد الصليبيين. وقد عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ وكان مقدم العساكر بالدفاع عن دميّاط، فنزل الأمير فخر الدين بعساكره على البر الغربى لدميّاط حتى يقابل الصليبيين عند وصولهم ويحول بينهم وبين النزول على ارض مصر.

وفى يوم السبت ٢٢ مايو ١٢٤٩ أبحر الملك لويس من ليماسول بقبرص ميمماً وجهه شطر مصر ويصف جوانفيل منظر إقلاع الملك وجيوشه التى بلغ عددها ٥٠,٠٠٠ جندى فيقول: "فكانت سفرته يوم السبت وبصحبه الجميع، وما كان أبداع منظر البحر وهو يبدو للعيان على امداد البصر، مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة".

على أن ريحا عنيفة هبت من ناحية مصر شتتت السفن الصليبية ودفعتها دفعا نحو عكا وغيرها من البلاد القريبة من قبرص، وكان من نتيجة ذلك أنه لم يتبق مع الملك لويس من فرسانه البالغ عددهم الألفين والثمانمائة سوى سبعمائة فارس فقط.

وبعد سكون العاصفة تابعت الحملة رحلتها صوب مصر، ووصلت أمام الشاطئ الغربى لفرع دمياط يوم الخميس ٣ يونيو ١٢٤٩ وهو الشاطئ المعروف باسم جيزة دمياط. وقد ابصر الصليبيون أمامهم على الشاطئ كتائب السلطان. ويقول جوانفيل عنها انها "كتائب يستحب النظر اليها، فقد كانت اسلحتها من الذهب اذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة فى سامعيها".

وقد بادر الملك لويس بمجرد رسوهم امام شاطئ جيزة دمياط بارسال رسول إلى السلطان الصالح نجم الدين ايوب ليسلمه رسالة من الملك لويس يطلب فيها من السلطان الاستسلام ويستعرض فيها قوته من قبيل التخويف والارهاب وكانت رسالة لويس إلى السلطان كما يلى:

"بسم الله الفصيح صاحب الدين الصحيح عيسى بن مريم المسيح، أما بعد، فانه لم يخف عليك ولا على كل ذى عقل ثاقب انك امين هذه الملة

الحنيفية، وانا أمين هذه الملة النصرانية وليس يخفى عنك ما فتحنا من بلاد
الاندلس، واخذنا النساء والعذارى وفرقتاهم على ملة النصارى، وجعلنا
رجالهم أسارى، ونساءهم عليهم حيارى وقد علمت ما نحن فيه من حق
الرعية لما فتحنا بلاد المهدية وعتونا على ثغر الاسكندرية فلا تلجئ العالم إلى
العسف ولا تسمهم بسيماء السخت، نقتل العباد، وندوس البلاد، ونظهر
الأرض من الفساد فان قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال
ورميتهم فى أسر الوبال، ويكثر فيهم العويل ولا يرمم عزيز ولا ذليل، ولا
تجد إلى نصرتهم من سبيل، ونحن شرحنا لك ما فيه الكفاية، وبذلنا لك غاية
النصيحة والهداية، ان تتقل إلى عندنا ما عندك من الرهبان، وتحلف لنا
بعضائم الايمان، أن تكون لنا نائباً على مر الازمان. وتعجل لنا بما عندك من
مراكب وطرائد وشوان ولا تكون فيك فترة ولا توان لتكون قلوبنا راضية
عليك، ولا تسوق حتفك اليك، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت، وتعود
تقول ياليت، وتضع الحرب اوزارها وتشعل نارها، ويتعالى شرارها ويقتم
فغارها، وتأخذ منكم بنارها، فسيوفنا حداد، ورماحنا مداد وقلوبنا شداد، ويحكم
بيننا وبينكم رب العباد. فان كانت البلاد لك فهدية ألقيت بين يديك، وان كانت
لنا فيدنا العليا عليك، إذا استحققتنا امارة الملتين وحكم الشريعتين وييد الله
تعالى السعادة وهو الموفى للارادة".

فلما وصلت هذه الرسالة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب لم يابه
لتهديد لويس له ورد عليه برسالة استخف فيها بتهديداته ونعته بالمغرور،
وأخذ يستعرض ويشيد ببطولات المسلمين وقوة بأسهم، وكان رد السلطان
علي رسالة لويس كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلي الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
أجمعين، والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على القوم
الظالمين، من عند الزائد عن حرم المسلمين، والقا كتاب رب العالمين المنزل

على خير المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الانتصار والمهاجرين، صلاة دائمة إلى يوم الدين. أما بعد فقد وصل كتابك، وفهمنا لفظك وخطابك، وها أنا قد اتيتك بالخيال والرجال، والخزائن والأموال، والعساكر والاتقال، والقيود والأغلال، فإن كانت لك فانت الساعى وقد آمنت الناعى، وإن كانت عليك فانت الباغى لحتفك والجادى انفك بظلفك، فإن رأيت الا تقيم بين الفنتين ضغنا، فلذلك من الله علينا وعليك مننا، وإن غير ذلك فقد قال الله تعالى: ﴿افمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ ولما وصل أينا كتابك أعطيناك جوابك، ومن يهديه الله فهو المهتدى ومن يضل فلن يجد له وليا مرشدا. وفى كتابك تهددنا بجيوشك، وابطالك وخيلك ورجالك، او ماتعلم انا نحن ارباب الحتوف وفضلات السيوف ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ولا عدم منا فارس إلا جددناه، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه، فلو نظرت - أيها المغرور - جد قلوبنا وحد حروبنا، لرأيت فرسانا استنهم لا تمل وسيوفهم لا تكل وقلوبهم لا تذل، ولعفيت عن يدك بسن الندم ولأحزت تحريك قدم عن قدم، فلا تعجبك العساكر التى بين يديك، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك، إذا اتاك كتابى هذا فلتكن منه بالمرصاد على أول سورة النمل وآخر سورة ص: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾. هنالك تطاول نحوك الاعناق، وتشخص صوبك العيون، ويشوبك الويل وتسوء بك الظنون ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾.

وهكذا يتضح من هذا الرد أن الملك الصالح نجم الدين ايوب لم يهاب الجيوش الصليبية وعلى رأسها ملك فرنسا كما أنه لم يأبه لتهديداته.

وبعد أن وصل هذا الرد للملك لويس جمع باروناته للتشاور فيما يفعلون، فأشار عليه الكثيرون منهم بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله

الذين شنتهم العاصفة، لا سيما وانه لم يبق منهم معه إلا الثلث فقط. لكن هذه المشورة لم تصادف قبولا عند الملك لويس، وقد رفض رأيهم هذا وكانت حجته في ذلك أن كل تأخير من جهتهم يقوى ساعد المسلمين، كما أنه لا يوجد ميناء آخر قبل دمياط يستطيع الملك أن ينتظر فيه رجاله، وبناء عليه فإن أية رياح قوية تهب قد تدفع سفنهم إلى بلاد أخرى كما حدث لهم من قبل أمام قبرص. وقد تغلب رأى لويس وتقرر أن يبدأ الصليبيون في النزول على الأرض المصرية يوم السبت ٥ يونيو ١٢٤٩.

أما عن المسلمين بمصر فإن قواتهم كانت مرابطة على شاطئ جيزة دمياط تحت قيادة الامير فخر الدين كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وحينما رأوا سفن الصليبيين تقترب من الشاطئ ارسلوا أربعة سفن حربية من أجل الاستكشاف ومعرفة مدى استعدادات الصليبيين، وقد اشتبك معها الاسطول الصليبي وتمكن من اغراق ثلاثة منها أما الرابعة فنجحت في الاقلاق وعادت إلى الشاطئ لتخبر الامير فخر الدين بضخامة استعدادات هذه الحملة الصليبية.

ووفقا لما تم الاتفاق عليه بين الملك لويس وقواته فقد بدأوا ينزلون على الشاطئ ولما كان الشاطئ ضحلا لم تتمكن السفن الكبيرة من الاقتراب منه وظلت في عرض البحر وركب الصليبيون الزوارق الصغيرة كما خاض بعضهم في المياه بنفسه ومن بينهم الملك لويس واشتبكوا مع المسلمين في القتال، وقد حاول الفرسان المسلمين اعاقبة نزول الصليبيين على الشاطئ واستماتوا في القتال. ورغم ذلك تمكن الصليبيون من النزول على الساحل ونصبوا خيامهم.

وقد حدثت بعض الاشتباكات بين الطرفين الاسلامى والصليبي استمرت من الصباح الباكر حتى الظهيرة، وانتهت بانتصار الصليبيين وقتلوا عدد من الامراء المسلمين البارزين.

وقد حدث حادث عاد بأسوأ النتائج على الجانب الاسلامى وان كان نفس الحادث قد افاد الصليبيين وكسبوا عن طريقه امتلاك مدينة دمياط بلا ادنى حصار أو ادنى قتال، ويتلخص ذلك الحادث فى أن الأمير فخر الدين مقدم العساكر الاسلامية قد أرسل ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذى كان معسكراً عند اشموم طنّاح، يخبره بنبأ نزول الصليبيين على ساحل جيزة دمياط، ولما لم يتلق الأمير فخر الدين جواباً على رسائله الثلاث، ولما كان يعلم ان السلطان مريضاً، فقد اعتقد أنه مات، ويقال ان الأمير فخر الدين كانت له اطماع فى الملك فخشى ان يختار المماليك سلطاناً آخر غيره، فبادر بالانسحاب من جيزة دمياط هو وقواته حتى لا تفوته الفرصة لتحقيق اطماعه وكان انسحابهم أشبه بالفرار وعبروا جسراً كان يصل بين جيزة دمياط ومدينة دمياط ذاتها، وفى عجلتهم نسوا أن يقطعوا ذلك الجسر، وحين رأى أهالى دمياط أن الأمير فخر الدين قد فر، تركوا هم الآخرون مدينتهم وفروا، وحذا حذوهم بنى كنانة الذين وكل اليهم السلطان مهمة الدفاع عن دمياط، وقد اشعلوا النيران فى سوقها حتى لا يقع فى يد الصليبيين ما يحتويه السوق من بضائع ونفائس فيفيدون منها واتجهوا جميعهم إلى اشموم طنّاح حيث المعسكر الاسلامى.

وهكذا صارت دمياط مدينة مفتوحة، وقد شعر الصليبيون بخلو المدينة من الأهالى ووسائل الدفاع، وفكروا فى أنها ربما تكون خدعة، فأرسل لويس بأحد فرسانه لاستطلاع الأمر، فعاد الفارس مؤكداً له خلوها من أهلها، وقال انه جاس خلال بيوتها.

وقد دخلت جيوش لويس التاسع مدينة دمياط فى سهولة بالغة فى ٦ يونيو ١٢٤٩. وقد وجدوا المدينة خالية من البضائع ويقول جوانفيل فى هذا الصدد أن المسلمين "كبدونا خسارة جمة باشعالهم النار فى سوق المدينة الذى كانوا قد جمعوا به كل أنواع البضائع وكل ما خف وزنه وغلا ثمنه، وكانت الخسارة التى نجمت عن هذا العمل كبيرة لا تعادلها - لا قدر الله - سوى أن يقوم أحدهم باشعال النار فى الجسر الصغير بباريس".

وقد ألقى المؤرخون المسلمون مسئولية دخول الصليبيين دمياط على عاتق الأمير فخر الدين واتهموه بالخيانة والجبن وسوء التصرف، وكان تصرفه هذا سبباً فى تحقيق الحملة الصليبية السابعة نجاحاً كبيراً باستيلائها على دمياط دون أن تراق دماء جندى واحد من جنودها أو كما قال المؤرخ المسلم المقرئى أن استيلاء الصليبيين على دمياط كان "صفوا عفواً" بغير كلفة ولا مؤنة حصار". وإذا قارنا سقوط دمياط على هذا النحو بعد يوم واحد من نزول الحملة إلى الشاطئ وما حدث أثناء الحملة الصليبية الخامسة التى لم تستطع الاستيلاء على دمياط الباسلة إلا بعد حصار دام أشهر طويلة، رغم أن دمياط وقتها لم تكن على نفس الدرجة من الحصانة والاستعداد للحصار مثل ما كانت عليه وقت استيلاء الحملة الصليبية السابعة عليها، أدركنا على الفور مدى الجرم الذى ارتكبه الأمير فخر الدين الذى اعتبر بعض المؤرخين تصرفه هذا وصمه عار فى تاريخ حياته.

ولم تغب هذه المقارنة عن المؤرخ المقرئى الذى يعجب من ذلك ويقول "وقد كانت دمياط أيام الملك الكامل لما نازلها الفرنج أقل ذخائر وعدداً منها فى هذه النوبة، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، وعندما فنى أهلها بالبواباء والجوع، وكان فيها هذه المرة أيضاً جماعة من شجعان بنى كنانة فلم يغن ذلك شيئاً".

أما المؤرخ أبو المحاسن فقد اعتبر سقوط دمياط في يد الصليبيين بهذه السهولة "مصيبية لم يجر مثلها" وقد كانت بالفعل، وقد اشتد حزن وغضب الملك الصالح نجم الدين أيوب ورغم مرضه إلا أنه أمر بشنق كبار أمراء بني كنانة، وعبثا حاولوا الدفاع عن انفسهم وتبرير فرارهم وإلقاء المسئولية على الأمير فخر الدين، ولحق الملك الصالح أصر على تنفيذ الشنق فيهم وكان عددهم حوالي الخمسين أميراً، وقد عزز عقابه هذا بفتوى من العلماء ورجال الدين. وبعد أن تم شنق هؤلاء الأمراء أمر بصلبهم على النخل كما هم بثيابهم ومناطقهم، أما المماليك والأمير فخر الدين فقد أخذ الملك الصالح يؤنبهم على فعلتهم هذه وقال لهم "ما قدرتم تقضون ساعة بين يدي الفرنج". ويقال أن الملك الصالح أراد أن يقتل الأمير فخر الدين ولكنه خشي من ثورة المماليك خاصة وأنه في موقف حرج والعدو يهدد بالزحف صوب القاهرة وامتلاك كافة الديار المصرية، وقد كتم غيظه وحنقه في انتظار انتهاء الغمة وتتاح له الفرصة لعقابه. وقد تخوف منه المماليك وأرادوا القضاء عليه ولكن الأمير فخر الدين نهاهم عن ذلك وقال لهم أن السلطان على وشك الموت، فإن مات فقد استراحوا منه وإن لم يمت فهو بين أيديهم يفعلوا به ما يشاؤون.

وقد أخذ المرض يشتد على الملك الصالح يوماً بعد يوم، وبعد سقوط دمياط في يد الصليبيين نقل معسكره من اشموم طناح إلى المنصورة، ونزل بقصر كان للملك الكامل يطل على النيل، وأخذ الجند يعملون على زيادة تحصينات المدينة وأقاموا الأسواق بها. كما جاءت سفن الاسطول المصري وعليها المقاتلين وعسكرت في النيل أمام المنصورة كذلك اجتمع بالمدينة اعداد كبيرة من المتطوعة والعربان وعامة الناس للجهاد ضد الصليبيين والحيولة بينهم وبين الوصول إلى القاهرة.

أما الصليبيون في دمياط فانهم قد استولوا على كل ما وجدوه في المدينة من الاسلاب والغنائم كما حولوا جامعها إلى كنيسة اطلقوا عليها اسم

كنيسة العذراء، وعينوا لها بطريركا كاثوليكيًا. والملاحظ أن الصليبيين لم يستغلوا انتصارهم هذا ويواصلون فتح باقى البلاد المصرية خاصة بعد أن أصيب المسلمون فى مصر بالذهول والارتباك نتيجة لضياع دمياط، ولكنهم ظلوا حوالى الخمسة أشهر فى حالة جمود عسكرى بدمياط، وكان السبب فى ذلك كما يذكر جوانفيل أن الملك لويس اراد الانتظار حتى وصول أخيه كونت بواتييه على رأس النجدة التى أخذ فى جمعها من فرنسا، وربما ارادوا بهذا الانتظار ألا يقعوا فى نفس الخطأ الذى ارتكبته الحملة الخامسة عندما زحفت وقت فيضان النيل، ولما كان الفيضان وشيكًا فقد أثروا الانتظار حتى ينتهى.

على أن هذه الأشهر التى قضاها الصليبيون بدمياط فى حالة خمول وركود عسكرى، قد افادت المسلمين، الذين عملوا على تنظيم انفسهم وتقوية استحکامات مدنهم، كما أخذوا يشنون الغارات الليلية ويتخطفون الجند الصليبيين، هذا فى الوقت الذى أخذ فيه الصليبيون يفرطون فى اللهو سواء الأمراء منهم أو البارونات أو عامة الجيش، ويصف جوانفيل هذه الأمور فيقول:

"أما البارونات الذين كان عليهم واجب الاحتفاظ بما لهم للتصرف فيه فى الوقت المناسب والمكان الملائم فقد أقاموا احتفالات ضخمة، وأفرطوا افراطًا جما فى تقديم اللحوم.

أما العامة فراحوا يراقصون النسوة الخليعات، حتى لقد حدث بعد عودتنا من الأسر، ان عزل الملك الكثيرين من رجاله، فلما سألته عن الدافع الذى حمله على ذلك أنبأنى أنه وجد - بالتأكيد - أن الذين عزلهم قد أقاموا أماكن اجتماعهم الخبيثة على رمية حجر من فسطاطة، وأن ذلك العمل منهم كان فى الوقت الذى كان فيه الجيش يكابد أشد ضروب الشقاء والألم".

ولم يكن هذا فقط ما عانت منه الحملة في دمياط ولكنها عانت كذلك من المشاحنات العديدة التي قامت بين العناصر المختلفة في الحملة وعلى سبيل المثال كان الفرنسيون يعادون الانجليز، وكانت جماعات الرهبان المسلحين المشتركين في الحملة مثل جماعات اللاوية والاستبازية دائمي النزاع والاختلاف في الرأي.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل لقد أخذت المؤن تنفذ، كما أخذت العواصف العنيفة تجتاح الوجه البحري، وتسببت في تحطيم ٢٤٠ سفينة للصليبيين.

وأخيراً وفي يوم ٢٤ أكتوبر ١٢٤٩ وصل كونت بواتييه مع باقي الجيش وقد اجتمع الملك لويس مع كبار رجال الحملة للتشاور في موضوع الطريق الذي ستسلكه الحملة، وهل سيكون طريقهم إلى القاهرة عاصمة البلاد المصرية، ام إلى الاسكندرية، وكاد الاجماع أن يكون تاماً بينهم على سلك الطريق إلى الاسكندرية، ولكن روبرت كونت ارتوا عارضهم وأصر على الزحف على القاهرة أولاً على اعتبار ان سقوط العاصمة يعني سقوط مصر كلها في يدهم، وعزز رأيه بقوله أن من يريد أن يقتل الافعى لابد له أن يبدأ برأسها. وقد لقي هذا الرأي تأييد الملك لويس. وفي يوم السبت ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ غادر الصليبيون دمياط في طريقهم إلى القاهرة سالكين نفس الطريق الذي سبق أن سلكته الحملة الصليبية الخامسة على مصر، وتركوا مدينة دمياط في ظل حراسة قوية، وبقيت بها الملكة مرجريت زوجة لويس التاسع.

في ذلك الوقت أخذ المرض يشتد على السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وفي ليلة الاثنين ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ توفي السلطان. وكان للسلطان أربعة أبناء توفوا جميعاً في حياة والدهم فيما عدا واحداً فقط هو الملك المعظم غياث الدين توران شاه، وكان وقتذاك خارج البلاد المصرية يحكم نائباً عن

ابيه فى حصن كيفا، وهنا برزت زوجة السلطان الصالح نجم الدين ايوب، لتقوم بدور بارز سجله لها التاريخ، وكانت من المماليك اعتقها نجم الدين وتزوجها وانجبت له ابنا يدعى خليلا مات فى حياة ابيه، واصبح يطلق عليها اسم "ام خليل" وان كان اسمها الاصلى هو شجر الدر.

لقد اظهرت شجر الدر حكمة ومقدرة كبيرة وبعد نظر إذ ادركت انه إذا تم اعلان نبأ وفاة زوجها سلطان مصر الصالح نجم الدين ايوب فان ذلك سيحدث بلبلة وتشتيبا لقوة الجند وربما صراعا بين الامراء على الحكم، لذلك فقد اخفت هذا النبأ إلا عن اثنين من الرجال كانا موضع ثقتهما وهما الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسن وكان اقرب الناس إلى السلطان نجم الدين أيوب. وقد وضعت جثة السلطان فى تابوت وتم نقله فى سفينة نيلية ليلا من المنصورة إلى القاهرة حيث تم دفنه فى القلعة القائمة فى جزيرة الروضة حيث توجد ثكنات المماليك البحرية. وحرصت شجر الدر على أن يستمر كل شئ على ما هو عليه وكان السلطان حى يرزق، فاستمر الاطباء موجودون بقصر السلطان حتى يظن الناس أن السلطان لا يزال مريضا، وظلت المكاتبات الرسمية تصدر باسم السلطان وتوقيعه، ويقال أن شجر الدر كانت بارعة فى تقليد توقيع السلطان.

كذلك فان شجر الدر أبدت مروءة واخلاصا يفوق الحد لابن زوجها المعظم توران شاه، فقد جمعت الامراء وطلبت منهم باسم الصالح نجم الدين ايوب ان يحلفوا له ثم من بعده لابنه المعظم توران شاه المقيم بحصن كيفا، وكتبت إلى نائب السلطان بالقاهرة تخبره بذلك، وقد نفذ الأمراء والجند رغبة السلطان وحلفوا له ولابنه المعظم توران شاه، واصبح يخطب له على المنابر بعد ابيه ونقش اسمه على سكة الدراهم والديناريين بعد ابيه. وبعد ذلك اسرعت شجر الدر إلى مكاتبة توران شاه وارسال الرسل واحدا تلو الآخر لاستدعائه إلى مصر. لكن الاحداث اثبتت ان المعظم توران شاه كان شخصا سئ

الاخلاق بدلا من أن يحفظ لزوجته ابية هذا الجميل ويكرمها، فانه أخذ يسى إليها كما سنرى فيما بعد.

نترك السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه فى طريقه إلى مصر، ونرى ما فعله الصليبيون بعد مغادرتهم دمياط قاصدين القاهرة، فقد وصلوا إلى قرية فارسكو يوم الخميس ٢ ديسمبر ١٢٤٩ دون أن يواجهوا مقاومة تذكر من جانب المسلمين. وواصل الصليبيون زحفهم مسرعين تارة ومتباطئين تارة أخرى وقد حدث اشتباك عنيف بين مقدمتهم وكانت من الفرسان الداوية ومع قوات المسلمين فى منطقة تقع بين فارسكور وشارمساح، وقد انتهى هذا الاشتباك بانتصار الصليبيين الذين واصلوا تقدمهم حتى وصلوا إلى شارمساح ثم إلى البرامون ومنها وقفوا عند منطقة شمالى بحر اشمون واصبح لا يفصل بينهم وبين القوات الإسلامية غير بحر اشموم. وقد استقر الصليبيون فى هذه المنطقة وأقاموا معسكرهم فيها وحصنوه عن طريق بناء المتاريس والخنادق، واستعدوا لمنازلة المسلمين.

أما القوات الإسلامية فكانت تحت قيادة الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ وهو نفسه الذى تسبب فى الكارثة التى حلت بدمياط ورغم ذلك، فانه ظل محبوبا من الناس فعهد إليه بقيادة الجيوش ومواجهة الصليبيين إلى أن يصل المعظم توراها شاه.

وقد عسكرت القوات الإسلامية على الضفة الأخرى المواجهة للصليبيين وأصبح يفصل بينهما بحر اشموم، وكان من الطبيعى أن يحدث مناوشات واشتباكات بين الطرفين، وحاول الصليبيون أن يردموا مجرى بحر اشموم ويقيموا جسرا يتمكنوا عن طريقه من العبور للضفة الأخرى والالتحام مع المسلمين وجها لوجه، وقد امضوا ثلاثة اسابيع وهم يعملون فى اقامة هذا

الجسر حتى انتهوا منه، وبمجرد انتهائهم قام المسلمون بتخريبه في يوم واحد، ويصف جوانفيل هذه الحادثة بقوله:

"ورأى الشرقيون افساد الجسر الذى أمر الملك بينائه، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم لا تكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه، وبذلك أفسدوا فى يوم واحد ما أجهدنا انفسنا ثلاثة اسابيع فى عمله، وذلك أنه كلما رد منا قسما من المجرى من ناحيتنا كلما زادوه من جانبهم بواسطة الفتحات التى يحدثونها" وقد فاجأ المسلمون الصليبيين بسلاح جديد لم يعرفه الغرب الاوروبى فى تلك الفترة وأن كان البيزنطيون قد عرفوه منذ زمن بعيد منذ القرن السابع الميلادى ومنهم انتقل إلى المسلمين، وكان هذا السلاح هو النار الاغريقية، وهى عبارة عن مركب من النفط والزيت والكبريت المجمد بنوع من الصمغ قابل للاشتعال يدفع فى ماسورة المدفع فى اتجاه المكان المراد احراقه وعند سقوطه ينتشر فى انحاء المكان فلا يتركه إلا بعد أن يصبح رميما، وأول من اخترع هذه النار هو مهندس اغريقى اسمه كالينيكس من مدينة هليوبوليس بالشام.

وقد انزعج الصليبيون أيما انزعاج عند رؤيتهم لهذا السلاح الجديد الذى فاجأهم المسلمون به، ولنرجع إلى جوانفيل ايضا لنستقى منه المعلومات عن مدى الفزع الذى أصاب معسكرهم وعلى رأسهم الملك اريس من جراء الخسائر التى انزلتها بهم هذه النيران يقول جوانفيل:

"حدث فى ذات ليلة من ليالى حراستنا الابراج المشرفة على الطرق المقللة أن جلب المسلمون آلة تعرف "بالمقلع" لم تكن لديهم قبل ذلك الحين، ووضعوا النار الاغريقية فى حمالة الآلة، فلما طالع لورد وولتر الفارس الطيب الذى كان معى قال: أيها اللوردات: اننا فى أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن، ذلك أنهم إذا اضرموا النيران فى ابراجنا وبقينا حيث نحن فلا بد

اننا هالكون بالحريق، وإذا غادرنا أماكن دفاعنا هذه التي وكلت حراستها إلينا فقدنا شرفنا، ولن يدفع عنا الخطر سوى الله وحده، لذلك فإن النصيحة والرأى عندي ان ننظر ح على أيدينا وركبنا كلما قذفونا بالنيران، وندعو مخلصنا ان يقينا شر هذا الخطر.

فلما أخذ وافي اطلاق النار انطرحنا ارضا على معاصمنا وركبنا كما علمنا، وسقطت القذيفة الأولى بين برجينا القائمين بحراسة الطرق المقلية، واستقرت امامنا في الحفرة التي كان الجيش يعمل على اطفاء النار بها، وكان المسلمون لا يستطيعون اصابة هدفهم مباشرة لوجود جناحي الجيش اللذين أمر بهما الملك، فكانوا يطلقون قذائفهم نحو السحاب فتسقط القذائف على رأس رجال المطافئ.

وكانت النار الاغريقية تأتي من الامام أشبه ما تكون ببرميل كبير من النار، ذات ذنب يقارب الرمح طولا، وكان يصحبها صوت هائل كدوى الرعد، وكأنها طائر في الجو تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شيء وكأنه في وضوح النهار، وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات تلك الليلة وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة.

وكان ملكنا القديس كلنا سمع صوت قذائف النار الاغريقية جلس في فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا وهتف باكيا "أيها الرب السيد الحنون احفظ لي شعبي". واننى لمعتقد حقا أن صلواته قد اسعفتنا في شدتنا وكان كلما وقعت قذيفة بالليل أرسل إلينا أحد حجابيه يسألنا كيف أصبحنا وعما إذا كانت النار اصابتنا بضرر ما".

وإزاء هذا السلاح الجديد الذي انزل ابلىغ الضرر بالمعسكر الصليبي، بعد أن راح المسلمون يستعملونه في الليل وفي النهار، احتار الصليبيون ماذا

يفعلون وراح الملك لويس يجتمع مع امرائه وباروناته للتشاور فيما ينبغي عليهم أن يفعلوه، دون أن يصلوا لحل هذه المشكلة.

لكن بعض الخونة من الأعراب وربما كانوا من غير المسلمين قد دلوا الصليبيين على مخاضة سرية يستطيعون عن طريقها عبور بحر اشموم والوصول إلى معسكر المسلمين خارج المنصورة، وقد رحب الصليبيون بهذا العرض وبالفعل اتفقوا على خوضها وكانت أول فرقة من الفرسان تخوض تلك المخاضة وتصل إلى معسكر المسلمين في يوم الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠ تتألف من الداوية ورئيسهم وفرقة أخرى بقيادة روبرت كونت ارتوا شقيق الملك لويس وفرقة انجليزية صغيرة، وقد هجمت هذه الفرقة على معسكر المسلمين على حين غرة ففوجئ المسلمون بهم وتشتت شملهم ولكن الأمير فخر الدين قائد القوات الإسلامية اندفع بين صفوف الصليبيين مستميتاً في الدفاع، ولما كان قد نسي في عجلته أن يرتدى درعه، فقد أصيب في جنبه وتلقفته سيوف الصليبيين واجهزوا عليه، وهكذا سقط هذا الأمير شهيدا في ميدان القتال ومحي عن نفسه العار الذي لحقه بعد فراره وتسببه في سقوط دمياط في يد الصليبيين.

وهكذا تم للصليبيين احراز هذا الانتصار على المسلمين الذين فروا إلى المنصورة، واحتموا في داخلها. وقد اصر روبرت كونت ارتوا على اقتحام مدينة المنصورة مع قواته وعدم انتظار وصول قوات باقي الجيش الصليبي ومعهم الملك لويس. وقد نصحه من معه بالتمهل دون جدوى، وهكذا سعى لحرقه، ذلك أنه اقتحم المنصورة مع قواته مطارداً قوات المسلمين وتوغلوا داخل شوارع وازقة المنصورة، وكان الجيش الإسلامي قد استرد شجاعته واستجمع قواه خارج المدينة وكان من حسن الحظ أن وجد في شخصية ركن الدين بيبرس البندقداري رئيساً قديراً، جمع القوات الإسلامية المشتتة وتعقب الصليبيين داخل المنصورة منزلاً بهم أشد أنواع القتل، فلما لاذوا بالبيوت

يريدون الاحتماء بها انهال عليهم سكانها بالضرب والرمى بالحجارة والطوب.
وقد وصف هذه المعركة أحد المؤرخين المسلمين فصورها تصويراً دقيقاً
فقال: " قال بعض من حضر هذه الواقعة: والله كنت اسمع زعقات الترك
كالرعد القاصف، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف، فله
درهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه أقوى
من الحديد. فلم تكن إلا ساعة وإذا بالفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين
وأسود الترك لأكتاف خنازير الفرنج ملتزمين".

وهكذا انتهت معركة المنصورة هذه بانتصار المسلمين والقضاء على
أفراد هذه القوة التي كانت بمثابة مقدمة للجيش الصليبي الزاحف صوب
المنصورة. وكان بين القتلى روبرت كونت ارتوا شقيق الملك لويس. ولم يعلم
الملك لويس بأمر هذه الهزيمة التي لحقت بمقدمة قواته، وقد عبر هو وباقي
الجيش مخاضة بحر أشموم وانتقلوا إلى الضفة الجنوبية التي يربط فيها
المسلمون، وقد وقع اشتباك عنيف بين الطرفين وكان القتال يدور وجها لوجه
بحيث أنه اشتبكت الأجساد واختلطت السيوف بعضها ببعض. وقد أحرز
المسلمون انتصاراً كبيراً، وإن كان القتلى من كلا الجانبين عددهم كبير. وقد
انسحب الصليبيون بقيادة الملك لويس وكانوا في طريقهم إلى معسكرهم شمال
بحر أشموم حين جاءته الأنباء بأن شقيقه كونت ارتوا يقاتل المسلمين داخل
المنصورة وحده وأنه في حاجة إلى نجدة سريعة، فعاد الملك وحول اتجاهه
قاصداً المنصورة ولكن فرسان المسلمين لم يمكنوه من ذلك واشتبكوا مع
جيشه في القتال من جديد مما زاد في كثرة الخسائر في الأرواح في الجانب
الصليبي ولما وجد الملك لويس استحالة ذلك، عاد بالبقية الباقية من رجاله إلى
معسكرهم شمال بحر أشموم، وأثناء عبورهم هذا البحر في طريق عودتهم
طاردهم المسلمون وقتلوا منهم عدداً كبيراً كما سقط عدد آخر غرق في
البحر. ورغم هذا كله إلا أن الصليبيين نجحوا في الاحتفاظ بمعسكر المسلمين
جنوبي بحر أشموم وسيطروا عليه.

ثم حدث اشتباك آخر بين الصليبيين والمسلمين فى يوم الجمعة ١١ فبراير، وقاد المعركة من الجانب الإسلامى بيبرس البندقدارى ومن الجانب الصليبيى الملك لويس، وقد الحق المسلمون بالصليبيين خسائر فادحة فى الأرواح، ولم يجد الصليبيون طريقه يتخلصون فيها من جثث قتلاهم سوى أن يلقوا بها فى مياه بحر اشموم وفى نهر النيل، ولكن بعد وقت قصير بدأت الجثث تطفوا على سطح الماء، فأمر الملك لويس بجمعها ودفنها فى باطن الأرض. وقد ادى كل ذلك إلى تفشى الوباء فى المعسكر الصليبيى بشكل خطير حتى كان موتاهم يومياً لا يقلون عن العشرين شخصاً.

وفى ٢٥ فبراير وصل الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة وبعد أن درس الموقف وعلم بموقع معسكر الصليبيين، لجأ إلى نفس الخطة التى سبق أن لجأ إليها جده الملك الكامل وكانت سبباً فى القضاء على الحملة الصليبية الخامسة، فأصدر أوامره بأن تقطع السفن الإسلامية الاتصال البحرى بين سفن الاسطول الصليبيى وقاعدتهم فى دمياط. وقد أتيح لهذه السفن الإسلامية أن تشتبك مع سفن الصليبيين المملوءة بالمؤن والتى كانت فى طريقها من دمياط إلى معسكر الصليبيين شمال بحر اشموم، وتمكنت سفن المسلمين أن تستولى على ٥٢ سفينة منها. بينما وقع قرابة الألف صليبيى بين قتيل واسير، واقتيد الأسرى على الجمال إلى القاهرة.

وفى يوم الثلاثاء ١٥ مارس ١٢٥٠ حدث اشتباك آخر بين سفن الفريقين واستولى المسلمون على اثنتين وثلاثين سفينة من السفن الصليبية.

وكان من نتيجة قطع المسلمين الطريق على السفن الصليبية ومنع وصولها بالمؤن إلى المعسكر الصليبيى شمالى بحر اشموم أن كاد الصليبيون أن يموتوا جوعاً. ويقول جوفانفيل "أدت هذه الأمور جميعاً إلى أن عم الغلاء المعسكر، فما وافى عيد الفصح حتى بيع الثور بثمانين جنيهاً ورأس الغنم

بثلاثين والخنزير بثلاثين، وبلغ ثمن البيضة الواحدة عشرة دنية، ويبيع كأس الخمر بعشرة جنيهاً".

ومع ادراك الملك لويس للظروف السيئة التي اضحوا فيها، بعد أن نفذت مؤونتهم وتحطمت عدتهم ونقص عددهم، فإنه فتح باب المفاوضات مع المسلمين وعرض عليهم تسليمهم دمياط ومغادرة البلاد المصرية مقابل تنازلهم عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية في فلسطين للصليبيين. وكان من الطبيعي أن يرفض المسلمون ذلك العرض لأنه لم يكن يخفى عليهم الموقف السيئ الذي امسى فيه الصليبيون.

وهكذا أصبح أمام الصليبيين أحد أمرين، فاما أن يظلوا في معسكراتهم شمالي وجنوبي بحر اشموم وفي هذا هلاكهم بعد أن نفذت المؤن وتفشت الامراض بينهم، بما فيهم الملك لويس نفسه الذي اصيب بالوباء الذي تفشى في الجيش إلى جانب اصابته بمرض الدوسنتاريا الحادة، حتى كان يغمى عليه في الليلة الواحدة عدة مرات. ويين أن يعودوا ادراجهم إلى مدينة دمياط للتحصن بها. وقد اختار لويس الحل الثاني للمشكلة التي امسوا فيها، واصدر أوامره بانسحاب قواته من معسكر المسلمين الذي احتلوه جنوبي بحر اشموم ولفت نظرهم إلى ضرورة تدمير الجسر الذي يصل بين شمالي وجنوبي بحر اشموم بعد أن يعبروا عليه، ولكنهم في عجلتهم وارتباكهم نسوا قطع ذلك الجسر. فعبر المسلمون عليه وركبوا اقفيتهم واخذوا في مطاردتهم مكبدين اياهم خسائر فادحة في الأرواح حتى وصلوا إلى قرية فارسكور هناك كانت خاتمة المطاف والكارثة الأخيرة التي حلت بالصليبيين على يد المسلمين، فقد أوسع المسلمون الصليبيين قتلا وذبحا وأسرا، وقيل أن خسارة الصليبيين عند فارسكور وحدها بلغت ثلاثين ألف رجل، في حين لم يستشهد من المسلمين سوى عددا ضئيلا لا يربو على المائة نفس.

وبعد هذه الكارثة التي حلت بالحملة الصليبية، وبعد أن هلك معظم أفراد الفرقة التي كان يقودها الملك لويس، انضم هذا الملك إلى فرقة عسكرية أخرى من جيشه وانتهى المطاف عند قرية تدعى منية أبي عبد الله. "فوضعه في منزل وسجوه كأنه ميت، بعد أن وضعوه في حجر امرأة من ريس وظنوا أنه لن يبقى حياً حتى الليل". وذلك على حد تعبير مؤرخ الحملة جوفانفيل.

وحين تاب الملك لويس إلى رشد، أرسل رسولا من قبله إلى أقرب قائد مسلم يخبره برغبة الملك في إيقاف القتال وإقرار الصلح. وفي الحال احدث المسلمون بالملك لويس ومن كان معه من الفرسان الصليبيين، الذين أرادوا مقاومة المسلمين دفاعاً عن الملك، ولكن المسلمين قاتلوهم واشتدوا في قتالهم حتى ابادوهم عن آخرهم، ثم القوا القبض على لويس واقتادوه اسيراً إلى مدينة المنصورة، حيث انزلوه هو وشقيقه كونت انجو وكونت بواتييه، في دار القاضي فخر الدين بن لقمان. وقد اكرمهم السلطان توران شاه ورتب للملك من يقوم على خدمته. وقد اشد المؤرخون الصليبيون الذين اشتركوا في هذه الحملة بالمعاملة الطيبة التي عومل بها الملك لويس من جانب المسلمين وقد أرسل له السلطان خلعه نفيسه ودعاه لحضور حفل كبير اقامه له، ولكن لويس رفض الخلعة كما رفض حضور الحفل ظناً منه أن السلطان ما دعاه لهذا الحفل إلا لكي يسخر منه ويمتهن كرامته على مرأى من الجميع.

ولم تمضِ اياماً قليلة على وقوع الصليبيين في الأسر حتى طلب السلطان المعظم توران شاه فتح باب المفاوضات مع الملك الفرنسي، وقد حاول المعظم توران شاه أن يجبر الملك لويس على الموافقة على تخلي الصليبيين عن بعض ممتلكاتهم في فلسطين أو الشام ولكن لويس رفض ذلك موضحاً أنها ليست في قبضته ولا تخضع لسلطته وبالتالي ليس له الحق في

التنازل عنها، وفي النهاية تم عقد الهدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات وكانت شروطها تتضمن النصوص التالية:-

- ١- تسليم مدينة دمياط للمسلمين فدية عن الملك لويس.
- ٢- يدفع الملك لويس مبلغ ثمانمائة ألف بيزنط (وهي عملة ذهبية بيزنطية وهذا المبلغ يساوي ٣٦٠,٠٠٠ جنيه مصرى). فداء عن باقى الاسرى الصليبيين.
- ٣- اطلاق سراح جميع الاسرى المسلمين الموجودين فى أسر الصليبيين.
- ٤- أن يعمل المسيحيون على حفظ الأمن وإقرار السلام فى جميع البلاد التى يحتلونها فى فلسطين.
- ٥- اطلاق سراح الاسرى الصليبيين الموجودين فى أسر المسلمين.
- ٦- أن يقوم السلطان بالعمل على حماية وحراسة عتاد الصليبيين وأتقالم الموجودة بمدينة دمياط بعد رحيلهم عنها إلى أن تسنح الفرصة لنقلها إلى البلاد المسيحية.
- ٧- أن يمنح المرضى المسيحيون وغيرهم ممن سيقون فى دمياط الأمان حتى يبيعون ما يمتلكونه، إلى أن يرحلوا عن البلاد المصرية.

وقد أقسم الطرفان على احترام شروط هذه الهدنة والمحافظة عليها وعدم الإخلال بها.

وعقب التصديق على هذه الهدنة، رحل لويس عن الأراضى المصرية متخذاً طريقه إلى الشام وعلى هذا النحو انتهت أحداث الحملة الصليبية السابعة على مصر، بعد أن أصيبت بكوارث وتعرضت لمحن شديدة، انتهت بوقوع زعيمها وقائدها ملك فرنسا لويس التاسع أسيراً فى يد المسلمين، ولم تحقق هذه الحملة سوى الفشل الذريع الذى أكد مهارة المسلمين العسكرية

وبلاءهم الحسن فى القتال ورد المعتدين عن أراضيتهم وتكبيدهم الخسائر
الجمه فى المعدات والأرواح على النحو الذى تم عرضه خلال سرد أحداث
هذه الحملة.

نهاية الدولة الايوبية:

لقد مر بنا كيف حافظت شجر الدر على ملك زوجها الصالح نجم الدين
ايوب بعد وفاته وأرسلت فى طلب ابنه توران شاه الذى كان مقيما فى حصن
كيفاء الذى أسرع بإتخاذ طريقه إلى مصر ووصل إلى المنصورة،
والاجراءات التى اتخذها وكان لها أثرها فى فشل حملة لويس التاسع على
مصر وأسر الملك الفرنسى.

على أن توران شاه لم يحفظ هذا الجميل لزوجته أبيه شجر الدر التى
كانت قد غادرت البلاد بعد وصوله إليها وذهبت إلى بيت المقدس. فأرسل
إليها مهددا متوعدا يطالبها بأموال أبيه، فأرسلت شجر الدر إلى زعماء
المماليك البحرية وأخبرتهم بتهديد توران شاه لها وكيف أنه لم يحفظ جميلها
ويطالبها بما ليس عندها. ولم يكن زعماء المماليك البحرية فى حاجة إلى
تحريض، بعد ما أساء إليهم جميعاً توران شاه وتكرر لهم، وقد أساء السيرة
وأخذ ينصرف إلى الفساد، وقد رأوه وهو سكران بالليل يجمع الشموع بين
يديه ويضرب رؤوسها بالسيف واحدة بعد أخرى حتى تنقطع ويقول "هكذا
أفعل بالبحرية"، ويسمى كل واحد من زعماء المماليك البحرية باسمه.

أضف إلى ذلك أن الفارس أقطاي الذى كانت شجر الدر أرسلته
لإحضار توران شاه من حصن كيفاء قد أخذ وعدا من توران بأن يمنحه حكم
حلب، ولكن توران شاه تنكر لوعده له، فأضمر له أقطاي الشر.

وفى يوم الاثنين ٢٨ المحرم ٦٤٨هـ / ٢ مايو ١٢٥٠م، مد السماط للمعظم توران شاه فى سرادقه المقام على ضفة النيل فى فارسكور، وبعد أن تناول الطعام مع بعض أمرائه ذهب إلى خيمته، فدخل عليه أحد الأمراء وهو بيبرس البندقدارى، وضربه بالسيف، فتلقى توران شاه الضربة بيده مما تسبب فى قطع بعض أصابعه، فثار واتهم المماليك البحرية بمحاولة قتله وأقسم على أن يفتيهم ولا يبقى لهم أثراً. عند ذلك اجتمع رأيهم على التخلص منه قبل أن يتخلص هو منهم. وقد ذهب توران شاه إلى برج خشبى نصب له فى فارسكور ليضمد جرحه، ولكن المماليك أحاطوا بالبرج وطلبوا منه النزول إليهم فرفض واحتفى بأعلى البرج فرموا البرج بالنار الاغريقية، وكان البرج مصنوعاً من خشب الشربين والقطن وسرعان ما احترق البرج، ويقول جوانفيل الذى كان شاهد عيان لكل ما حدث أنه لم ير فى حياته قط لهاً أجمل مرأى وأقوى شدة من هذا اللهب.

عند ذلك رمى توران شاه بنفسه من أعلى البرج إلى النيل فرموه بالسهام ولحقوا به فى النيل حيث قتله الفارس أقطاي وانترع قلبه من بين ضلوعه، وحسب رواية جوانفيل، فإن أقطاي دخل على الملك لويس ويداها ملوثتان بالدماء وقال له: ترى ماذا تعطينى إذ قتلت عدوك الذى لو عاش لقتلك؟ فلم يجبه لويس بأية كلمة، وربما ارتعد من الخوف، لئلا يجرى عليه مثل ذلك.

وقد بقيت جثة توران شاه ملقاة على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يجرؤ أحد على دفنها حتى شفع فيه رسول خليفة بغداد، فحمل إلى الجانب الآخر من النيل ودفن هناك.

وبمقتل توران شاه فى ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) انتهت الدولة الايوبية بعد حكم استمر لمدة أكثر من سبعة عقود، حققت خلال هذه الحقبة الزمنية الكثير

من المجد والانتصار على العدو الصليبي الذي جثم على أنفاس الوطن الاسلامي في الشرق الأدنى واضطلعت هذه الدولة بعبء مكافحته والنضال ضده مسجلة بذلك أروع صفحات الجهاد التي حفظها لها التاريخ.

ثم جاءت دولة المماليك وكان لها دور هام في القضاء على بقايا الصليبيين بالشام، فقام السلطان الظاهر بيبرس (ت ١٢٧٧م.) بنصيب وافر في هذه الحروب حتى توجت جهوده بالاستيلاء على إمارة انطاكية الصليبية في سنة ١٢٦٨م. تلك الإمارة التي كانت ثاني إمارة بعد الرها أسسها الصليبيون في الشرق في عام ١٠٩٧م. وقد غنم المماليك من انطاكية غنائم هائلة حتى بلغ من كثرتها ان (قسمت النقود بالطاسات) أما الأسرى فإنه (لم يبق غلام إلا وله غلام ... وأبيع الصغير باثني عشر درهما والجارية بخمسة دراهم)^(١). وقدر عدد الأسرى من انطاكية بمائة ألف أسير.

واستطاع السلطان قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠م.) ان يستولى على طرابلس في ٢٦ ابريل ١٢٨٩م. وهي رابع إمارة أسسها الصليبيون في الشرق^(٢). وانتهت آخر المعاقل الصليبية بالشام على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، باستسلام مدينة انطربطوس في ٣ أغسطس ١٢١٩م، ومدينة عثليث في ١٤ أغسطس ١٢١٩م وبذلك (تكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام)^(٣).

(١) التنوير: نهاية الأدب في فنون الأدب، ج ٢٨، ورقة ٣٠٨ (مخطوط).

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٦٨.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٤٧.

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٣٢١.

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٩٠هـ.

وهكذا دالت دولة الصليبيين بالشام بعد قرنين من الزمان وانتهى أمر هؤلاء الغزاة الغربيين إلى حيث لا رجعة وعادت بلاد الشام من قيلية شمالا حتى غزة وحدود مصر جنوبا إلى ابنائها الحقيقيون وارتفع صوت الأذان ينطلق من مآذن المساجد في هذه البقاع بشهادة أن لا إله إلا الله وإن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله أجمعين.

المصادر والمراجع

أولاً المصادر العربية

- ابن ابي الفضائل: مفضل

التهج السديد والدرر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد،
جزءان باريس، ١٩١٢.

- ابن الاثير:

عز الدين على بن محمد الجرى
(أ) التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل حققه
ونشره عبد القادر احمد طليمات القاهرة، ١٩٦٣.
(ب) الكامل فى التاريخ، ١٢ جزءاً، القاهرة ١٣٥٧هـ

- ابن اياس:

ابو البركات محمد بن احمد
بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٣ أجزاء بولاق، ١٣١١
- ١٣١٢هـ.

- ابن ابيك:

الدرر المطلوب فى اخبار بنى أيوب، مخطوط مصور
بدار الكتب المصرية.

- ابن بطوطة:

محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى
تحفة النظر فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار،
باريس ١٩٢٢.

- ابن جبير:

محمد بن احمد الاتدلسى
رحلة ابن جبير، بيروت ١٩٤٩.

- ابن الجوزى: عبد الرحمن بن علي
المنتظم فى تاريخ الملوك والامم طبعة الهند ١٣٥٩هـ
- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد
العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء بولاق، ١٢٨٤هـ
- ابن خلكان: شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم الشافعى، وفيات
الاعيان وانباء ابناء الزمان، نشره محى الدين عبد الحميد،
٦ اجزاء، القاهرة، ١٩٥٠.
- ابن دقماق: ابراهيم بن محمد بن ايدير العلانى
الانتصار بواسطة عقد الامصار، بولاق ١٨٩٣م.
- ابن شداد: بهاء الدين يوسف
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، نشر د. جمال الدين
الشيال، القاهرة ١٩٦٤.
- ابن شداد: محمد
الاعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة، جزءان،
نشر سامى الدهان، دمشق، ١٩٥٦.
- ابن واصل: جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سليم الشافعى
مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب، نشر د. جمال الشيال.

- ابن ممتي: الأسعد

قوانين الدواوين، نش عزيز سوريال عطية، القاهرة،
١٩٤٣.

- ابو شامة:

عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم شهاب الدين
(أ) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية
والصلاحية، جزاءن، القاهرة ١٢٨٧هـ .
(ب) الذيل على الروضتين نشر عزت العطار الحسيني
الدمشقي، القاهرة ١٩٤٧.

- ابو الفداء:

اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه
المختصر في اخبار البشر، القسطنطينية ١٢٨٦هـ

- ابو المحاسن:

جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي
(أ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار
الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٣.
(ب) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي محفوظ بدار
الكتب المصرية ، ٣ أجزاء

- المقرئ:

تقي الدين احمد بن علي
(أ) الالمام باخبار من بأرض ملوك الاسلام، ليدن ١٧٩٠
(ب) السلوك لمعرفة دول الملوك
حققه ونشره محمد مصطفى زيادة، القاهرة،
١٩٣٤ - ١٩٥٨.

(ج) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان،
بولاقي ١٢٧٠.

- النويري: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب
نهاية الارب في فنون الادب اجزاء من ٢٥ - ٣٠
مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية.

- النويري: محمد بن قاسم الاسكندري
الامام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية
في واقعة الاسكندرية، مخطوطة في جزئين بدار الكتب
المصرية.

- ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم
مفرج الكروب في اخبار بني ايوب
حققه ونشره جمال الشيال في ثلاثة اجزاء

- ابن الوردي: ابو جعفر زين الدين عمرد
تتمة المختصر في اخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن
الوردي، القاهرة ١٢٨٥هـ .

- ياقوت: شهاب الدين ابو عبد الله الحموي
معجم البلدان، ٥ مجلدات، بيروت ١٩٥٥.

- يحيى بن سعيد الانطاكي: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق
جزءان بيروت، ١٩٠٩.

ثانياً - المراجع العربية

- احمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم: دكتوران
تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، بيروت ١٩٧٢

- إسمت غنيم: دكتور

(أ) معركة مريكرت فى ضوء وثائق بسيللوس، بحث
منشور فى مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية عام
١٩٨١.

(ب) الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية إنحرافها ضد
القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢.

(ج) العلاقات البيزنطية الألمانية أثناء الحملة الصليبية
الثانية فى ضوء وثائق كيناموس، الفنية للطباعة
والنشر، ١٩٨٨.

(د) تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية،
١٩٨٧.

- جمال الدين الشيال: دكتور

مجموعة الوثائق الفاطمية، المجلد الاول، الطبعة الثانية،
دار المعارف، ١٩٦٥.

- جوزيف نسيم يوسف: دكتور

(أ) العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع فى
المنصورة وفارسكور، دار الكتب الجامعية، ١٩٦٩.

(ب) تاريخ العصور الوسطى الاوروبية وحضارتها.

الاسكندرية ١٩٨٤.

(ج) تاريخ الدولة البيزنطية، الاسكندرية ١٩٨٤.

- حسن ابراهيم حسن: دكتور

(أ) تاريخ الاسلام السياسى ، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٥.

(ب) تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٥٨.

- حسن حبشى: دكتور

(أ) الحرب الصليبية الاولى، القاهرة ١٩٤٧.

(ب) نور الدين والصليبيون، القاهرة ١٩٤٨.

- سعيد عبد الفتاح عاشور: دكتور

(أ) اوروبا العصور الوسطى، جزاءن، الطبعة الثانية،

١٩٦١ - ١٩٦٣.

(ب) قبرص والحروب الصليبية، ١٩٥٧.

(ج) الحركة الصليبية، جزاءن، الطبعة الثانية، ١٩٧١.

(د) مصر واشام فى عصر الايوبيين والمماليك، بيروت،

١٩٧٢.

- عماد الدين خليل: دكتور

عماد الدين زنكى، الدار العلمية، بيروت.

- عمر كمال توفيق: دكتور

مملكة بيت المقدس الصليبية الاسكندرية ١٩٥٨.

- محمد مصطفى زبادة: دكتور

حملة لوييس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة،
القاهرة، ١٩٦١.

- محمد جمال الدين سرور: دكتور

مصر في عصر الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦٠.

- محمود سعيد عمران: دكتور

الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دي برين على
مصر، الاسكندرية، ١٩٧٨.

ثالثاً - المصادر والمراجع الاجنبية

- Besant & Plamer: Jerusalem, The City of Herod and Salhdin, London 1899.
- Brehier (L.): L'Eglise et L'Orient au Moyen Age, Les Groisades, Paris 1928.
- Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947.
- Cahen (C.): La Syrie du Norde a L'EPoque des Croisades, paris 1940.
- Cambridge Medieval History, Cambridge 1957.
- Chalandon (F.): Histoire de la Premiere croisade, paris, 1900.
:Les Comnenes

- Gibbon (E.): Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1957.
- Grousset (R.): Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, (3 Vols) Paris 1943 - 46.
- Iorga (N.): Histoire de croisades, Paris, 1924.
: L'Armenie Cilicienne.
- Joinville: Histoire de Saint Louis, ed. de wailly, Paris, 1874.
- La Monte (J.): Feudal Monarchy in the Lalin Kingdom of Jerusalem, Cambridge 1932.
- Laurent (J.): L'Armenie entre Byzance et L'Islam, Paris, 1919.
- Mas Latrie: Histoire de L'île de Chypre, (3 Vols), Paris 1851.
- Michaud (J.F.): Histoire de croisades, 5 Vols, paris, 1817-22.
- Munro (D.C.): The Kingdom of the Grusades.
New York, 1936.
- Norgate: Richard the Lion Heart, London 1924.
- Ostrogorsky (G.): History of the Byzantine State, Oxford 1956.
- Recueil des Historiens des croisades, Publ. A cademie des inscription et Belles Lettres paris 1841-1906.
- Documents Arminiens, 2 Vols.
- Historiens Grecs, 2 Vols.
- Historiens Occidentaux. 5 Vols.

- **Historiens Orientaux, 5 Vols.**
- **Riant (P.): Expéditions et Pèlerinages des Scandinaves en Terre - Sainte, Paris, 1865.**
- **Richard: le Royaume Latin de Jerusalem, Paris, 1953.**
- **Rousset (P.): Les origines et les caractères de la première croisade. Neuchâtel 1945.**
- **Runciman (S.): A History of the Crusades 3 Vols, Cambridge 1957.**
- **Schumberger (G.): La Numismatique de L'orient Latin, Paris, 1878.**
- **Schumberger (G.): Recits de Byzance et des croisades, 2 Vols, Paris 1917-22.**
- **Schumberger (G.): Renauld de chatillon. Paris, 1898.**

مصادر ومراجع خاصة بالحملة الصليبية الثانية

- Anna Comnena: Alexiadis, C. S. H. B., ed. Weberi. Bonnae, MDCCCLXXVIII.
- Bailly A. Byzance, Paris.
- Brehier L. le monde Byzantine, 3 Volumes, Paris, 1947-1950.
- Bury Y. B.: A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.
- Bury : The Imperial Administrative Systeme in the Nintenn Century, London,-911.
- Cahen C. : La Syrie du Nord a lepoque des Croisades, Paris, 1940.
- Cambridge Medieval History. Vols IV, V, ed Bury, Cambridge, 1926.
- Cambridge Medieval History, Vol, IV, 2 Parts ed Hussey, Cambridge, 1975-1976.
- Cinnamus: Historiarum, in C. S. H. B. Bonnae, ed. Meineke, CXXXIII.
- Chaduick: The Celtic Realms, 1967.
- Chalandon, les Comnene, Etudes Sur l'Empire Byzantin au XI et XII Siecles Vol. II, Paris, 1912.
- Curtis : Roger II of Sicily and Normans in Louier Italy 1016-1154.

- Dictionnaire de Theologie Catholique, Sous la Direction de Vacant et Mangenton, Neuvieme edition, paris, 1922.
- Diehl, Ch. : Byzance, Grandeur et decadence, Paris, 1919.
- Diehl: Histoire de L'empire Byzantin, Paris, 1920.
- Diehl et Marcais: le mond Oriental de 395 a 1081, Paris, 1936.
- Encyclopedia Britannica, Fourteenth Edition. 12 vol, London, 1929.
- Encyclopedia des L'Islam, Par Hautsana, Basset ea Arnold, II Volusnes, E.K. 1927.
- La Grande Encyclopedie, Inventaire Raisonne des Sciences, des Lettres, des arts, parune Societe de Savants' et de gens de letters, 31 Volumes, paris.
- Filip : Celtic Civilization, London.
- Finlay G. Lan, Celtic Art, 1973.
- Finlay G. History of the Byzantine Empire from DCXIV to MLVII, London 1856.
- Finlay G. : History of Greece, ed. Tozer, Oxford, 1877.
- Gibbon: The History of the decline and Fall of the Roman Empire, ed Bury. 6Vols. London.
- Grousset: Histoire de Croissades et du Royaume France de Jerusalem, Paris, 1946.
- Haskins : The Normans in European History.

- Hussey, J. : The Byzantine World, London, 1955.
- Hussey : The Later Macedonians, The Comneni and the Agnelli, 1125-1204. in C. Med. H. Vol. IV part 1, ed. Hussey, Cambridge, 1975.
- Kugler : Studien Zur Geschichte des Zweiten Kreuzzuges, Stuttgart.
- Norwich : The Kingdom of the Sun, 1970.
- Oman : The Byzantine Empire, London.
- Oman : The Dark Ages, London.
- Ostrogorsky G : History of the Byzantine State, English Trans. by Hussey, Oxford, 1956.
- Painter : A History of the Middle Ages, London, 1979.
- Rambaud A. : Etudes Sur l'histoire Byzantine, Paris, 1912.
- Runciman : History of the Crusades, The Kingdom of Jerusalem and the Frankish east, 1100 - 1187, Cambridge., 1952.
- Seelinger : Conquests and Imperial Coronation of Charles The Great, in C. Med. H. ed. Bury, Vol. II, Cambridge, 1926.
- Vasiliev A.: Histoire de L'empire BYZ antin, Traduit du Russes par Bourguina, 2 Vols, paris, 1932.

مصادر ومراجع

خاصة بالحملة الصليبية الرابعة

- Barrachough (g): The Medieval Papacy, London, 1975.
- Brehier (L) : Vie et mort de Byzance, ed. Albin Michel. Paris, 1969.
: La Civilisation Byzantine, ed. Albin Michel, Paris, 1970.
: L'Institutions L'Empire Byzantine, ed. Albin Michel, Paris, 1970.
- Choniates(N): Historia, ed Bekker, in corpus Scriptum Historiae Byzantinae, Bonn, 1835.
- Clari ® : La conquete De constantiople, Editee par lauer, paris, 1924.
- Diehl(CH) : Une Republique Patricienne, Venise, (Bibliothèque de Philosoph et Scientifique), 1928.
- Foord : The Byzantine Empire, London, 1911.
- Gibbon(E) : The decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6, New York, 1976.
- Grousset ®: Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1956.
- Guillon (A) : La civilisation byzantine, Arthand, Paris, 1974.
- Hanotoux (g): les venitiens ont-ils trahi la chretiente en 1202? Dans la Revue Historique, vol. IV, 1877.

- Hopf : Geschichte grcehenlandz von Beg nn des Mittelalters
lis unsere zeit, in Eresch-gruber Encyclopedia,
vols. 85-86. 1867-1868.

- Hussey (J): The later Macedonians, The Comneni and the
Angeli, 1025 - 1204, inc M. H., Vol. IV, part 1,
ed. Hussey, Cambridge, 1975.

- Innocentii III: Epistolae, in Patrologia Latian, ed Paris, 1855.

- Jacob(E) :Innocent III, in C. M. H. Vol, VI, ed, Hussey,
London, 1975.

- King (E) : The Knights Hospitallers in The Holy Land, London,
1931.

- Kinnamos (J): Deeds of John and Manual Comnenus.
Translated to English by Charles M. Brand,
Columbia University Press, New York, 1976.

- Labise : Histoire de France, Paris, 1911.

- Luchaire(A) :Innocent III, La question d'orient, paris, Hachette,
1907.

- Mas-Latrie(L):Histoire de L'ile de Chypre sousles princes de la
maison de Lusignan, 3 vols, Paris, Imprimerie
Imperiale, 1852 - 1961.

- Miller : Imperial Constantiople, U. S. A. 1969.

- Nicol :The Fourth Grusade and The greek and Latin
Empires, 1204-1261, in C. M. H, Vol. IV. part, 1,
ed. Hus sy, Cambridge, 1975.

مكتبة الإسكندرية
Bibliotheca Alexandrina



0268206